170

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

تاريخ الكتاب

● القسم الثاني

تأليف: د. الكسندر ستيبتشفيتش

ترجمة: د. محمد م. الأرناؤوط

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

170

تاريخ الكتاب

القسم الثاني

تأليف: د. الكسندر ستيبتشفيتش

ترجمة: د. محمد م. الأرناؤوط

فبراير 1993

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

7 الشرق الأقصى في العصر الوسيط

لم تتعرض الثقافة الكلاسيكية في الشرق الأقصى إلى كارثة من النوع الذي تعرضت له الثقافة اليونانية-الرومانية منذ نهاية العصر القديم. ومع ذلك نجد أن الصين، أكثر بلدان الشرق الأقصى تحضرا، عانت من جمود استمر أربعة قرون تقريبا نتيجة للحروب الداخلية مع البرابرة الذين كانوا يتغلغلون من الشمال. ولكن على الرغم من ذلك لم يحدث في الصين أي انقطاع في التطور الحضاري. ففي عهد أسرة تانغ، منذ بداية القرن السابع الميلادي، سبقت الصين أوربا بعد أن توطدت من الناحية السياسية وشهدت أهم نهوض ثقافي لها في تاريخها الطويل. وكان انتشار البوذية في الصين والبلدان الأخرى في الشرق الأقصى قد أدى إلى دفعة قوية في تطور الفنون الجميلة والكتابة. فقد أدى الطلب الكبير على الكتب البوذية المقدسة إلى التوصل بسرعة إلى حلول تقنية جديدة قبل أي بلد آخر في العالم، بما في ذلك بلدان أوربا، مما أثمر إنتاجا ضخما للكتاب.

وكانت محاولات تطوير هذا الإنتاج بتأييد قوي

من الحكام الصينيين في ذلك الوقت، الذين كانوا يشجعون وينظمون ويمولون المشاريع الغالية لإصدار الكتب، الشيء الذي نجده أيضا في البلدان الأخرى للشرق الأقصى. وكانت الكثير من الاكتشافات والاختبارات التقنية في الصين والبلدان المجاورة قد وجدت طريقها إلى كثير من بلدان العالم في ذلك الوقت، بحيث أن الشرق الأقصى كان لوقت طويل المنبع الذي ألهم ثقافات العصر الوسيط من المحيط الهادي وإلى البحر الأبيض المتوسط.

وقد كان أهم دور في تطور وانتشار ثقافة الكتاب في الشرق الأقصى يخص الصين، البلد الذي كان قد خلف وراءه تقليدا ثقافيا طويلا جدا.

أ-الصين

في هذا البلد برزت في وقت مبكر مشكلة كيفية نسخ الكتب بسرعة، وخاصة الكتب الدينية.. لتلبية حاجات عدد متزايد من القراء. وكنا قد رأينا كيف أن الصينيين منذ العصر القديم قد توصلوا إلى وسيلة لنسخ الكتب بشكل ميكانيكي بواسطة النقوش الحجرية. وفي العصر القديم أيضا كان الصينيون يستعملون غالبا أختاما مصنوعة من الحجر أو العظم أو المعدن لينسخوا الكثير من اللوحات المختلفة والنصوص الدينية القصيرة. وقد بقي الصينيون يستعملون هاتين الطريقتين خلال العصر الوسيط. ففي عهد أسرة تانغ (618- 906 م) تذكر المصادر بشكل متميز «عمال النسخ» الذين كانوا مخولين بنسخ الكتب من نقوش حجرية. وفي اليابان أيضا، كانت الكتب تنسخ بهذه الطريقة حتى القرن الرابع عشر الميلادي.

وكانت الأوساط الدينية في عهد أسرة تانغ، وحتى في وقت لاحق، تفضل نسخ الكتب بهذه الطريقة على نسخ الكتب بواسطة القوالب الخشبية، التي تطورت حينئذ، لأنها كانت تعتقد أن الحجر فقط يمكن أن يحفظ النصوص الأصلية للكتب المقدسة وجمال الكتابة الصينية القديمة. لقد عايش إنتاج الكتاب في الصين تطورا قويا في عهد الأسرة المذكورة، التي قام حكامها المتعلمون بجهود كبيرة لتطوير العلوم والفنون ولبعث إشراق الإمبراطورية القديمة.

لقد كان ذلك يماثل في مغزاه عهد أوغسطين بالنسبة لتطور الثقافة الرومانية. وقد وصلت الصين حينئذ إلى قمة تطورها الثقافي في عهد

الإمبراطور مينغ هوانغ (712- 756 م) الذي عاش فيه أكبر الشعراء والفنانين الصينيين. وقد كان الفضل في هذه النهضة الثقافية يعود إلى سياسة التسامح التي انتهجها الحكام الصينيون إزاء كافة التعاليم الدينية والفلسفية، سواء التي كانت تبرز في الصين نفسها أو التي كانت تأتي الصين من أنحاء مختلفة من العالم. ففي بلاط الحكام الصينيين في ذلك الوقت (القرن السابع الميلادي) كان يمكن للمرء أن يشاهد في الوقت نفسه البوذيين والكنفوشيوسيين والمبشرين الأوائل بالمسيحية. وفي بداية حكم هذه الأسرة قام الإمبراطور تاي تسونغ (627- 649 م) بتأسيس مكتبة كبيرة في العاصمة الإمبراطورية تشانغ-آن، حيث تذكر بعض المصادر أنها كانت تحتوى على 54 ألف لفافة بينما ترفع بعض المصادر الأخرى هذا الرقم إلى 200 ألف لفافة.

وفي عهد هذه الأسرة، وبشكل مؤكد منذ القرن الثامن الميلادي، بدأ في الصين نسخ الكتب بواسطة القوالب الخشبية. وفي الواقع أن المؤرخين يذكرون أن بعض اللوحات والنصوص قد نسخت بهذه الطريقة منذ نهاية القرن السادس الميلادي، إلا أنه لم يتم العثور حتى الآن على أية نسخة من تلك الفترة. فأقدم نص مطبوع بواسطة القوالب الخشبية في الصين وموجود حتى الآن يعود إلى سنة 757 م. وكان هذا النص قد اكتشف سنة 1944 م في مغارة بمنطقة ستشوان، وهو يتضمن أحد النصوص البوذية المقدسة (رهاراني سوترا). إلا أن أقدم كتاب مطبوع بواسطة القوالب الخشبية في الصين ومحفوظ حتى الآن يعود إلى سنة 868 م، وهو يتضمن النص البوذي «سوترا الماسية». وكان هذا الكتاب قد اكتشفه السير أورل ستين سنة 1907 م في «مغارة الألف بوذي» بمنطقة تون-هوانغ في تركستان، وهو يحفظ اليوم في المكتبة البريطانية في لندن، ويعتقد بحق أن هذا الكتاب، الذي طبع بطريقة ميكانيكية، لم يكن الأول من نوعه بل إن الصينيين طبعوا قبله كتبا كثيرة بوسائل أكثر بدائية. ومما يؤكد هذا أن أقدم كتاب ياباني مطبوع بواسطة القوالب الخشبية يعود إلى القرن الثامن الميلادي، بينما من المعروف أن اليابان كانت في وضع هامشي وخاضعة للصين في المجال الثقافي. ومن ناحية أخرى فإن المؤرخين الصينيين أنفسهم يذكرون طبع الكتب في العهد السابق لأسرة تانغ.

ومن المثير أن هؤلاء المؤرخين بالذات، الذين كانوا يسجلون باهتمام كل

الأحداث المهمة المتعلقة بتطور الطباعة في الصين، لم يهتموا بتسجيل ما حدث سنة 868، أي طباعة كتاب «سوترا الماسية». ويبدو أن هذا الحدث بالنسبة لهم كان عاديا إلى حد أنه لا يستحق أن يسجل في تواريخهم.

وعلى كل حال لدينا في هذا الكتاب معطيات مهمة. ففي نهاية هذا الكتاب طبعت ملاحظة تفيد أن هذا الكتاب قد طبعه وانغ تشيه «لأجل التوزيع العام المجاني على روح والديه في اليوم الخامس عشر للشهر الرابع للسنة التاسعة لحكم هسين-تونغ»، أي في 11 أيار 868 م. وفي الواقع أن تصرف وانغ-تشيه لا يدل على أي جديد، كما أن أسلوب الطباعة والنص لا يدلان على أي جديد أيضا. فقد كان وانغ تشيه المتدين، الذي لا نعرف شيئا عنه، يتصرف كما كان يتصرف الكثير من معاصريه في بلده-وفي البلدان الأخرى للشرق الأقصى-وذلك حين يعمد بيده إلى نسخ النص البوذي المرغوب تلبية لحاجات البوذيين. ويبدو أن لجوء هذا الشخص إلى نسخ هذا النص بواسطة القوالب الخشبية لم يكن يعني أي شيء جديد بالنسبة للمؤرخين لكي يقوموا بتسجيله في تواريخهم.

إلا أن المؤرخين يخبرونا بالتفصيل عن الكتب التي شاهدوها سنة 883 م، أي بعد15 سنة من طبع «سوترا الماسية»، الموظف الإمبراطوري لسيوبين الذي رافق الإمبراطور هسي-تسونغ في طريقه إلى ستشوان. فقد دون لنا هذا الموظف خلال إقامته في تلك المنطقة أنه شاهد الكثير من الكتب المدرسية والمؤلفات المعجمية التي كانت معروضة للبيع. وكما أضاف هذا الموظف فإن «أكثر هذه الكتب كانت منقوشة على الخشب ومطبوعة على الورق».

وبالإضافة إلى هذا لدينا سبب آخر يفسر لنا صمت المؤرخين في عهد أسرة تانغ عن الحديث إلا فيما ندر عن الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية. فلم يكن هذا العمل من واجبات الحاكم أو مسؤوليات بلاطه، كما سيصبح الأمر فيما بعد، بل كان يقوم به الأفراد ثم المعابد المختلفة وغيرها. وبالإضافة إلى هذا فإن طبع الكتب كان محصورا في بعض المناطق الصينية فقط.

إلا أن ذلك كان في تلك الفترة التي كانت فيها أكثرية الكتب لا تزال تنسخ باليد، بينما كان طبع الكتب لا يتم إلا في حالات استثنائية.

وكانت الصين بعد انهيار أسرة تانغ قد دخلت في فترة الاضطرابات

الاجتماعية الكبرى، حين كان الحكام وكذلك الأسر الحاكمة يتغيرون بسرعة. ولكن في هذه الفترة بالذات، الحافلة بالاضطرابات الاجتماعية، برز الوزير النشيط فنك تاو (932- 953 م) الذي قرر إصدار طبعة نقدية لمؤلفات الكتاب الكلاسيكيين التسع. وهكذا بدأت في الصين أهم فترة في تطور الطباعة بواسطة القوالب الخشبية. وفي الواقع فقد ذاع صيت فنك تاو بسبب هذا المشروع الكبير إلى حد أن التواريخ القديمة ربطت اختراع الطباعة باسمه.

أما السبب الذي دفع الوزير فنك تاو لتبني هذا المشروع فنجد تفسيرا له في ملاحظة تعود إلى سنة 932 م. فقد كان هذا الوزير، كغيره من الكثيرين الذين سبقوه، قلقا لأن نصوص الكلاسيكيين المنسوخة باليد كانت تنتقل في البلاد في روايات مختلفة «دون أن تكون بينها أية رواية صحيحة». وحين شاهد الوزير الكتب المطبوعة بواسطة القوالب الخشبية أمر على الفور أن تنجز طبقة محققة لنصوص الكلاسيكيين التسع. ولأجل هذا فقد شكل تسع لجان من أفضل الخبراء الموجودين في «الأكاديمية القومية» (كو-تزوتشين)، الذين عملوا 21 سنة لإنجاز هذه الطبعة المحققة. وبالإضافة إلى هذا فقد أمر الوزير فنك تامر بتجنيد أفضل الخطاطين والفنانين لإعداد الألواح الخشبية اللازمة للطباعة، كما عين على رأس هذا المشروع تين مين مدير الأكاديمية القومية. وقد تولى هذا سنة 953 م إعلام الإمبراطور بإنجاز الطبعة المحققة لنصوص الكلاسيكيين التسع، التي احتوت على شروح مناسبة والتي طبعت في 30 صفحة.

لقد كان لهذا المشروع أهمية كبيرة بالنسبة إلى تطور الطباعة في الصين، ولذلك فإن هذا الاختراع يقارن من ناحية الأهمية باختراع غوتنبرغ بالنسبة إلى طباعة الكتب في أوربا. إلا أن الفرق بين تاو وغوتنبرغ كان كبيرا. ففنغ تاو لم يعمل بشكل مباشر في الإعداد التقني للطبعة المذكورة، كما أنه لم يساهم كغوتنبرغ في تطوير التقنية الطباعية. ومع ذلك فإن فضل فنغ تاو كان كبيرا لأنه حول الطباعة بالقوالب الخشبية، التي كانت حتى ذلك الحين مهارة فردية ومهنة لبعض الأفراد، إلى عمل من أعمال الدولة. وفي الواقع فإن هذا المشروع كان مؤشرا لبداية أعظم ازدهار للطباعة بالقوالب الخشبية في الصين خلال عهد أسرة سونغ (960- 1280م).

وكان مركز النشاط الطباعي خلال عهد أسرة سونغ في الأكاديمية القومية، التي تابعت جهودها في إصدار الطبعات المحققة للكتب. ففي نهاية القرن العاشر الميلادي بدأت هذه الأكاديمية في طبع تاريخ الأسر الحاكمة الصينية في عدة مئات من الصفحات، بينما أخذت في سنة 1139 م تعد العدة لإصدار طبعة جديدة لنصوص الكلاسيكيين التسع بالاستناد إلى القوالب الخشبية التي صنعت لإصدار الطبعة الأولى. إلا أن الأكاديمية في ذلك الوقت لم تكن لتنفرد وحدها بطبع الكتب بل كانت هناك عدة جهات تصدر الكتب، كما كانت هناك عدة مشاريع خاصة لإصدار الكتب. وهكذا فقد صدرت آلاف الكتب في الطب والزراعة والآداب والتاريخ الخ، بالإضافة إلى الكتب الدينية بطبيعة الحال. ولدينا صورة ممتازة عن هذا النشاط الطباعي لدى مؤرخ من القرن الثاني عشر الميلادي. فقد سجل هذا المؤرخ الذي يدعى بي منغ-تي في تاريخه ما يلي: «في هذه الأيام تعتبر الكتب المطبوعة في خانجو أفضل الكتب المطبوعة في الإمبراطورية. وبعد هذه تأتي الكتب المطبوعة في ستشوان، بينما تطبع أسوأ الكتب في فوكيين. وفي السنوات الأخيرة تخلفت طباعة الكتب بواسطة القوالب الخشبية في العاصمة عن مثيلتها في خانجو، وحتى الورق المستعمل لطباعة الكتب لم يعد جيدا تماما. إن القوالب الخشبية في ستشوان وفوكيين تصنع من الخشب اللين لكي تطبع الكتب بسرعة وتباع بسرعة، وهنا يكمن السبب في عدم جودة العمل. إن الكتب المطبوعة في فوكيين تنتشر في كل أرجاء الإمبراطورية».

وقد كان أكبر مشروع طباعي في الصين خلال ذلك الوقت متمثلا في إصدار النص الكامل للكتاب البوذي «تريبيتاكا» Tripitaka في 5048 كراسة ب 130 ألف صفحة. وقد طبع هذا الكتاب حينئذ في مدينة تشينغ-تو خلال (972- 983 م).

ونتيجة لهذا الإنتاج الكبير للكتاب فقد تطورت أيضا شبكة منظمة لتوزيع الكتاب في البلاد. وهكذا نجد أن المؤرخين الصينيين القدماء يتحدثون كثيرا عن الكتب التي تباع في المكتبات والشوارع والساحات. ومن هذه الفترة على كل حال لدينا أقدم لوحة معروفة في العالم تمثل إحدى المكتبات وقد رسمت هذه اللوحة في لفافة «الاحتفال الربيعي على ضفاف النهر»

حوالي سنة 1100م، وهي تمثل مكتبة في العاصمة الإمبراطورية للصين آنذاك كايفن. ومن ناحية أخرى لدينا معطيات عن وجود مكتبات عامة كثيرة في المدن الصينية الأخرى خلال عهد أسرة سونغ.

وقد كان باعة الكتب لا يكتفون ببيع الكتب في محلاتهم بل كانوا يرسلونها إلى المهتمين بالكتب مؤكدين لهم أن ما يرسلونه هو أفضل الموجود في سوق الكتب، بل أن أحدهم يؤكد لزبونه أن ما يرسله له لن يجده بعد ألف سنة بالتمام والكمال. ولجذب الزبائن فقد كان باعة الكتب يعمدون إلى تسمية محلاتهم بأسماء ذات صدى ومغزى كـ«مكتبة رابية التنين» وغير ذلك.

إن هذا الاهتمام الكبير لتأمين أكبر عدد من الزبائن لشراء الكتب يمكن تفسيره بسهولة إذا عرفنا أن أصحاب المكتبات كانوا هم أيضا الناشرين والطابعين، ولذلك فقد كانوا يحاولون أن يسترجعوا بسرعة رؤوس أموالهم المستثمرة.

وقد عمد أحد هؤلاء الناشرين-الطابعين إلى نشر إعلان سنة 1152 م يفيد في التعرف على نشاطه: «نحن دار يونغ ليور لانغ بعد أن كنا في شرق المعبد الرئيسي الكبير في الرابية الشرقية للعاصمة الشرقية أصبحنا الآن بشكل مؤقت في الجانب الشرقي لشارع وارنان، في مركز مقاطعة لين رآن، حيث فتحنا محلا لطبع وبيع مؤلفات الكلاسيكيين والمؤلفات التاريخية الخ. وقد عمدنا الآن بالاستناد إلى طبعة قديمة من العاصمة إلى إصدار طبعة محققة تتضمن النص الأصلي لباوبو-تزو، ونؤكد لكم أن النص لا يحتوي على أي خطأ». ولدينا إعلانات أخرى من هذا النوع نجدها غالبا على الكتب المطبوعة في عهد أسرة سونغ، حيث يمكن للمرء أن يستخلص منها صورة حية عن إنتاج الكتاب والمكتبات في الصين خلال تلك الفترة.

وقد أدى الإنتاج المتطور للكتاب وشبكة توزيع الكتاب المتطورة في البلاد إلى بروز المكتبات العامة التي كان من أهمها المكتبة الإمبراطورية. وفي الواقع أن هذه لم تكن أكبر وأهم مكتبة لأن الأباطرة الصينيين كانوا هواة للكتب بل لأن هؤلاء الأباطرة قد خصوا هذه المكتبة بدور مهم لنشر المؤلفات الأصلية لكونفوشيوس ومؤلفات العلماء الصينيين الآخرين، بالإضافة إلى نشر المؤلفات التاريخية التي لم تكن تصدر كما يجب من قبل الناشرين الآخرين.

وهكذا فإن الأباطرة قد أعطوا هذه المكتبة دور مؤسسة معرفية حيث كانت تجتمع جهود أفضل الكتاب والطابعين والمصححين وغيرهم لكي تصدر الكتب المهمة من الناحية الدينية والتاريخية في أفضل وجه وأن تحفظ في أحسن وضع.

وقد حفظت لنا الكثير من المعطيات المتعلقة بهذه المكتبة. وهكذا نعرف أن هذه المكتبة كانت توجد في خانجو، عاصمة الصين خلال عهد أسرة سونغ، من سنة 1127م إلى سنة 9 127م وكانت محاطة بسور يبلغ طوله ألف خطوة بينما يصل عرضه إلى 190 خطوة. وداخل هذه المساحة كانت توجد عدة أبنية لحفظ الكتب بالإضافة إلى قاعة مخصصة للخبراء العاملين في النصوص. وفي هذا المكان كان يوجد أيضا مركز وثائق الدولة والديوان الإمبراطوري للتاريخ. وبالإضافة إلى كل هذا فقد خصص أحد الأبنية هنا للاستراحة والتأمل.

وخلال عهد أسرة سونغ في القرن إلحادي عشر الميلادي اكتشف اختراع مهم للغاية في تقنية الطباعة. فقد خطرت للصيني بي شنغ فكرة عبقرية ألا وهي طباعة الكتب بحروف خشبية متحركة عوضا عن القوالب الخشبية. ولدينا وصف مفصل لهذه الطريقة الجديدة في الطباعة في كتاب «منغ تشي بي تان» الذي ألفه في ذلك الوقت شن سحوا (1530- 1094م). «في عهد تشينغ-لي توصل أحد العامة، بي شنغ، إلى اختراع الحروف المتحركة، وكانت طريقته على الشكل التالي: كان يأخذ الصلصال اللاصق (تشياو-ني) ويصنع منه رموزا (حروفا) رقيقة كرقة العملة النحاسية ثم كان يشويها لتتصلب. وفي غضون هذا كان يعد لوحا من الحديد ويطليها بخليط من صمغ الصنوبر والشمع ورماد الورق. وحين يريد أن يطبع شيئا كان يأخذ إطارا من الحديد ويضعه فوق اللوح الحديدي، وحين كان الإطار يمتلئ بالرموز (الحروف) كان يتحول إلى كتلة صلبة. وحينئذ كان يضع الإطار قرب النار لكي يسخن، وحين تبدأ الشريحة المطلية في الذوبان كان يضغط على السطح بلوح خشبي لكي تصبح الرموز (الحروف) مصقولة كحجر الصوان».

بهذا الشكل كان بي شنغ يحصل على الأصل الذي يستطيع بواسطته أن ينسخ عددا كبيرا من أي نص، ويلاحظ هنا شن كوا أن هذه الطريقة «ليست سريعة ولا مفيدة إذا كان الهدف منها الحصول على نسختين أو

ثلاثة»، ولكنها سريعة بشكل سحري إذا كان الهدف منها الحصول على مئات أو آلاف النسخ.

إلا أن بي شنغ نفسه وغيره من المعاصرين واللاحقين لم يعرفوا أن يستفيدوا كما يجب من هذا الاختراع.

وفي الواقع لقد كانت هناك عدة أسباب حالت دون اهتمام أكبر باختراع بي شنغ أو دون تطبيق أكبر لهذا الاختراع. ومن هذه الأسباب بالتأكيد كان استعمال بي شنغ للصلصال المشوي، الذي كان يحول دون إنتاج نسخ جيدة للنصوص، بينما كان جمال الرموز (الحروف) ودقتها بالنسبة للصينيين من العوامل المهمة للغاية في الكتابة والطباعة. وبالإضافة إلى هذا فقد كانت هذه التقنية الطباعية التي اخترعها بي شنغ بعيدة عن الحد الأدنى الذي يضمن بالفعل عملا سريعا واقتصاديا. ولهذا السبب لم ير الصينيون في اختراع بي شنغ تقنية ثورية تستحق أن تقبل وتنفذ فورا. ولأجل هذا لم يكن لاختراع بي شنغ تلك النتائج الكبيرة على تطور الطباعة والمجتمع كتلك التي أثمرت في أوربا بعد أن قام غوتنبرغ بتطبيق اختراعه.

لقد كان الصينيون أنفسهم يعرفون أن اختراع بي شنغ لن يساعدهم كثيرا في إنتاج الكتاب ولذلك فقد حاولوا أن يطوروا هذا الاختراع. وهكذا فقد ولدت فكرة جديدة في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي باستبدال الرموز (الحروف) المصنوعة من الصلصال المشوي بأخرى مصنوعة من الخشب. ولدينا من المعلومات ما يشير إلى أنه في سنة 1298 م تم طبع كتاب بالأحرف الخشبية في مائة نسخة، إلا أنه لم تبق منه أية نسخة حتى اليوم. ولدينا حول هذا تقرير مفصل من سنة 1313 م للعالم وانغ تشن، الذي خطر له لأول مرة أن يستبدل الأحرف المصنوعة من الصلصال المشوي بأخرى من الخشب.

وبهذه الأحرف الخشبية طبع هذا العالم أولا كتاب «نونغ شو» (كتاب عن الزراعة)، ثم طبع لاحقا كتابا آخرا يتضمن وثائق للإدارة المحلية. ولأجل هذا الكتاب الثاني كان العالم وانغ قد أوصى بصنع 60 ألف رمز (حرف). وفي تقريره المذكور يقول العالم وانغ أنه «خلال أقل من شهر تنجز مائة نسخة» من هذا الكتاب وهي «تشبه تماما الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية». وقد كان هذا العالم مقتنعا بأن طريقته ستتقبلها الأجيال القادمة

ولذلك فقد شرحها بشكل مفصل في تقريره لكي يتعلمها «كل أولئك الذين يهتمون بهذه الأمور على أمل أن تنتقل هذه الطريقة البسيطة والسهلة للطباعة إلى الأجيال القادمة».

إلا أن آمال هذا العالم لم تتحقق تماما إذ أن الطباعة بالأحرف الخشبية لم تلق اهتماما كبيرا في الصين. وقد نجح باستعمال هذه التقنية في طباعة الكتب الأويغور الأتراك، ذلك الشعب الذي كانت له ثقافته المتطورة في العصر الوسيط والذي كانت له أبجديته الخاصة.

وفي الواقع لقد كانت هذه الأبجدية تستند إلى النظام الصوتي وبهذا كانت تتميز عن تلك الصينية التي تعتمد على النظام الإيدوغرافي. ولهذا السبب فقد كان طبع الكتب بالأحرف المتحركة في اللغة الأويغورية أسهل بكثير من اللغة الصينية.

ومن المعروف أن الأويغور بدأوا في طباعة كتبهم بالأحرف الخشبية المتحركة حوالي سنة 1300م. وقد حفظ من هذه الكتب عدد كبير إلى اليوم بعد أن تم اكتشافها في مغارة تون-هوانغ المشهورة في تركستان الصينية.

لقد حفظت لنا هذه المغارة أكثر وأهم المخطوطات الصينية بالإضافة إلى مخطوطات أخرى مكتوبة في لغات وأبجديات مختلفة. وكانت هذه المغارة قد اكتشفها راهب طاوي(*) سنة 1900 م حين لاحظ أن أحد جدران المغارة لم يكن من الصخر بل من الطوب المبني. وحين هدم الراهب الجدار وجد في الداخل قاعة مليئة باللفافات التي لم تكن تقل عن 1130 واحدة، وقد وصلت أخبار هذا الاكتشاف إلى الرحالة المعروف والخبير بالثقافة الصينية د. أورل ستين، الذي زار كون-هوانغ بعد سبع سنوات واشترى من الراهب المذكور 3000 لفافة، وكان من بينها أقدم كتاب صيني مطبوع بالقوالب الخشبية (سوترا الماسية). وقد تمكن د. ستين أن ينقل كل هذه اللفافات من خلال الهند إلى لندن، حيث تحفظ إلى الآن هناك.

ب-كوريا

كان للصين دور حاسم في تطور الثقافة والعلم في كوريا سواء خلال

(*) الطاوية Taoism فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسي، وتعتبر بالإضافة إلى الكونفوشيوسية والبوذية أحد أديان الصين الثلاثة. (المترجم).

العصر القديم أو خلال العصر الوسيط. وقد أخذ الكوريون من الصينيين النظام الأيدوغرافي للكتابة وحتى أنهم أخذوا اللغة أيضا، إذ بقوا لمدة طويلة يستعملون الصينية لتدوين كتبهم الأدبية والدينية. وفي نهاية القرن الرابع للميلاد جاءت من الصين أيضا الديانة الجديدة-البوذية التي أثرت بشكل حاسم في تطور الثقافة الروحية والكتابة والطباعة في كوريا. ومن هنا يعتقد بحق أن الكوريين قد تعلموا المهارة الطباعية من الصينيين.

أن أقدم النصوص التي طبعت في كوريا تعود إلى العصر القديم، وقد أخذت حينئذ بالطريقة التي كان الصينيون قد اخترعوها وطبعوا فيها كتبهم المقدسة، أي الطباعة بواسطة النقوش الحجرية. وقد حفظت لنا من القرن الخامس للميلاد نماذج من هذه النقوش الحجرية، التي كان يريد منها الحكام الكوريون أن تخلد بطولاتهم

رسم موثق لمطبعة كورية تم إنجازه بالاعتماد على لوحة قديمة.

-في الحرب أو أن تسجل الحوادث المهمة لعصرهم.

ويشيع هنا الاعتقاد أن هذه التقنية قد أثرت في بروز طباعة الكتب بواسطة القوالب الخشبية. ويعتقد هنا أيضا أن هذه التقنية قد اكتشفها الصينيون ثم أخذها الكوريون كغيرها من الخيرات الأخرى الثقافية. إلا

أنه في السنوات الأخيرة تم اكتشاف نص مطبوع في كوريا بواسطة القوالب الخشبية مما أصبح يشكك في كل القناعات السائدة حول أسبقية الصينيين في استعمال الطباعة بالقوالب الخشبية. ففي سنة 1966 م اكتشف في معبد بولفوك-سا، بالقرب من العاصمة الكورية القديمة كيونغ يو، أقدم نص مطبوع بواسطة القوالب الخشبية مما يعرف في العالم حتى الآن. إن هذا النص عبارة عن الكتاب البوذي «فيمالا ميربهاسا سوترا» أو «دهاراني سوترا»، الذي كان قد ترجم من اللغة السنسكريتية إلى الصينية في سنة 704 م ثم انتقل من الصين إلى كوريا حيث طبع حتى سنة 751 كحد أقصى، حين تم إنجاز «الأسطبة»[*1] التي حفظ فيها النص المذكور. وقد طبع هذا النص على شكل لفافة من الورق لا يتجاوز عرضها5 ,6 سم بينما يصل الطول الأصلي لها إلى 7 أمتار، وهي اليوم تحفظ في المتحف الوطني في سيول.

ونظرا لأنه لم يكتشف حتى اليوم في الصين أي نص مطبوع بالقوالب الخشبية من ذلك الوقت فإن بعض الخبراء يعتقدون أن الكوريين قد سبقوا الصينيين في الطباعة بالقوالب الخشبية.

وقد شهدت الطباعة في كوريا تطورا كبيرا خلال القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد كنتيجة للتطور الكبير للتعليم في البلاد. فقد تأسست حينئذ في كوريا، بتأثير الصين المجاورة، جامعة رسمية ومدارس كثيرة خاصة. ولأجل هذه الجامعة والمدارس فقد كانت الكتب تطبع في المكتبة الملكية بينما كان الرهبان يتولون طبع الكتب الدينية في الأديرة على الغالب. ونظرا للطلب الواسع والإنتاج الكبير للكتب فقد تطورت أيضا التجارة بالكتب سواء في كوريا أو مع الصين واليابان.

وقد حدث سنة 989 م أن الملك الكوري طلب من الإمبراطور الصيني أن يرسل له نسخة كاملة من مجموعة المؤلفات البوذية «تريبيتاكا». وخلال سنوات 1011- 1014 م جرى العمل بأمر من الملك هون دونغ لإنجاز القوالب الخشبية اللازمة لإصدار الطبعة الكورية لهذه المجموعة. وحسب بعض المصادر فإن إنجاز هذا العمل استمر عشرين سنة، بينما تذكر المصادر الأخرى أن العمل فيها انتهى سنة 1087م. وقد دمرت هذه القوالب الخشبية خلال الغزو المنغولي سنة 1232م ولم تبق أية نسخة من هذه الطبقة الكورية

لـ «ترىبيتاكا»، بينما حفظت بعض النسخ فقط في اليابان.

ونظرا لهذا فقد بدأ العمل ثانية سنة 1236 بأمر من الملك كوغيون لصنع القوالب الخشبية للطبقة الثانية من «تريبيتاكا» وقد شكل الملك حينئذ لجنة من الخبراء في جزيرة غانفهوا، حيث كانت عاصمة البلاد قد انتقلت إلى هناك بعد الغزو المنغولي. وقد عملت عدة مجموعات في حفر الخشب لمدة 16 سنة، وبالتحديد حتى سنة 1251م، وذلك لإنجاز القوالب الخشبية اللازمة للطبعة الجديدة. وهكذا فقد تم إنجاز 162516 نقش على 81258 لوح من الخشب. وقد حفظت هذه الألواح أولا في جزيرة نمانغ هوا ثم نقلت بعدئذ إلى سيول لكي تحفظ منذ نهاية القرن الخامس عشر في مكان آمن، وبالتحديد في الدير البوذي هاتين-يا الذي يقع في مرتفعات صعبة المنال بجنوب البلاد. وفي هذا الدير تحفظ إلى اليوم هذه القوالب الخشبية باعتبارها من أثمن الكنوز للشعب الكوري.

لقد استمر الكوريون مدة طويلة يطبعون الكتب بواسطة القوالب الخشبية، إلا أنهم أدخلوا تطويرا مهما على تقنية الطباعة منذ القرن الثالث عشر للميلاد، بحيث احتلوا المركز الأول في العالم في هذا المجال. وفي الحقيقة لقد خطر لهم في ذلك الوقت أن يطبعوا الكتب بحروف متحركة من المعدن عوضا من الخشب. ويبدو أن الكوريين قد عرفوا اكتشاف الصيني بي شنغ، ولكنهم أول من فكر باستبدال الحروف غير العملية المصنوعة من الصلصال المشوي بحروف مصنوعة من المعدن. وهكذا فقد أسهم الكوريون بشكل جوهري في تطور التقنية الطباعية.

أما أقدم كتاب طبع بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة كان «سانغ يونغ-يمون» (قواعد مفصلة وأصلية لأصول السلوك)، الذي طبع سنة 1234 في 28 نسخة بجزيرة غانغ هوا. ومع أنه لم يبق إلى اليوم أية نسخة من هذا الكتاب فلا يوجد هناك شك في صدوره إذ أن لدينا معطيات عنه في كتاب آخر طبع بعده بعنوان «تونغ غوك يي سانغ غوك تشيب» (مجموعة مؤلفات للمستشار الكبير يي). وهناك كتاب آخر طبع بواسطة الطريقة الجديدة قبل سنة 1239 م. ففي تلك السنة طبع في تلك الجزيرة أيضا كتاب بوذي بعنوان «سون» بواسطة القوالب الخشبية حيث يذكر فيه بوضوح أنه قد طبع بالاستناد إلى طبعة سابقة أنجزت بواسطة الأحرف المتحركة.

ويلاحظ هنا انقطاع في المعطيات حول طبع الكتب بواسطة هذه الطريقة الجديدة حتى سنة 1377م، حين طبع كتاب ديني بوذي بهذه الطريقة.

وقد اكتسب النشاط الطباعي في كوريا دفعة قوية سنة 1392 م وذلك بتأسيس «معهد الدولة لطبع الكتب». ومع أن هذا المعهد بدأ نشاطه في السنوات الأخيرة لعهد أسرة كوريو إلا أنه تطور كثيرا في عهد الأسرة الحاكمة الجديدة يي، التي أرادت منه أن تنشر الكونفوشيوسية عوضا عن البوذية التي كانت الديانة السائدة في عهد الأسرة السابقة. وخلال عهد الأسرة الحاكمة الجديدة تايغ يونغ بدأ العمل سنة 1403 م في مصهر الدولة للحروف، الذي أقيم في إطار البلاط الملكي. وفي مقدمة كتاب «سونيا سايل كايو»، الذي طبع في تلك السنة، نجد تفسير الملك تايغ يونغ للأسباب التي دعته إلى إقامة هذا المصهر:

«إن عدد الكتب التي تأتينا من الصين قليل. إن أكثرية الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية ليست جيدة كما أنه من الصعب أن تطبع بهذه الطريقة على الكتب الموجودة. ولذلك فإنني آمر أن تصنع الأحرف من البرونز».

لقد كان هذا في الواقع مؤشرا لبداية نشاط طباعي واسع في كوريا. ففي عهد الملك سيغ يون (14188- 1450 م) شهدت كوريا ذروة تطورها الثقافي. وقد أحيا هذا الملك ثانية عمل «تشيب هيون يون»، أي معهد البحوث المنظم على الطريقة الصينية، حيث كانت تؤلف الحواشي على أعمال الكلاسيكيين الكونفوشيوسيين بالإضافة إلى الأعمال الأخرى في الطب والجغرافيا والتاريخ الخ. وفي الواقع لقد تجاوز الملك سيغ يون أسلافه من حيث رعايته للكلمة المكتوبة وللطباعة، ويعود الفضل إليه بالذات لإصلاح نظام الكتابة الكورية. وهكذا عوضا عن النظام الأيدوغرافي الصيني المعقد فقد اكتسبت اللغة الكورية أبجدية جديدة تعتمد على النظام الصوتي وتتألف من 28 حرفا (17 حرفا صائتا). وقد أدى هذا الإصلاح إلى أن يستفيد الكوريون بشكل أفضل من التقنية الطباعية بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة.

إن معظم الكتب التي طبعت في كوريا بواسطة هذه الطريقة كانت ذات طابع إداري، ثم تأتي بعدها مؤلفات الكونفوشيوسية وأعمال الأدباء الكلاسيكيين والمؤلفات الطبية والعلمية الخ.

وقد برزت في كوريا منذ القرن الخامس عشر للميلاد مشاريع ضخمة للنشر. ويكفي أن نذكر المؤلف الطبي الضخم «هيانغ ياك تشيسونغ بانغ» الذي صدر سنة 1433 م في 85 جزءا، والمؤلف الآخر «أوبيانغ يوتشوي» الذي صدر سنة 1445م في 365 صفحة.

لقد كانت الطباعة في كوريا تحت رقابة مشددة للدولة بحيث أن هذا قد أجهض المحاولات المختلفة لانتشار هذه المهنة في المجتمع أو لتحويلها إلى مهنة تجارية. وهكذا فإن الملك سيغ يونغ نفسه قد رفض اقتراح وزرائه بأن يصدر بعض الكتب بواسطة الطريقة الجديدة في عشرة آلاف نسخة وأن يستفيد من بيعها لشراء الورق، الذي كان لا يزال غاليا في ذلك الوقت. وفي الواقع لقد كان الملك يعارض بيع الكتب لأنه كان يخشى من النتائج غير المرغوبة لانتشار الكتابة في وسط الشعب. ومن ناحية أخرى نجد أن أحد ملوك هذه الأسرة، الملك سونغ يو (1567- 1608م) يمنع بصرامة أي نشاط طباعي إلا تحت رقابة الملك بشكل مباشر. وخلال العهد الطويل لأسرة يي (حتى سنة 1912م) كانت الطباعة تعتبر احتكارا للبلاط أولا لأولئك الذين يسمح لهم البلاط بممارسة هذه المهنة. وفي الواقع لقد كان هذا السبب في أن الطباعة في كوريا لم تشهد تطورا كبيرا ولم تمارس تأثيرا كبيرا في التطورات الاجتماعية كما كان الأمر في أوربا بعد غوتنبرغ.

ومن ناحية أخرى فقد تعرضت الطباعة الكورية إلى ضربة قوية خلال الحكم الياباني للبلاد خلال 1592- 1598م. فقد دمر اليابانيون أو أخذوا معهم معظم الأحرف المعدنية، ولذلك فإن الكوريين عادوا بعد الانسحاب الياباني إلى الطباعة بالقوالب الخشبية رغبة منهم ببعث النشاط الطباعي بأسرع وقت. وهكذا فقد تأخر صنع الأحرف المعدنية الجديدة إلى سنة 1668م، حين بدأت الطباعة ثانية بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة.

لقد انتقلت الطباعة بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة من كوريا إلى الصين أولا. وهكذا نعرف أنه في نهاية القرن الخامس عشر للميلاد كانت هناك مطبعة بالأحرف المعدنية لدى هواسوي في مدينة وسيخ. وبهذه المطبعة طبع أول كتاب نعرفه سنة 1494م. وفي السنوات اللاحقة بقيت الطباعة بالأحرف المعدنية المتحركة تسير بموازاة الطباعة بالقوالب الخشبية سواء في الصين أو في كوريا. أما السبب في هذا فيعود إلى الأسلوب

البدائي الذي كانت تطبع به الكتب بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة في بلدان الشرق الأقصى، بحيث إن هذه التقنية لم تستطع أن تهدد بشكل جدي الطباعة بواسطة القوالب الخشبية. أما السبب الآخر والأهم بالتأكيد فهو الاهتمام الكبير بالخط الذي تبديه شعوب الشرق الأقصى. وقد كانت الكتابة الأيديوغرافية الصينية في حد ذاتها، التي كان يستعملها الكوريون أيضا إلى عهد الملك سوغ يونغ، عقبة كبيرة في وجه انتشار الطباعة بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة.

ففي ثقافات الشعوب الأقصى لم تكن الكتابة أبدا مجرد ترتيب للرموز أو للحروف للتعبير عن فكرة ما بل كانت عملا فنيا في حد ذاته، ولذلك فإن النص المكتوب كان يتحول أيضا إلى عمل فني. ومن هنا فإن الطباعة بواسطة القوالب الخشبية كان يوفر المجال للفنانين-الخطاطين للتعبير عن ذاتهم أكثر بكثير مما كانت توفره الطباعة بواسطة الأحرف المعدنية الموحدة.

ويلاحظ هنا أن الكوريين، كغيرهم من شعوب الشرق الأقصى، لم يحاولوا الكثير لتطوير تقنية الطباعة بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة. ففي القرون اللاحقة، وبالتحديد حتى القرن التاسع عشر، لم تتطور أبدا التقنية البدائية لصنع الأحرف باليد مما جعلها تتخلف كثيرا بالمقارنة مع التطور الذي حققته الطباعة في أوربا. وعلى الرغم من هذا فإن دور الكوريين في تاريخ الطباعة يبقى كبيرا. فقد كانوا هم-إلى أن برز ما ينقض ذلك-أول من استعلموا الطباعة بواسطة القوالب الخشبية كما كانوا أول من فكر بطبع الكتب بواسطة الأحرف المعدنية المتحركة. وبالإضافة إلى هذا لا يستبعد أن يكون اكتشافهم الأخير قد أثر في تطور الطباعة في أوربا. ومع أنه ليس لدينا بعد ما يثبت معرفة غوتنبرغ بتقنية الطباعة الكورية إلا أن الباحثين في السنوات الأخيرة لا يستبعدون في أن يكون خبر اكتشاف هذه التقنية قد وصل عبر طريق الحرير إلى القسطنطينية أولا ثم إلى أوربا الغربية.

ج. اليابان

لقد تطورت الثقافة اليابانية أيضا تحت تأثير قوي للثقافة الصينية. فخلال القرنين الرابع والخامس للميلاد أخذ اليابانيون الكتابة الصينية، بينما تغلغلت البوذية من الصين خلال القرن السادس للميلاد. وقد ساد

التأثير الصيني بشكل خاص خلال الفترة النارية (710- 784 م)، أي في الفترة التي كانت فيها مدينة نار عاصمة لليابان في ذلك الوقت. وفي الحقيقة لقد كانت تلك الفترة التي أصبحت فيها البوذية القوة الدينية والسياسية الرئيسية في البلاد. وهكذا فقد كان الطلاب اليابانيون يذهبون إلى الصين للدراسة، وكان اليابانيون الذين يسافرون إلى الصين يعودون إلى بلادهم وهم يحملون منجزات الثقافة الصينية. وفي الوقت ذاته كان عدد كبير من المبشرين الصينيين يذهبون إلى العاصمة اليابانية نار، حيث كانوا يمارسون هناك تأثيرا كبيرا في حياة العاصمة. وقد كان كل هؤلاء يحملون معهم إلى اليابان الكتب الصينية، وبالتحديد الكتب الدينية في الدرجة الأولى ثم الكتب الطبية والأدبية الخ. وبالإضافة إلى الكتب فقد كان هؤلاء يحملون تقنية الطباعة بواسطة القوالب الخشبية. ومن بين هؤلاء الذين ذهبوا إلى الصين يذكر الراهب غمبو، الذي عاد إلى بلاده سنة735 م بعد 18 سنة قضاها في الصين وهو يحمل معه خمسة آلاف كتاب بوذي.

ونظرا للرغبة الكامنة في تقليد الصينيين في كل مجال فقد فكر اليابانيون في أن يقوموا بأنفسهم في طباعة القوالب الخشبية. وكان مما ساعد على هذا تواجد التأثير القوي للرهبان البوذيين في مختلف جوانب الحياة في اليابان، وخاصة في الحياة الثقافية والدينية للعاصمة نار، بالإضافة إلى أن الحكام اليابانيين في ذلك الوقت كانوا من المتحمسين الأشداء للديانة الجديدة (البوذية) وهكذا في عهد الإمبراطورة سهوتوكو، التي حكمت بشكل متقطع خلال 748- 769م، نجد مشروعا عظيما للطباعة. فقد أمرت الإمبراطورة حينئذ بتشييد مليون «باغوده»[*2] صغيرة من الخشب وأن يعلق على كل واحدة نص بوذي مطبوع. وفي الواقع لقد كان الأمر يتعلق بمقاطع من الكتاب البوذي «هياكمانتو دهاراتي» في اللغة السنسكريتية بالكتابة الصينية. وقد انتهى طبع هذه النصوص في سنة 770 م، أي بعد وفاة الإمبراطورية، ثم وزعت على المعابد البوذية في كل أرجاء اليابان. وفي الواقع أن هذا المشروع يعتبر ذو أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ الطباعة لأنه تم لأول مرة على ما نعرف نسخ النصوص على الورق بواسطة القوالب النحاسية عوضا عن القوالب الخشبية.

لقد أدى الحماس الديني للإمبراطورة سهوتوكو وللزعامة البوذية القوية في نار إلى دفع الطباعة في اليابان نحو الأمام، ولذلك يجب ألا نستغرب أن النشاط الطباعي كان لخدمة الأغراض الدينية في الدرجة الأولى. ففي ذلك الوقت لم تكن تستعمل أية نصوص دينية أخرى باستثناء النصوص البوذية. ولم يتغير هذا الوضع بشكل جوهري إلا في عهد الإمبراطور كوامنو الذي نقل العاصمة من مدينة نار إلى ناغا أوكا (سنة 784م) ثم إلى كيوتو (سنة 794) لكي يتخلص من التأثير الكبير لرجال الدين البوذيين.

إلا أنه لدينا هنا انقطاع في المعطيات لقرنين من الزمن حول طبع الكتب في اليابان، ثم تبرز معطيات جديدة لتدل على العودة إلى استيراد الكتب من الصين. وهكذا نعرف مثلا أن الراهب سهونين قد حمل معه من الصين طبعة كاملة من الـ «تريبيتاكا». أما في القرن العاشر فقد أخذت الكتب تطبع ثانية في اليابان، مع أن هذا كان من حين إلى آخر فقط. ولا شك أن اليابانيين لم يتوقفوا خلال القرنين المذكورين عن تأليف الكتاب، إلا أن هذه الكتب نسخت باليد ولم تطبع بالطريقة الميكانيكية. ويعتقد أن السبب الرئيسي في عدم اهتمام اليابانيين بطبع الكتب بواسطة القوالب الخشبية يكمن في تعلقهم بالخط الجميل بالإضافة إلى الطلب المحدود على الكتاب إذ أن الكتابة كانت محصورة فقط في دائرة ضيقة من المتعلمين في البلاط وبين رجال الدين.

وعلى الرغم من هذا نجد أن القرن الحادي عشر يحفل بالأخبار التي تحدثنا عن طبع النصوص القصيرة المختلفة أو اللوحات التي تمثل بوذا. ولدينا من سنة 1080 م أقدم نص مؤرخ، ألا وهو «لوتوس سوترا»، بينما ازداد لاحقا عدد هذه النصوص باستمرار. وبالإضافة إلى هذا فقد تميزت تلك الفترة باتجاه اليابانيين المتزايد إلى التدوين بلغتهم القومية وبكتابتهم القومية الخاصة عوضا عن الصينية كما كان الأمر حتى ذلك الحين. وهكذا فقد برزت في تلك الفترة أعمال أدبية كثيرة كـ«قصة الأمير غيني» التي كانت مشهورة في بداية القرن الحادي عشر وفي ذلك الوقت كانت نار هي مركز إنتاج الكتاب، حيث طبع منذ نهاية القرن الثاني عشر عدد كبير من الكتب. وقد كان أغلب هذه الكتب تطبع تلبية لحاجة المؤمنين أو تحت طلب أعضاء الأسرة الإمبراطورية وكبار العلماء. وقد كانت هذه الكتب تزين على

الغالب برسوم بواسطة القوالب الخشبية ثم كانت تلون لاحقا باليد.

وكما في بقية بلدان الشرق الأقصى فقد بقيت البوذية في اليابان أيضا هي المحرك الرئيسي للنشاط الطباعي في القرون اللاحقة. فقد تمركز هذا النشاط في المعابد البوذية، حيث كانت تطبع الكتب الدينية فقط لتلبية حاجات رجال الدين والمؤمنين بشكل عام. ومن بين أهم مشاريع الطباعة في المعابد البوذية كان طباعة كتاب «سوترا العظيمة الحكيمة» خلال القرن الثالث عشر في 600 صفحة. وبشكل خاص فقد تميزت الطائفة البوذية «أن» بنشاطها في هذا المجال، وهي الطائفة التي جاءت اليابان من الصين في بداية القرن الثالث عشر. وقد كان أعضاء هذه الطائفة أول من بدأ في اليابان بطباعة القواميس والمؤلفات الأدبية والأعمال الأخرى غير الدينية.

إلا أن أكثر هذه الكتب اختفت خلال الحروب الأهلية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ولكن في نهاية القرن السادس عشر اكتسبت الطباعة في اليابان دفعة جديدة من التطور جاءت من أوربا وكوريا.

د. الأويغور

من بين شعوب الشرق الأقصى لم يقتصر تطور ثقافة الكتاب في العصر الوسيط على الصينيين والكوريين واليابانيين. فقد أخذت بعض الشعوب المجاورة أيضا منجزات الثقافة الصينية، ومن هؤلاء لا بد أن تذكر الأويغور الأتراك الذين استقروا خلال القرنين الثامن والتاسع للميلاد في منطقة الواحة الكبرى تورفان، التي تقع اليوم في تركستان الصينية. وكان هذا الشعب قد طور هنا ثقافة مهمة جدا إلى أن تمكن المنغوليون من تدمير دولتهم في القرن الثالث عشر للميلاد. وقد تمكنت بعثة ألمانية كانت تنقب في المنطقة خلال 1902- 1907 من اكتشاف عدد كبير من الكتب المطبوعة بواسطة القوالب الخشبية، التي حفظت إلى الآن بفضل المناخ الجاف لواحة تورفان.

لقد كانت ثقافة الأويغور في تورفان تقوم مقام الجسر بين ثقافة الصين في الشرق وثقافات الهند والتيبت وآسيا الإسلامية. وهكذا فقد كانت هذه الثقافة نموذجا للثقافة المركبة التي ساهم فيها شعوب وأديان مختلفة للغاية. ففي ذلك الوقت كانت الكتب تطبع في تورفان في ست لغات:

الأويغورية والصينية والسنسكريتية والتوتغورية والتيبتية والمنغولية، بينما كانت تستخدم في الوثائق والأوراق المختلفة سبع عشرة لغة، وقد تحولت هذه الواحة إلى جسر لنقل تقنية الطباعة من الصين إلى الشعوب الأخرى. وهكذا فقد كان الأويغور بالذات هم الذين نقلوا إلى المنغوليين، بعد أن أخضعهم القائد العسكري جنكيز خان سنة 1206 م، كتابتهم ومعرفتهم بطباعة الكتب بينما قام المنغوليون بنقل هذه المعرفة إلى الشعوب الأخرى في آسيا وأوربا مع توسع فتوحاتهم.

هـ. الهند

خلال العصر الوسيط عايشت الهند عصرها الذهبي في تطور العلم والأدب والرياضيات والهندسة. وقد شهد إنتاج الكتاب أيضا تطورا كبيرا نتيجة لتلبية حاجات المدارس الكثيرة، حيث كان الطلاب يتعلمون التاريخ والطب والمعارف الأخرى. وقد كانت الكتب تنسخ أيضا تلبية لحاجات الجامعات الكثيرة، وخاصة لجامعة نالاندا ولمكتبتها الفنية التي كان يستفيد منها الأساتذة والطلاب.

إلا أن قدوم العرب في بداية القرن الثامن الميلادي وانتشار الإسلام المتزايد في شبه القارة الهندية، وخاصة منذ القرن الحادي عشر الميلادي، كان لهما أثر كبير على مصير الكتب التي تجمعت حتى ذلك الحين. فقد تصرف المسلمون بشكل صارم مع الكتب الهندية ومع المكتبات التي تحفظ هذه الكتب. ففي ذلك الوقت خسرت أكثرية المكتبات في الجامعات وفي المعابد البوذية كتبها، بحيث أن أغلبية الكتب التي بقيت من أقدم العهود إلى اليوم قد وصلت إلينا من نيبال كان قد لجأ إليها حينئذ الرهبان البوذيون مع كتبهم.

ولكن النصوص الهندية القديمة كانت معرضة للضياع والخسارة إذ أن المشافهة كانت خلال العصر الوسيط أيضا لا تزال وسيلة متطورة لتناقل النصوص الأدبية والعلمية. إلا أن الدمار الذي حل بالشعوب الأخرى في العصر الوسيط قد ألحق أضرارا كبيرة بالكتب والمكتبات التي كانت توجد غالبا في قصور الحكام والمعابد وبيوت الأغنياء. ولكن الإصرار على إعادة نسخ النصوص الدينية للديانات المختلفة أدى إلى تعويض جزئي للمخطوطات

المفقودة.

وفي ذلك الوقت كان نسخ الكتب على الغالب يتم على يد الرهبان في المعابد، ولكن كانت هناك شريحة خاصة من الكتاب في المجتمع تعيش على نسخ الكتب للأغنياء.

ولكن مع قدوم المسلمين إلى الهند تطور في البلاد إنتاج جديد للكتاب يرتبط بديانة وثقافة المسلمين بشكل مواز مع استمرار النشاط التقليدي لنسخ الكتب في البلاد. وكما حدث في البلدان الأخرى، حيث تمكن المسلمون من تطوير ثقافة خاصة بهم، فقد برز في الهند أيضا نشاط جديد في النسخ يشمل نسخ القرآن والنصوص الأخرى بالعربية والفارسية، وبالإضافة إلى المؤلفات التاريخية وغيرها التي كانت تجلد غالبا بشكل فاخر.

أما فيما يتعلق بمادة الكتابة خلال العصر الوسيط في الهند فقد بقيت تستخدم هنا سعف النخيل. وهكذا نجد أن الرحالة الصيني زوان زانغ يتحدث لنا عن الاستعمال الواسع لسعف النخيل في الهند، ويذكر أنه حول المعبد البوذي في كونكانابور، في جنوب الهند، هناك غابة من النخيل تؤمن المادة الأولية لإنتاج الكتب في المعبد. وقد كانت تستعمل لأجل الكتابة سعف بأبعاد مختلفة من عرض 3 سم وطول 35 سم إلى عرض 8 سم وطول 100سم. وقد كانت سعفة النخلة تقطع على طول جذعها ثم تقسم إلى قطع بأبعاد مختلفة. وبعد ذلك كانت تغلي بالماء ثم تجفف وتصقل أخيرا. وكان البعض يلجأ إلى جمع عدة صفحات ضمن لوحين من الجانبين. وكانت الكتابة تتم على الوجهين بينما كانت ألواح الخشب التي تحميها تزين بالرسوم غالبا.

أما الشكل الآخر للكتاب فقد كان يتألف من لحاء شجر التبولا، الذي كان شائع الانتشار كمادة للكتابة في شمال غرب الهند. وقد كان هذا الشكل لا يختلف كثيرا عن شكل الكتاب في أوربا خلال العصر الوسيط. وقد ترك لنا البيروني (973- 1043 م) وصفا مفصلا لكيفية استعمال هذه المادة للكتابة في الهند: «في وسط وشمال الهند يستعمل الناس للكتابة لحاء شجر التبولا الذي يسمى «بوريا». وكانوا يأخذون قطعة من اللحاء يصل عرضها إلى ذراع وطولها بهذا المقدار ثم يحضرونها بأشكال مختلفة. فقد كانوا يطلونها بالزيت ثم يصقلوها لتصبح قوية وناعمة، وحينئذ كانوا

يستخدمونها للكتابة. وعلى هذا اللحاء كانت تكتب النصوص الأدبية وكل النصوص الأخرى.

إلا أن الكتب المدونة على هذا اللحاء كانت عاجزة عن الصمود في وجه الظروف المناخية، خاصة في وجه المناخ الرطب للهند. ولذلك فمن النادر أن نجد نسخا من هذه الكتب تعود إلى ما قبل القرن الثالث عشر للميلاد.

ومن بين مواد الكتابة لا بد أن نذكر الحجر أيضا. وفي الواقع أن الحجر لم يكن يستخدم فقط لنقش بعض العبارات فوق الأضرحة بل كانت تدون عليه الأعمال الأدبية أيضا. وهكذا مثلا نجد أن أحد الملوك في أجمير خلال القرن الثاني عشر للميلاد قد أمر بنقش أشعاره ومسرحياته وأعمال شعرائه في القصر على الأحجار لكي تصمد في وجه الزمن. وقد حفظت بالفعل بعض المقاطع من هذه الأحجار إلى هذا اليوم.

وفي بعض الحالات النادرة كانت تستخدم أيضا كمادة للكتابة ألواح رقيقة من الذهب والفضة، ولكن فقط للنصوص التي كانت تحفظ في المكتبات الملكية. أما وثائق الدولة المهمة فقد كانت تدون في ذلك الوقت على ألواح من النحاس. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الألواح كانت تجمع وتربط معا على الطريقة التي كانت تجمع بها الكتب المؤلفة على سعف النخيل.

أما الورق فقد تأخر استعماله في الهند إلى ما بعد وصول المسلمين إلى هذه البلاد (القرن 13 للميلاد). وهكذا أصبح الورق المادة المفضلة للكتابة في مناطق المسلمين في شمال الهند، بينما كان في بقية مناطق الهند التي تنتشر فيها الأديان الأخرى يعتبر مادة غير مناسبة لكتابة النصوص المقدسة. ولهذا فقد بقي سعف النخيل يستعمل فترة طويلة في المعابد البوذية وغيرها.

لقد كانت الكتب في الهند تزين غالبا بشكل فاخر. إلا أن الكتب التي ترجع إلى ما قبل القرن السادس عشر للميلاد نادرة جدا. ومن هذه لدينا عدة مخطوطات بوذية مزينة من القرن الحادي عشر للميلاد كانت قد اكتشفت في البنغال وفي نيبال. أما بعد انتشار الإسلام في وسط وشمال الهند فقد وقع فن تزيين الكتب تحت التأثير القوي للمسلمين. ومن ذلك الوقت لدينا نسخ مزينة بشكل جميل جدا للقرآن وبعض الكتب الأخرى. إلا أن هذا الفن الإسلامي سرعان ما أخذ ملامح هندية متميزة بعد ذلك.

المراجع

حول تاريخ الكتاب في الصين خلال العصر الوسيط وإسهام الصينيين في تطور الكتابة والطباعة في الشرق الأقصى لدينا كتاب ممتاز:

Th. F. Carter, The Invention of Printing in China and its Spread Wesward, 2ed., New York 1955

وفي هذا الكتاب تذكر مصادر ومراجع كثيرة حول مشكلة إنتاج الورق، وحول الكتاب والمكتبات في الصين والشرق الأقصى بشكل عام.

ومن الدراسات الأخرى حول هذا الموضوع لا بد أن نذكر هنا:

P. Pelliot, Les debuts de l'imrimeire en Chine, Paris†1953;

Pow-Key Sohn, Printing in China, Der gegenwartige Stand der Gutenberg-Forschung, Stuttgart 1972, p211- 213;

B. Laufer, Paper and Printing in China, Chicago1931,

K.T. Wu, The Chinese Book, its Evolution and Development T'ien Hsia Monthly,3 (1936),p.25- 33;

Mei-Ts'en Hsu, The History of the Development of Printing in China, Taipei 1966;

ولدينا ملاحظات مثيرة في نهاية المؤلفات لدى:

Ming-Sun Poon, The printer's colofon in Sung China 960-1279, The Library Quarterly, 43(1973), No.1. P. 39-52.

وحول المكتبة الإمبراطورية انظر:

J.H. Winkelman, The Imperial Library in Southern Sung China,1127- 1279, Philadelphia 1974;

وفيما يتعلق بالطباعة في كوريا تأتي على رأس الدراسات:

Pow-Key Sohn, Early Korean Printing, Seoul 1971

وقد طبعت مقدمة هذا الكتاب بعنوان «الطباعة الكورية المبكرة» في مجموعة:

Der gegenwartige Stand der Cutenberg-Forschung, Stuttgart, 1972 p 217-231;

ولدينا صورة جيدة عن تاريخ الطباعة في كوريا في: 1976;

The History of Early Printing in Korea, Seoul 1976;

وفيما يتعلق بالطباعة وإنتاج الكتاب بشكل عام في اليابان انظر:

E.M. Staow, on the Early History of Printing in Japan, Trans-actions of the Asiatic Society of Japan, 10 (1888); p.48-83;

E.M. Satow, The Jesuit Mission Press in Japan, London 1888;

L.N. Ishida, Japonese Buddhist Prints, New York 1964,

D. Ghibbett, The History of Japonese Printing and Book Illustration; Tokyo1977;

A. Gaur, Les Manuscripts de l'Inde, de Ceylan et du Sud-Est Asiatique, Liber Librorum, Cinq mille ans d'art du livre, Bruxelles 1973,p.142-166

8 حضارات أمريكا القديمة

من الغريب أن ثقافات أمريكا الوسطى والجنوبية المتطورة، التي كان قد دمرها المستعمرون الأسبان خلال القرن السادس عشر للميلاد، لم تهتم بتطوير الكتاب بشكل يتناسب مع منجزاتها الثقافية الأخرى وقوتها الاقتصادية.

وهكذا فقد كان لشعوب الإنكا Inca مثلا قبل الاحتلال الإسباني (1533م) بعدة قرون إمبراطورية واسعة مركزها بلاد ألبيرو اليوم، حيث أسسوا المدن الكبيرة والمحصنة بشوارع وساحات مرصوفة بالأحجار وبمبان ضخمة للغاية، كما قد أنشأوا شبكة ممتازة للطرق وطوروا بشكل متقدم الزراعة والرعي، وحتى أنهم تمكنوا من إجراء عمليات معقدة وتميزوا بمعرفة واسعة بالفلك. ولكن مع كل هذا لم يبدع هذا الشعب أبدا كتابة متطورة. وهكذا فإن الوسيلة الوحيدة التي طوروها لنقل الرسائل، بالإضافة إلى المشافهة، كانت ما يسمى «الكوبيو» quopu وهي نوع من «الكتابة» يعتمد على حبال مختلفة الأطوال والألوان والعقد ويمكن بواسطتها أن «تكتب» وتنقل الرسائل القصيرة فقط.

وفي الواقع أن «الكوبيو» تعتبر من الناحية التاريخية من أقدم الكتابات البدائية التي اخترعها

الإنسان.

وقد توصل الأستيك والمايا والمكستيك في أمريكا الوسطى والمكسيك إلى كتابات أكثر تطورا إلا أنهم لم يتوصلوا قط إلى وضع أبجديات تقوم على النظام الصوتي، كما فعلت شعوب الشرق الأوسط التي كانت على درجة واحدة من التطور الثقافي. ومن بين هؤلاء فقد توصل المايا أخيرا، وتحت تأثيرهم الأستيك، إلى نوع من الكتابة التصويرية المعقدة، التي يسميها البعض هيروغليفية مع أنها لا تمت بصلة إلى الهيروغليفية المصرية، التي تؤشر إلى بداية الانتقال إلى النظام الصوتي.

وحتى اليوم لم يتم التوصل بعد إلى فك رموز هذه الكتابات، ولا شك في أن السبب في هذا يعود إلى أن هذه الكتابات لا تعتمد على النظام الصوتي. فاللفافات التي دونت بها تلك الكتابات لا تزال حية إلى اليوم وكان من السهل قراءة تلك الكتابات لو أنها كانت تعتمد النظام الصوتي. ومن ناحية أخرى فإن بعض النصوص يمكن أن تقرأ دون مساعدة اللغة لأنها مدونة بالكتابة التصويرية البدائية. وهكذا يمكن أن «تقرأ» وتفهم بسهولة قصة هجرة الأستيك، التي رسمت على شكل قصة مصورة فيما يسمى «مخطوطة بوتوريني C. Boturini كما يمكن أن «تقرأ» أيضا بهذا الشكل نصوص أخرى للأستيك والميكستيك. أما نصوص المايا فلا يمكن أن تقرأ بهذه السهولة لأن كتابتها تقوم على النظام الأديوغرافي. والشيء الوحيد الذي يمكن قوله عن نصوص المايا التي حفظت إلى اليوم هو أن معظم هذه النصوص ذات مضمون تاريخي وفلكي ورياضي.

وكان المايا، الذين يوصفون بحق بأنهم كاليونانيين بالنسبة إلى حضارات أمريكا القديمة، ينقشون نصوصا تاريخية ودينية على التماثيل الحجرية وخاصة على المباني العامة، إلا أنهم استعملوا أيضا للكتابة الخشب والصدف بينما كانوا يكتبون كتبهم على الورق. وقد كان المايا ينتجون الورق بأنفسهم من الخشب منذ القرن التاسع الميلاد. وقد أطلق المايا على هذا الورق اسم «هوون» huun بينما أطلق الأستيك الذين أخذوا تقنية صنع الورق من المايا اسم «أماتل» amatl وقد كان عرض الصفحات التي تستعمل للكتابة يصل إلى 23- 35 سم، أما طولها فكان حسب الحاجة. وكانت الصفحة تطوى بحيث تبرز صفحات صغيرة بعرض 10- 13 سم.

لقد استمرت تقنية صنع الورق كما هي حتى بعد قدوم الإسبانيين. وهكذا إلى اليوم نجد أن القبيلة الهندية أوتومي Otomi، في جنوب المكسيك، تقوم بصنع الورق على الطريقة القديمة التي كانت سائدة هناك قبل وصول كولومبوس إلى القارة.

ومن المخطوطات التي كتبها أفراد شعب المايا لم يبق لنا إلى اليوم إلا ثلاث فقط. ومن أشهر هذه ما يسمى «مخطوط درسدنC. Dresdensis. ويضم هذا المخطوط الرائع التقويم السنوي المقدس الذي أعده رجل دين مجهول خلال (900-1100م)، ويبلغ طوله ستة أمتار بينما يحتوي على 45 صفحة.

وقد كان رجال الدين هم الذين ألفوا وزينوا المخطوطات الأخرى. فبالإضافة إلى المخطوط الذي ذكرناه لدينا مخطوط آخر في المكتبة البريطانية في لندن- (C. Tro-Cortesianus) وثالث محفوظ في المكتبة الوطنية في باريس (Codex Peresianus) وللأسف لم تبق لنا مخطوطات كثيرة من الشعوب الأخرى ترجع إلى ما قبل وصول كولومبوس إلى القارة. فمن الأستيك وصلت إلينا أربع مخطوطات فقط. أما من الميكستيك، وهم الجيران والأعداء الأبديون للأستيك، فقد وصلت إلينا ثماني مخطوطات. وكان الميكستيك يتميزون بثقافة متطورة وقد تفوقوا على جيرانهم الأستيك في التصوير الأدبي. وقد دون الميكستيك في كتبهم أيضا أحداثا تاريخية ونصوصا فلكية وميثولوجية ورياضية وتقاويم سنوية الخ.

إن هذه المخطوطات على ما نعرفه من المصادر التاريخية ليست إلا جزءا صغيرا مما كتبته هذه الشعوب قبل وصول الأسبان. فماذا جرى يا ترى لبقية الكتب؟

لقد قام المكتشفون الأسبان والمبشرون من بعدهم بتدمير كل ما أمكنهم من ثقافة الشعوب التي أخضعوها. وفي هذا الإطار كان مصير الكتب أسوأ من غيرها لأن المبشرين كانوا يعتبرونها مصدرا للخطر. وقد جرى أسوأ «انتقام» من الكتب خلال سنة 1549 م، حين لجأ المبشرون إلى تعميد السكان المحليين بالقوة عوضا عن الدعوة والتبشير. فقد وصلت حينئذ إلى مسامع دييغودي لاندا de landa المتعصب، وهو أول سقف لـ يوكاتان Yukatan أن السكان في مدينة ماني القريبة يجتمعون في الخفاء ويعبدون آلهتهم القديمة

ولذلك فقد جاء بنفسه وجمع كل التماثيل المصنوعة من الخزف والخشب وكافة الكتب وأمر بإحراقها جميعا بشكل علني. وقد سجل دي لاندا، الذي أعيد إلى أسبانيا بعد تصرفه هذا، في كتابه «قصة الأحداث في يوكاتان» أن الأسبان قد اكتشفوا في هذه المناسبة «عددا كبيرا من الكتب التي كتبت بلغتهم» ونظرا لأن هذه الكتب «لم تكن تحتوي على أي شيء سوى على الخرافات والأكاذيب المتعلقة بالشيطان فقد أحرقناها كلها».

إلا أن هذه الكتب التي تحتوي على «الخرافات الكاذبة» كانت في الواقع أثمن ما أبدعه شعب المايا. فقد كانت هذه الكتب تحتوي على المعارف الفلكية والرياضية التي كانت قد تراكمت خلال ألفي سنة لدى هذا الشعب. وبالإضافة إلى هذه فقد كانت هناك كتب أخرى تسجل التاريخ المجيد لهذا الشعب ثم تقاويم سنوية وما شابه ذلك. ومن هنا فإن الخسارة الكبيرة التي سببها دي لاندا كانت لا تعوض إذ إنه في مدينة ماني بالذات، وهي العاصمة القديمة للمايا التي كان ينحدر منها الأسرة الحاكمة توتول كسيو Tutul Kaiu كانت توجد مكتبة مهمة بقيت بعيدة عن أيدي الأسبان حتى سنة 1549م.

وقد تعرضت كتب الأستيك أيضا إلى مصير مشابه. فقد قام المكتشفون أولا ثم المبشرون الذين كانوا لا يقلون دموية عن الأولين، بتدمير كل الكتب تقريبا التي أبدعها هذا الشعب. وفي الواقع أن المصادر التاريخية تذكر لنا أن هذا الشعب كان يتميز بإنتاج كبير للكتاب. ففي مجتمع الأستيك كان الكتاب-الرسامون، الذين كانوا يسمون «تلا كوي لوان»، يتمتعون بمكانة كبيرة. وكان من هؤلاء من يعمل لدى الدولة بينما كان البعض الآخر يعمل لحساب العائلات الغنية. وكان أولئك الذين يعملون لدى الدولة يحتفظون بسجلات للضرائب (للأفراد والقرى والمدن) ويسجلون كل ما يحصل في قريتهم أو مدينتهم: المطر والجفاف ووفاة الحكام واندلاع الحروب وما شابه ذلك من الأحداث المثيرة. أما الكتاب الذين كانوا يعملون لحساب العائلات فقد كانوا يكتبون على الغالب تواريخ تلك العائلات.

وحسب شهادة المؤرخ برناردين ساهاغون الذي كان قد ألف كتابه «التاريخ العام للأحداث في إسبانيا الجديدة» فور قدوم الأسبان بالاستناد إلى كتب ووثائق الأستيك وإلى ما سمعه بنفسه من أفراد هذا الشعب، فإن أبناء

الشريحة العليا في المجتمع المحلي كانوا يذهبون إلى مدارس خاصة حيث كانوا يتعلمون «أناشيد للآلهة مسجلة في الكتب وتعداد الأيام وتدوين تفسير الأحلام وكتب التقاويم السنوية». ونعرف من ناحية أخرى أن أفراد الأستيك كانوا يؤلفون أيضا كتب الشعائر الدينية وغيرها. وبشكل خاص فقد انتشرت كتب الفأل بكثرة، حيث كان رجال الدين يعودون إليها قبل اتخاذ أي قرار مهم كإعلان حرب أو زواج الخ.

إلا أن كتب الأستيك تعرضت أيضا للحرق من قبل الأستيك أنفسهم قبل قدوم الأسبان. فقد أمر الإمبراطور اتزكواتل Itzkoatl بحرق كتب كثيرة لأنه كان يعتقد أن هذه الكتب لم تصور أصل الأستيك بشكل صحيح. إلا أن أكبر خسارة حلت بكتب الأستيك حدثت بعد قدوم الأسبان. فقد وجد في المكسيك أيضا أسقف متعصب، الأسقف زاماراغا Zamaraga، الذي أحرق آلاف الكتب بعد أن جمعها من المكتبات الخاصة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن شعوب المايا والأستيك والميكستيك قد استمروا بتأليف الكتب حتى بعد خضوعهم للأسبان. وقد ألف هذه الكتب حينئذ أفراد الشريحة العليا من المجتمع الذين تعمدوا وتعلموا في مدارس المحتلين ولكنهم احتفظوا بالتقاليد الثقافية لشعوبهم. وقد كتب هؤلاء مؤلفات تاريخية قيمة بلغتهم الأصلية ثم بالإسبانية فيما بعد.

وفي الواقع فقد ألف هؤلاء كتبهم بالاستناد إلى التقاليد الشفوية الحية وإلى كتب التقاويم أيضا التي كانت لا تزال توجد في بعض بيوت الأغنياء بعد قدوم الأسبان. ومن هذه المؤلفات نذكر هنا مخطوط مندوزا C. Mendoza الذي ألفه أحد أفراد الأستيك المنتصرين بأسلوب الأستيك القديم. وبين هؤلاء الكتاب يتمتع الأمير المنتصر اكستليدكوتشيتل Ixtlilxochitl بمكانة مهمة إذ أنه ألف تاريخ الأستيك. وقد برز كتاب من هذا النوع لدى الشعوب الأخرى التي خضعت للأسبان. فبعد قدوم الأسبان ألف في يوكاتان كتابا تاريخيا مهما بعنوان «تشيالام بالام» Chilam Balam وذلك بالاستناد إلى كتب التقاويم القديمة. وقد كتب هذا الكتاب بلغة المايا ولكن بحروف لاتينية.

وحتى اليوم فقد وصلت إلينا حوالي مائة مخطوط من هذا النوع، وهي ذات أهمية كبيرة للتعرف على تاريخ وحياة السكان في «العالم الجديد» قبل وبعد قدوم الأسبان.

المراجع

حول مسألة إنتاج الورق في حضارات أمريكا القديمة، السابقة لقدوم كولومبوس، لدينا عرض واسع لدى:

Victor W. Von Hagen, The Aztek and Maya Papermarks, New York.1943

وحول كتابة شعب المايا والمحاولات التي بذلت لقراءتها انظر:

J. V. Knorozov, The Problem of the Study of the Study of the Mayan Hieroglyphic; Writing, American Antiquity, 23(1958), p. 284-291

G. Zimmerman, Die hieroglyphen der Maya-Handschriften, Hamburg 1956

J. E. S. Thompson, Maya Hieroglyphic Writing, Washington 1950.

وبشكل خاص حول كتب المايا انظر:

C. A. Burland, Magic Books from Mexico, Hamondsworth 1953.

Codex Dersdensis, Die Maya-Handschrift der Konigl, Bibliothek zu Dresden, Hrsg. E. Forstemann, Leipzig 1880;

The Book of Chilam Balam of Chumayel, Washington 1933.

٩ الإحياء والنهضة

في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي بدأ الانبعاث الثقافي في إيطاليا، الذي سيؤدي إلى تغيير أوربا القروسطية من أساسها. وقد دعي هذا الانبعاث بحركة «الإحياء» humanism نسبة إلى رجال الإحياء humanist،كما كانوا يسمون بلغة الطلاب أساتذة المواد الكلاسيكي (Studia humanitatis). ولكن فيما بعد أصبح هذا اللقب يطلق على كل الأدباء والفلاسفة وعلماء اللغة الذين كانوا يجمعون ويدرسون تراث العالم القديم، وبشكل خاص تراث اليونانيين والرومانيين القدماء.

وبالنسبة إلى تاريخ الكتاب فقد كان حماس رجال الإحياء للعصر القديم من الأهمية بمكان. فقد تمكن هؤلاء من العثور على المؤلفات الأدبية والعلمية للعصر القديم في مكتبات الأديرة والكنائس وغيرها من مكتبات العصر الوسيط، ثم توجهوا إلى تحريرها ونسخها وترجمتها ودراستها بحماس قل أن نجد له مثيلا في التاريخ الأوربي. وقد أعاد هؤلاء إلى أوربا ما كانت قد فقدته خلال القرون الطويلة للعصر الوسيط: حب الحياة، التفاؤل، الرغبة القوية في اكتشاف الجديد في العلم واكتشاف المناطق البعيدة في الأرض والفضاء

وكل ما يحيط بالإنسان. وقد وجد هؤلاء في مؤلفات كتاب العصر القديم ما يدفعهم لرؤية العالم من زاوية جديدة والخروج بأفكار جديدة بحيث ساهموا بهذا الشكل في خلق ظروف ثقافية لإحياء أوربا، الذي سيطلق عليه في وقت متأخر(منتصف القرن 19) عصر النهضة.

وفي هذا الإحياء الأوربي كان لكتب المؤلفين القدماء دور مهم، وحتى حاسم في بعض الأحيان، بعد أن كانت هذه المؤلفات تقع في المرتبة الأخيرة مقارنة بالكتب الدينية في مكتبات العصر الوسيط. وهكذا فقد احتلت هذه الكتب الآن المرتبة الأولى نتيجة للاهتمام الكبير لمجتمع المدن في ذلك الحين بالمثل العليا الحياتية التي كان الكتاب اليونانيون والرومانيون قد عرفوا كيف يعبرون عنها بشكل ممتاز. وقد تحولت المعلومات والأفكار، التي كان المثقفون يقرأونها حينئذ في الكتب التي يعلوها الغبار، بعد أن بقيت لعدة قرون منسية في الزوايا المظلمة لمكتبات العصر الوسيط، إلى هدف للكفاح الذي أصبحت تخوضه أوربا الحديثة. وفي الواقع فقد تحولت تلك المعلومات والأفكار إلى قوة دافعة للانبعاث الروحي والاقتصادي الذي كان يؤثر إلى بداية العصر الحديث في أوربا. ومن النادر في تاريخ الإنسانية أن نرى دورا بهذه الأهمية للكتاب كما كان الأمر في عصر الإحياء والنهضة.

وقد رأينا سابقا كيف أن الاهتمام بمؤلفات كتاب العصر القديم في الغرب، وخاصة بمؤلفات الكتاب الرومانيين، لم ينقطع أبدا خلال العصر الوسيط.

وقد شجع وساعد هذا الاهتمام في بعض الأحيان عدد من الحكام المتعلمين، ولذلك يجري الحديث أحيانا عن عدة «نهضات» في العصر الوسيط. إلا أن هذا الاهتمام كان مقيدا بالزمان والمكان ولذلك فإن نتائج هذه «النهضات» بالنسبة إلى الحياة الروحية في أوربا لا تقارن نتائج النهضة الحقيقية في إيطاليا وبقية البلدان الأوربية. ولكن ذلك الاهتمام المتواصل إلى حد ما يبقى له الفضل في نسخ وحفظ عدد كبير من مؤلفات كتاب العصر القديم إلى أن وصلت إلى أيدي رواد الإحياء.

أ- البحث عن مؤلفات كتاب العصر الوسيط

لقد سبق الباحثين المعروفين عن المخطوطات القديمة كبترارك وبوكاشيو

وغيرهم بعض الأفراد في إيطاليا، وكان يجب على أوربا أن تعترف لهم بالفضل لأنهم كانوا أول من بحث بانتظام عن المخطوطات في المكتبات القديمة وأول من كشف عن المخطوطات القيمة. وعلى رأس هؤلاء يأتي لوفات (1241- 1309 م) الذي كان قد جمع حوله في بادوفا مجموعة من المساعدين واكتشف في مكتبات الأديرة الإيطالية الشمالية ومكتبات الكنائس مخطوطات أوفيدوهوراس وغيرهم. وقد كانت هذه بداية متواضعة إلا أنها على قدر كبير من الأهمية في الوقت ذاته للبحث عن مخطوطات كتاب العصر القديم، إذ أنها وجدت استمرارا لها في شخص فرانشسكو بترارك (1304- 1374 م) المتحمس.

ومع هذا الشاعر العالم الكبير بدأت «حمى» البحث المنظم عن المخطوطات القديمة. وفي سبيل هذا لا بد من التنقيب في المكتبات المهجورة في الغالب وغير المنظمة لعدد كبير من الأديرة، وكان لا بد من العمل بصبر دؤوب لتجميع كتب العصر القديم التي كانت معروفة لدى دائرة ضيقة من المتعلمين. وبالإضافة إلى هذا كان لا بد أيضا من نسخ المخطوطات التي يتم العثور عليها والسعي إلى تصور النص الأصلي لها، الذي كان كثيرا ما يتضرر من لامبالاة النساخ في العصر القديم. وإلى جانب هذا كانت هناك بعض المؤلفات التي تشتت أجزاؤها في أماكن مختلفة بحيث كان يتحتم جمعها بصبر دؤوب لكي تعود كما كانت عليه في السابق.

وكان بترارك قد بدأ نشاطه في العشرين حين أقام في مدينة أفينيون ووجد هناك عدة أجزاء من الكتاب الضخم لليفي «من تأسيس روما». وقد نسخ أولا الأجزاء التي عثر عليها، ثم أكمل الكتاب بالأجزاء التي عثر عليها في بقية الأماكن إلى أن أصبح يملك سنة 1329 م أفضل نسخة لكتاب ليفي في ذلك الوقت. وقد اشترى وجمع بترارك أيضا مخطوطات للكتاب الآخرين من العصر القديم بحيث إن مكتبته أصبحت تضم بعد فترة قصيرة أكبر مجموعة من مؤلفات الكتاب الرومانيين في أوربا الغربية في ذلك الوقت. فقد كان يملك في مكتبته كل كتب شيشرون تقريبا وبعض كتب فيرجيل ولوقيان وهوراس وغيرهم. وفي الواقع لقد كان بترارك قد جمع هذه المجموعة بجهد عظيم من خلال سفره من بلد إلى آخر ومن خلال بحثه في كل زاوية يفترض وجود مخطوطات من هذا النوع فيها. وقد حفظت

إلى اليوم في باريس قائمة الكتب التي كان بترارك قد قرأها وسجلها هناك، حيث يبدو أن الكتب المفضلة للقراءة لديه كانت كتب شيشرون ثم كتب بقية الكتاب الرومانيين، ففي هذه القائمة لا نجد من الكتب اليونانية إلا كتاب «علم الأخلاق» لأرسطو، وحتى هذا الكتاب كان بترجمة لاتينية. وفي هذه القائمة لا نجد أيضا مؤلفات لكتاب العصر الوسيط، بينما لا نجد من المؤلفات المسيحية القديمة إلا أعمال أوغسطين وكتاب بويتسيوس «في التعزية».

إلا أن بترارك لم يكن يجمع المخطوطات فقط بل كان يراجعها ويقارن النسخ المختلفة للكتاب الواحد لكي يستطيع أن يصل إلى النص الأصلي، ثم ينسخ المخطوطات بيده أو يعطيها لمن ينسخها له. ولذلك يقال بحق إن التحليل النقدي للنصوص في العصر الحديث وطبع النصوص المحققة للكتاب القدماء بدأ مع بترارك بالذات. وفي الواقع أن ملاحظاته الكثيرة على النصوص التي حققها أو نسخها تكشف عن بترارك كعالم كبير ودقيق.

لقد كان بترارك يعيش بكل روحه مع العصر القديم، مع روما الضخمة والقوية، حيث كان يجد الإلهام لمؤلفاته الشعرية العظيمة. لقد كان يرى في الكتب وفي آثار روما، التي يسير بينها باندهاش مع الزعيم الشعبي كولادي رينسين، الشواهد على الماضي المجيد لروما وإيطاليا ويقارن هذا بإيطاليا التي يعيش فيها، بإيطاليا الممزقة بالحروب الداخلية وبأطماع العائلات الغنية التي تفقر قوة الشعب خلال تصفية الحسابات فيما بينها، وهكذا فإن قصيدته «إيطاليا» التي تهز النفوس ما هي إلا مؤشر على إيطاليا في ذلك الوقت، ولكنها في نفس الوقت مرشد للخروج إذ أن بترارك كان يجد في الماضي الإلهام للمستقبل.

وبالفعل لقد وجد بترارك في العصر القديم بعض المثل العليا التي دفعته ليصيغ موقفا جديدا تماما إزاء الكتاب ودوره في المجتمع. ففي نظره لا ينبغي للكتاب أن يحمل ذلك الطابع الصوفي والسحري بل يجب أن يعود كما كان في العصر القديم الأداة والوسيلة الناقلة للأفكار والمعلومات، وهكذا فإن بترارك عثر في مؤلفات كتاب العصر القديم على الرأي الذي أصبح منسيا منذ زمن طويل في أوربا، ألا وهو أن المكتبات يجب أن تكون عامة ومفتوحة لكل شخص لأن الكتاب يجب أن يكون خيرا عاما. وتحت

تأثير هذا الرأي فقد كان بترارك أول من بادر في أوربا الحديثة التي كانت في طور الولادة حينئذ، إلى تأسيس مكتبة عامة على نمط المكتبات الرومانية العامة، فقد قرر أن يهب مكتبته الغنية إلى كنيسة القديس مرقص في فنيسيا بشرط أن تؤسس هناك مكتبة عامة، إلا أن فكرته لم تتحقق بعد موته إذ أن الظروف لم تكن قد نضجت بعد لمشروع بعيد النظر كهذا، ولكن هذا لم يقلل أبدا من أهمية فكرته لأنها ستسود بسرعة في وسط رجال الإحياء. وهكذا فقد تحققت أخيرا في منتصف القرن الخامس عشر فكرة المكتبة العامة في فيرنا أولا ثم في بقية مدن أوربا.

وقد تابع طريق بترارك معاصره وتلميذه جوفاني بوكاشيو (1313- 1375) الذي تمكن من العثور على مخطوطات قيمة جدا في دير كاسينو المعروف، وهكذا فقد توصل بوكاشيو مثلا، ولو بطريقة غير شرعية تماما، إلى المخطوطة المجهولة حتى ذلك الحين لكتاب فارون «اللغة اللاتينية» ثم على مخطوطة «دفاعا عن كلونتيوس» لشيشرون وعدة مخطوطات لتاسي. وقد عمد بوكاشيو حينئذ إلى نسخ بعض هذه الكتب وإرسالها إلى بترارك.

وفي هذه الحركة الإحيائية فقد كان لكولوتشو سالوتي (1331- 140م) دوره المهم أيضا، ذلك المتحمس الكبير للعصر القديم والحاكم الجديد لفيرنا. وفي الواقع لقد بدأ معه بالذات الاتحاد الإيجابي بين الإحياء كحركة وبين سلطة الدولة، ألا وهو الاتحاد الذي سيمثله خير تمثيل في عصر النهضة حكام آل ميدتشي في فيرنسا، وهكذا فقد استغل سالوتاتي مركزه المؤثر لكي يزاوج بين أفكار حركة الإحياء، وبين السياسة الرسمية لفيرنسا. فقد كانا يدعو مثلا إلى المدينة الدبلوماسي البيزنطي كريسولوراس ليلقي محاضرة في اللغة اليونانية لكي يفتح بهذا الطريق للتعرف على هذه اللغة في إيطاليا وأوربا الغربية. وقد بادر لبترارك لتأسيس مكتبة عامة في فيرنسا، إلا أن مبادرته أيضا لم تتحقق. وقد كانت له مكتبة خاصة غنية تحتوي على 800 كراس من المؤلفات الممتازة، وقد بيعت بعد وفاته إلى عدة مشترين كان من بينهم نيقولو نيقولي.

وفي غضون ذلك كان عدد الباحثين عن المخطوطات القديمة يزداد باستمرار، كما ازداد أيضا باستمرار عدد كتاب العصر القديم الذين بعثوا من جديد. وهكذا فقد كان اكتشاف أي مخطوط جديد، غير معروف حتى

ذلك الحين، يثير الحماس ويؤدي إلى تمجيد مكتشفه كبطل.

ومن بين هؤلاء الباحثين عن المخطوطات القديمة حقق بوجو براتشوليني (1380-1458 م) أكبر نجاح في هذا المضمار. وكان هذا المبدع الشامل والمتحمس قد صاحب البابا يوحنا الثالث والعشرين كسكرتير له إلى المجمع الكنسي في كونستانس (1414- 1418 م). ونظرا لأن أعمال هذا المجمع كانت تسير بشكل بطيء فقد كان بوسع براتشوليني أن يزور مكتبات الأديرة في سويسرا وفرنسا وألمانيا. وكان قد زار أولا دير كليني في فرنسا سنة1415 م، حيث وجد عدة خطابات لشيشرون من بينها اثنتان مجهولتان حتى ذلك الوقت (دفاعا عن روسيكوس، دفاعا عن مورينا) وفي السنة اللاحقة زار دير سانت غالين المعروف في سويسرا حيث وجد هناك النص الكامل لكتاب كونيتيليان «تعليم الخطيب»، الذي كان حتى ذلك الحين لا تعرف منه إلا بعض الأجزاء، ثم كتاب «الملاحة الأرضية» لفاليري فلاك. وفي سنة 1417 م قام بارتشوليني بحملة حقيقية على بعض الأديرة الألمانية وعاد منها محملا بمخطوطات ثمينة. وبعد عودته إثر انتهاء أعمال المجمع الكنسي سافر إلى إنكلترا حيث بقي عدة سنوات، وفي طريق عودته إلى إيطاليا توقف في مدينة كلن حيث عثر على كتاب «ضيافة تريمالهيون» لبترون أربيتر. وقد نسخ هذا الكتاب بسرعة حينئذ، كما كان يفعل عادة حين يعجز عن شراء المخطوط أو أخذه من رهبان الدير، إلا أن هذه النسخة فقدت فيما بعد. وقد بقي هذا الكتاب لبترون مجهولا زمنا طويلا إلى أن وجدت منه نسخة سنة 1655م كاملة في تروغير، في بيت المؤرخ كوريولان سيبيك.

وهكذا فقد شاهد النور أخيرا قسم كبير من التراث الأدبي والعلمي الروماني خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد. فقد اكتشفت في المكتبات القديمة في ذلك الوقت، وحتى المهجورة في بعض الأحيان، مخطوطات قيمة كانت تثير الحماس في وسط المتعلمين. ولذلك فقد تحولت المكتبات في بوبيو وهرسفليد وكورفيه وفارونا وغيرها من مكتبات الأديرة والكنائس إلى هدف الباحثين المتحمسين عن المخطوطات القديمة. وكانت المخطوطات المكتشفة تنسخ بسرعة وتصل هكذا إلى أيدي المتعلمين في كافة أرجاء أوربا. وكان هؤلاء بدورهم يدرسون هذه المخطوطات ويعلقون عليها ثم ينسخونها وينشرونها وبهذا كانوا يمارسون تأثيرا قويا في تشكيل

ثقافة النهضة. ومع اكتشاف الطباعة فقد طبعت هذه المخطوطات المكتشفة أولا وانتشرت في كافة أرجاء أوربا. وهكذا خلال فترة قصيرة أصبح معظم التراث الروماني، الذي نعرفه اليوم، في متناول أولئك الذين كانوا يهتمون به وأصبحت مؤلفات الكتاب الرومانيين جزءا لا يتجزأ من كل مكتبة خاصة وعامة.

وفي ذلك الوقت العاصف برز نيقولو نيقولي (1364-1437م) كأحد أشهر هواة جمع الكتب، وهو الذي أنفق كل ثروته الكبيرة في سبيل الكتب.

وكان نيقولي يوصي على الكتب من القسطنطينية وألمانيا وبقية البلدان وخاصة من إيطاليا، وينسخ الكتب بيده أو يعطيها لمن ينسخها له. وكان يسافر بنفسه ويتجول في أرجاء إيطاليا حيث كان يحصل على مخطوطات نادرة لكتاب العصر القديم. وفي عمله هذا كان نيقولي يتعاون بشكل وثيق مع كوزيمو ميديتشي، أحد المصرفيين الأغنياء في فيرنسا، الذي كان يساعده كثيرا حين كان يحتاج الأمر لذلك. وكان لنيقولي عدد كبير من الأصدقاء الذين كانوا يخبرونه عن المخطوطات المكتشفة حديثا. وهكذا فقد كان بوجو براتشوليني يحمل له الكتب من ألمانيا وفرنسا، وامبروجو ترافرساري من روما، بينما كان جوفاني أوريسبا يبيع له المخطوطات اليونانية التي كان يعثر عليها من القسطنطينية. وقد كان كل واحد من أصدقائه يحاول أن يرسل إليه المخطوطات التي كانت هدفا لرجال الإحياء، بحيث إن مكتبته أصبحت فريدة من نوعها إذ أصبحت تجمع حصيلة الاكتشافات المتعلقة بالمخطوطات القديمة من كل أرجاء أوربا. وقد تمكن نيقولي حتى نهاية حياته أن يجمع حوالي 800 مخطوط، وأوصى بها سنة 1430 م إلى دير سانتا ماريا ديلي أنفيلي في فيرنسا بشرط ألا يقتصر استعمالها على الرهبان ورجال الدين بل لـ«كل باحث مدني» أيضا. وفي وصيته منع نيقولي رهبان الدير من بيع كتب مجموعته أو استملاكها بأي شكل كما منع أيضا إعارة الكتب خارج الدير إلا في الحالات المضمونة على أن يعود الكتاب ثانية خلال سنة. ولحرصه على حماية مكتبته واستمرارها للأجيال القادمة فقد حدد لرعايتها مجلسا خاصا مؤلفا من 12 عضوا من أعيان المدينة. إلا أن نيقولي عدل وصيته قبل موته بحيث لم يعد يصر على أن تنقل مكتبته إلى الدير المذكور بل ترك تقرير مصير المكتبة بيد المجلس المذكور مع

التأكيد ثانية على عدم تقييد الاستفادة من هذه المكتبة. وفي الواقع فقد كانت حالته المادية المتردية في نهاية حياته لا تسمح له بأن يقرر بنفسه مصير مكتبته لأنه كان متورطا بديون كبيرة للكثيرين. ومن أهم هؤلاء كان كوزيمو ميديتشي نفسه صديقه وحاميه لزمن طويل، وهو الذي كان يشارك صديقه في آرائه حول مستقبل هذه المكتبة.

وقد حرص ميديتشي بعد وفاة صديقه نيقولي سنة 1437 م على أن يشيد بناء مناسبا لهذه المكتبة القيمة-وفي ذلك الوقت بالذات كان ميديتشي قد بادر إلى بناء دير القديس مرقص في فيرنسا حيث بنى المهندس المشهور ميكيلوري بناء على أمره أحد أجمل المكتبات لبداية عصر النهضة. وبعد أن سدد كافة ديون نيقولي قام ميديتشي بنقل مكتبته إلى مقرها الجديد. وقد افتتحت هذه المكتبة للجمهور سنة 1444 م، أي كما كان يرغب صاحبها تماما، وقد دعيت حينئذ «مكتبة مارسيانا» نسبة إلى الدير الذي أقيمت فيه.

وقد عرفت فيرنسا في ذلك الوقت كيف تقدر الموقف النبيل لنيقولي. ففي كلمة التشييع مدح صديقه القديم بوجو براتشوليني فكرته الداعية إلى وضع كتبه تحت تصرف الجميع «في مكان مفتوح للجميع بحيث يتمكن كل من يتطلع للعلم أن يقطف ثمار المعرفة».

وكان نيقولي خلال حياته لا يقتصر أبدا في إعارة الكتب لأصدقائه بحيث أنه في يوم افتتاح المكتبة كان له (205) كتاب مستعار لدى الأصدقاء. وبالإضافة إلى هذا فقد بقي مصير(200) كتاب آخر مجهولا بحيث إن نصف مجموعته فقط وضعت بالفعل في المقر الجديد للمكتبة.

وحين وضعت هذه الكتب في المكتبة، حسب مواضيعها، لاحظ براتشوليني أن تركيب هذا المجموع لا يناسب تماما ما تحتاجه المكتبة العامة. ولذلك فقد طلب من هاوي جمع الكتب توزو بارنتشوتشيلي، البابا نيقولا الخامس فيما بعد، أن يعد قائمة بالكتب التي تحتاجها هذه المكتبة. وبالاستناد إلى القائمة التي أعدها بارنتوتشيلي فقد أرسل براتشوليني رجاله، ومن بينهم فسبازيانو دابيستتشي، إلى مدن توسكانيا لكي يشتروا هناك الكتب أو ينسخوا الكتب التي لا يستطيعون شراءها. وقد بقي براتشوليني يرعى هذه المكتبة ويغنيها بما يتلقاه من هدايا حتى وفاته سنة 1464 م. وقد قلده

في هذه الكثيرون في ذلك الوقت وقد كان من هؤلاء لورينسودا بيستيشي، حفيد فسبازيانو الشهير، الذي ترك سنة 1478 م لهذه المكتبة في وصيته 71 كتابا، وجورجو أنطونيو فسبوتشي-عم البحار المعروف أمريكو فسبوتشي- الذي أهدى إلى المكتبة حوالي خمسين كتابا مخطوطا ومطبوعا، وهي بمعظمها من مؤلفات الكتاب اليونانيين والرومانيين، وغيرهم الكثيرون.

إلا أن هذه المكتبة فقدت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الكثير من كتبها، بحيث لم تعد لها تلك الأهمية التي كانت لها في عصر النهضة، حين كان يلجأ إليها أشهر الكتاب والعلماء في فيرنسا. ومع ذلك بقيت هذه المكتبة حتى سنة 1700 م، حين زارها المبشر البنديكتي المعروف برنارد دي مونتفلاوكو في مع تلميذه ومساعده الراغوصي(*) انزلمو باندور وأنجز بهذه المناسبة قائمة بمخطوطاتها، المكتبة الثانية من حيث الأهمية في فيرنسا.

ب-إحياء الثقافة اليونانية في أوربا الغربية.

كانت معرفة اللغة اليونانية في أوربا الغربية محدودة جدا خلال بداية ومنتصف العصر الوسيط، وحتى أنها كانت تكاد تكون معدومة بينما كان الغرب لا يعرف من مؤلفات كتاب العصر الوسيط إلا تلك المترجمة إلى اللغة اللاتينية. وقد كانت بقايا الارستقراطية الرومانية القديمة في القرنين الخامس والسادس للميلاد، مع بعض الاستثناءات، آخر من يقرأ في اليونانية مؤلفات هومير وأرسطو في الغرب. وهكذا نعرف على سبيل المثال أن كاسيودور كان يحتفظ في مكتبته بدير فيفاريوم بعدة مؤلفات في اللغة اليونانية، وهو الشي الذي لا نصادفه بعد ذلك في أوربا القروسطية. وكان المبعوثون والمسافرون القادمون من بيزنطة يحملون معهم من حين إلى آخر بعض الكتب اليونانية التي كان يمكن أن يقرأها الرهبان المتعلمون فقط. إلا أن أمثال هؤلاء الرهبان كانوا نادرين حقا باستثناء إيطاليا الجنوبية حيث بقيت هناك بعض الأديرة اليونانية. ومن بين هؤلاء الأشخاص النادرين الذين يعرفون اللغة اليونانية كان روجر باكون حوالي (1214- 1294 م) الذي ألف كتابا لقواعد اللغة اليونانية. وقد ازداد الاهتمام بالكتاب اليوناني في

(*) نسبة إلى راغوصة القديمة، دوبروفنيك الحالية في يوغسلافيا. (المترجم).

القرن الرابع عشر الميلادي، حين تعلم بترارك نفسه اللغة اليونانية دون أن يتقنها وحين تمكن بوكاشيو من إقناع حكومة فيرنسا بأن تدفع عدة سنوات لأحد اليونانيين لكي يبقى في المدينة ويعلم اللغة اليونانية.

إلا أن حدثا حاسما في التاريخ السياسي لأوربا أدى لاحقا إلى سرعة التعرف على اللغة اليونانية في إيطاليا وحتى إلى انهمار الكتب اليونانية على إيطاليا وإلى حد ما على بقية البلاد الأوربية. لقد كان هذا الحدث متمثلا في الخوف من الأتراك الذين أحرزوا انتصارات متتالية ضد الإمبراطورية البيزنطية المتراخية. وقد كان الدبلوماسيون البيزنطيون يزورون العواصم الإمبراطورية الأوربية ويطلبون المساعدة ضد الخطر التركي المتزايد، بينما كان الكثير من الرهبان والمتعلمين يغادرون القسطنطينية والمناطق المهددة الأخرى باتجاه إيطاليا وهم يحملون كتبهم. وقد ازداد فيض هذا السيل من المهاجرين اليونانيين باتجاه الغرب بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين سنة 1453 م وقبل هذه السنة كان الكثير من الباحثين عن المخطوطات القديمة يذهبون إلى القسطنطينية وغيرها من المدن البيزنطية، وخاصة إلى الأديرة المنتشرة هناك، ليبحثوا عن المخطوطات. وقد نجح من بين هؤلاء جوفاني أوريسيا بشكل خاص إذ أنه عاد من القسطنطينية إلى إيطاليا سنة 1423 م وبحوزته 238 مخطوطا. أما اليوناني إيفان لاسكاريس، الذي كان يجمع المخطوطات لمكتبة لورنسو دي ميديشي، فقد عاد مرة إلى إيطاليا ومعه 200 مخطوط اشتراها من أحد الأديرة في آتوس. ومن أبرز أولئك الذين كانوا يجمعون الكتب اليونانية يعتبر الراغوصي إيفان ستويكوفيتشي (حوالي 1390-1443 م)، الذي جمع من عدة سفرات من هذا النوع-وخاصة من القسطنطينية-مجموعة قيمة جدا من الكتب التي كانت أغلبها في اليونانية، والتي تركها أخيرا إلى دير الدومينيكان في بازل.

ومن أولئك المتعلمين الذين هاجروا من بيزنطة إلى إيطاليا وأخذوا معهم كتبهم يعتبر من الأهمية بمكان بازيليوس بيساريون (حوالي 1455-1472 م). وكان هذا من يونانيي طرابزون في آسيا الصغرى، وقد وصل إلى إيطاليا سنة 1438 م مع وفد كنسي حيث بقي هناك. وقد حصل لاحقا على لقب كاردينال ومارس دورا كبيرا بين المهاجرين البيزنطيين في إيطاليا.

وهكذا فقد أصبح بيته في روما، حيث كانت مكتبته أيضا، ملتقى للنخبة المتعلمة في روما حينئذ وخاصة لأولئك المهتمين باللغة والثقافة اليونانية. وبشكل خاص فقد اهتم بيساريون بجمع أكبر عدد ممكن من الكتب اليونانية لكي يضعها تحت تصرف المتعلمين. ولأجل هذا فقد استفاد من صلاته الممتازة مع القسطنطينية وغيرها من المناطق البيزنطية (كريت-أثينا الخ). وحتى أنه تمكن من الحصول على كتب من القسطنطينية حتى بعد سقوطها في أيدي الأتراك. وهكذا فقد تمكن بيساريون أن يجمع أكبر مجموعته من الكتب اليونانية في أوربا الغربية خلال ذلك الوقت. وقد أهدى قبل وفاته (سنة 2168 م) كل مجموعته (482 مخطوطا يونانيا و 264 مخطوطا لاتينيا) إلى مدينة فينسيا على أمل أن تؤسس مكتبة عامة في هذه المدينة. وقد أسست بالفعل في وقت لاحق مكتبة كبيرة من هذا النوع، مكتبة مارسيانا الحالية، حيث أصبحت مجموعة بيساريون تضم أثمن ما فيها.

ج- آل ميديشي ورعاة الأدب الآخرون.

كان القصر الفخم لآل ميديشي يجمع كل يوم في عصر النهضة أكثر الناس معرفة في فيرنسا، حيث كانت تدور المناقشات الحية حول كل ما يتعلق بسوق الكتب من جديد وحيث كان يسجل باهتمام كل اكتشاف جديد لأحد المخطوطات القديمة. وهكذا كان قصر آل ميديشي أفضل مكان في أوربا آنذاك للحصول بسرعة على أفضل المعلومات المتعلقة باكتشاف مخطوط ما أو نسخ مخطوط آخر أو عن الفنانين الذين يزينون هذه المخطوطات ثم عن أسعار المخطوطات وما شابه ذلك. وفي هذا المكان كانت تتخذ القرارات بإرسال المبعوثين إلى الشرق وإلى ألمانيا وغيرها للبحث عن المخطوطات. وقد وصل الأمر بنيقولو نيقولي الذي كان يتعاون بشكل وثيق مع كوزيمو دي ميديشي، أن يؤلف رسالة يشرح فيها كيفية البحث عن المخطوطات في مكتبات الأديرة في ألمانيا.

كان آل ميديشي يساعدون بإخلاص العلماء والفنانين وينفقون المبالغ الطائلة في سبيل شراء المخطوطات النادرة وأصبحوا مثلا في ذلك لحكام إيطاليا والبلدان الأوربية الأخرى. ومن هؤلاء كان كوزيمو دي ميديشي (1389- 1464 م). أول نموذج متعلم ومتسع الصدر لرعاة الأدب والعلم في

عصر النهضة. كان يشتري الكتب ويهديها إلى الكثير من المكتبات. وبالإضافة إلى اهتمامه الدائم بمكتبة القديس مرقس بفيرنسا فقد كان يهدي الكتب أيضا إلى دير البنديكتين في جزيرة سان جورجو ماجورة في البندقية. وكان كوزيمو قد أرسل هناك سنة 1433 م المهندس ميكيلوزو ميكيلوزي ليبني مكتبة رائعة اعترافا منه بالشكر لرهبان الدير الذين أحسنوا وفادته حين حل لديهم لاجئا. وكان كوزيمو يحيط به المتعلمون، وهو الذي أسس أكاديمية أفلاطون، وأوصى على ترجمة أعمال أرسطو، وتبرع لبناء مكتبة دير القديس مرقس في فيرنسا، وترك في قصره مكتبة غنية تحولت في عهد أحفاده إلى واحدة من أغنى المكتبات في أوربا خلال عصر النهضة.

وقد أصبحت رعاية العلم والأدب في عهد حفيده لورنسو (1449- 1492م) سياسة رسمية للدولة وتعبيرا عن الجهود المخلصة لدفع العلم والفنون إلى الأمام. وكان لورنسو نفسه يكتب الشعر ويشارك في المناقشات الفلسفية والعلمية التي كانت تدور كل يوم في قصره الفخم. وقد كان من بين ضيوفه الدائمين العلامة بيكو ديلا ميراندولا والفيلسوف الأفلاطوني مارسيليو فيشينو والشاعر المعروف أنجيلو بوليسانو والرسام ميكيل أنجلو وغيرهم. وكانت مكتبته الخاصة تعتني باستمرار بالمخطوطات التي كان يوصي عليها من كل أرجاء أوربا وبشرائه لمكتبات خاصة بكاملها. وقد ترك مكتبته الخاصة إلى اليوناني إيفان لاسكاريس الذي شاهدناه سابقا وهو يطوف في بيزنطة وإيطاليا بحثا عن المخطوطات. وقد كان لورنسو بتسامحه الذي ينسجم مع المثل العليا لعصر النهضة يسمح لأصدقائه بأن يستفيدوا من مكتبته وأن يستعيروا منها الكتب وهكذا نعرف مثلا أن بوليسانو في وقت من الأوقات كان يحتفظ بـ35 كتابا كان قد استعارها من هذه المكتبة.

لقد كان عهد لورنسو هو العهد الذهبي لهذه المكتبة المهمة من عصر النهضة. وكان يقصد هذه المكتبة كل يوم أشهر الشخصيات في عصر النهضة الإيطالية. ودون أن نخشى المبالغة يمكن أن نقول إن تاريخ الإنسانية لا يعرف إلا حالات نادرة من هذا النوع، كحالة مكتبة آل ميديشي، حيث ترتبط نهضة ثقافية لمرحلة بكاملها بمكتبة من المكتبات.

لقد دعيت هذه المكتبة بـ«مكتبة ميديشي» الخاصة لتميزها عن مكتبة القدير مرقص التي كانت تدعى أيضا «مكتبة ميديشي العامة». إلا أن هذه

المكتبة عايشت أياما عاصفة، وخاصة حين طرد آل ميديشي من فيرنسا خلال 1494 م. وقد نهبت المكتبة حينئذ ونقل فقط قسم من كتبها (9/10 كتاب) إلى مكتبة القديس مرقس. ولكن هنا أيضا كادت الكتب أن تنهب ثانية حين جاءت الجموع الغاضبة إلى الدير لتطالب برأس سافونا رولا. وفيما بعد قام الابن الأصغر للورنسو، جوفاني (البابا ليون العاشر لاحقا)، بنقل هذه الكتب إلى روما حيث وضعها في قصر ميديشي. ولكن بعد وفاته أعادها الكاردينال جوليو دي ميديشي (البابا كلمنت السابع لاحقا) إلى فيرنسا. وقد قرر الكاردينال حينئذ أن يؤمن مكانا أفضل لهذه الكتب ولذلك فقد كلف الفنان ميكل آنجلو أن يشيد في كنسية القديس لورنس، بالقرب من قصر آل ميديشي، قاعة خاصة لمكتبة تضم هذه الكتب. إلا أن ميكل آنجلو لم يضع فقط تصميم القاعة بل حتى التصاميم التي تصور الطاولات المائلة مع المقاعد المناسبة لهذه المكتبة. وقد عمل في تشييد وتزيين هذه المكتبة أفضل الفنانين والحرفيين في ذلك الوقت. ومن بين هؤلاء كان جورجو فاساري الذي شيد بالاستناد إلى تصميم ميكل آنجلو، الدرج المشهور الذي يقود إلى مدخل القاعة الرئيسية للمكتبة. وقد افتتحت هذه المكتبة أخيرا للجمهور سنة 1571م، وكانت تضم حينئذ ثلاثة آلاف من المخطوطات النادرة.

لقد اعتنت هذه المكتبة فيما بعد بالكتب المطبوعة بحيث إنها بقيت تحافظ إلى اليوم على مكانتها بين المكتبات العالمية. وهكذا نجد اليوم أن مكتبة ميديشي، أو «مكتبة لاورنزايانا» كما يسمونها، تضم أحد عشر ألف مخطوط وأربعة آلاف من الكتب المطبوعة القديمة وحوالي 55 ألف كتاب آخر.

وكان الأمراء الآخرون في عصر النهضة من إيطاليا والكرادلة وأغنياء ذلك العصر يتسابقون فيما بينهم للحصول على المخطوطات النادرة وتشييد المكتبات الفخمة وجذب أشهر الشعراء والفلاسفة والموسيقيين والفنانين إلى قصورهم. ففي فيرنسا بالذات كان لأسرة ستورزي مكتبة غنية تضم مؤلفات كل الكتاب القدماء بالإضافة إلى مؤلفات عصر الإحياء حينئذ. وقد أمر بالادي نوفري ستورزي سنة 1431 م بوضع سجل لمكتبة، حيث يتضح أنها كانت تضم 400 مخطوط كان قد أخذ بعضها من القسطنطينية.

وقد كان هذا يرغب في وضع مكتبته في كنيسة سانتا ترنيتا إلا أن طرده من فيرنسا أعاق هذه الفكرة.

وفي مدينة أوربينو تمكن الدوق فدريكو مونتلفترو (1422- 1482 م)، وهو من المتعلقين الكبار بالكتب المخطوطة والمطبوعة، من تكوين إحدى أهم المكتبات في عصر النهضة وذلك بعد أن خصص قاعة ضخمة في قصره لأجل هذه المكتبة. وكان الدوق فدريكو قد كون هذه المكتبة بالعلم والتنظيم: فقد أوصى على فهارس بعض المكتبات المهمة في ذلك الوقت (مكتبة مارسيانا في فيرنسا ومكتبة الفاتيكان الخ)، وشغل لديه (30- 40) ناسخا لينسخوا له المخطوطات في أوربينو وفيرنسا، وطلب بعض المخطوطات من فسبازيانو دي بيستيشي، وكلف الرسامين بتزيين المخطوطات بلوحات ثمينة. وقد حفظت إلى اليوم القاعة التي كانت تضم هذه المكتبة، إلا أنها لم تعد تضم تلك الكتب التي جمعها الدوق فدريكو وأحفاده. ففي سنة 1658م قام البابا ألكسندر السابع بشراء هذه المكتبة ونقلها إلى مكتبة الفاتيكان، حيث تحفظ إلى اليوم بشكل مستقل.

وفيما يتعلق بمكتبة الدوق فدريكو فقد كتب فسبازيانو دي بستيشي في سيرة حياته المعروفة أن مكتبته كانت تتألف من أجمل الكتب المخطوطة فقط لأنه كان يخجل أن تضم مكتبته كتابا مطبوعا. وفي الواقع لم يكن الدوق فدريكو وحده هو الذي يقدر المخطوطات الممتازة والثمينة، المزينة بالرسوم والمجلدة بشكل فاخر، أكثر من الكتب المطبوعة في ذلك الوقت إذ أنه كان هناك الكثيرون أيضا ممن يؤمنون مثله بقيمة الكتاب المخطوط أكثر من الكتاب المطبوع.

وقد قام أيضا دومينيكو مالاتستا توفيبلو سنة 1452 م بتشييد مكتبة رائعة في بلدة سيزينا، التي تقع في إيطاليا الشمالية بين مدينتي رافينا وفورلياس. وقد سعت أيضا أسرة مالاتستا إلى تزويد المكتبة بالمخطوطات القيمة وإلى السماح للآخرين بالاستفادة من هذه المكتبة انسجاما مع المثل العليا لعصر النهضة. وقد بقي بناء هذه المكتبة إلى هذا اليوم، وهو يعتبر من أجمل الأبنية التي بنيت في إيطاليا خلال عصر النهضة.

وبالإضافة إلى هذا فقد لجأ الكثير من أمراء إيطاليا إلى تشييد مكتبات فخمة وتكوين مجموعات قيمة من الكتب. وهكذا فقد كان لآل أسته في

فرارا وآل غونزاغا في متانتوفا وآل فيسكونتي وسفورزا في بافيا وآل أراغواني في نابولي، وغيرهم من الأمراء والحكام والكرادلة والتجار والعلماء والفلاسفة مكتباتهم الخاصة الكبيرة أو الصغيرة. وقد كون البعض منهم المكتبة بسبب اهتمامه الحقيقي بالأدب والعلم، بينما كان البعض الآخر يجمع الكتب القيمة ويكون المكتبات الفخمة للتعبير عن المركز الاجتماعي أو بسبب الهواية فقط. وبغض النظر عن الدوافع، التي دفعت الأسر الحاكمة والأفراد إلى جمع الكتب، فقد كان كل هؤلاء يشاركون في خلق الجو الثقافي الذي استرد فيه الكتاب مكانته بعد عدة قرون من المعاناة واللامبالاة.

وهكذا فإن الحرص على تأسيس مكتبة عامة كبيرة في فينيسيا لم يرتبط بالأفراد كما كان الحال في عدة مدن إيطالية أخرى، بل بالمدينة نفسها. ونظرا لصلاتها الكثيفة مع الشرق فقد كان من المسلم به أن تمارس هذه المدينة دورا مهما في إنتاج الكتاب والاتجار به. فقد كانت أكثر الكتب اليونانية القادمة إلى إيطاليا من مناطق الإمبراطورية البيزنطية، تأتي عبر هذه المدينة بالذات بينما أصبحت فينيسيا أيضا مركزا لـ«الفن الأسود» في أوربا حين انتقلت مهنة الطباعة من ألمانيا إلى إيطاليا. وقد رأينا سابقا كيف أن بترارك ذهب إلى أن فينيسيا بالذات أفضل مدينة لاحتواء مكتبة عامة.. وقد كان من هذا الرأي أيضا الكاردينال بساريون، الذي كتب سنة 1468 م إلى الدوق كريستوفر موري ليوصي له بترك مجموعته الغنية من المخطوطات إلى هذه المدينة. وقد كانت هذه المجموعة من الكتب بالذات، وبشكل خاص تلك التي كانت تضم النصوص اليونانية، ذات أهمية كبيرة حين بوشر في إعداد المؤلفات اليونانية القديمة للطباعة حيث حقق ابن فينيسيا الطابع ألدو مانوسيو شهرة كبيرة للغاية. وقد ردت فينيسيا الدين إلى بساريون سنة 1553 م حين بنيت مكتبة ضخمة قرب قصر الدوق حسب تصاميم المهندس المعروف جاكوبو سانسوفينو. وقد قام حينئذ بتزيين هذه المكتبة أشهر الفنانين في ذلك الوقت كفيرونيزيه وتسيانو وأندريا ميدوليتشي وغيرهم. وقد بقيت هذه المكتبة، «مكتبة مارسيانا» كما تدعى نسبة إلى كنيسة القديس مرقس التي تقع قربها، تحتفظ إلى اليوم بمجموعاتها القديمة من الكتب وهي تعتبر واحدة من أغنى المكتبات في إيطاليا.

وخلال عصر النهضة تميزت أيضا بمكانتها مكتبة البابوات في روما

(مكتبة الفاتيكان). وقد وجدت هذه المكتبة مع بعض الانقطاعات منذ العصر القديم، إلا أن المؤسس الحقيقي لها هو البابا نيقولا الخامس الذي ساعد باسمه الحقيقي (كوماسو بارنتوتشيلي) كوزيمودي ميديشي، على جمع الكتب لمكتبة القديس مرقس في فيرنسا. وقد كان هذا، وحتى قبل أن يتبوأ مركزه الديني العالي، متأثرا بالمثل العليا لرجال الإحياء من فيرنسا، ومحاطا بالفنانين والمتعلمين. وقد جعل منه تسامحه وتشجيعه بالمال حتى لأولئك الذين لا يتفق معهم تماما، كـ بوجو براتشوليني على سبيل المثال، نموذجا لعصر النهضة. وقد بقي بعد أن وصل إلى قمة الهرم الديني يصرف المبالغ الطائلة في سبيل شراء المخطوطات الثمينة والنادرة أو في سبيل نسخها حين لا يمكن شراؤها. وهكذا فقد تمكن بعد فترة قصيرة أن يجمع حوالي ألف كتاب لمكتبة الفاتيكان الجديدة. وقد كان هذا البابا يحلم بمكتبة ضخمة تكون لها في عصره أهمية مكتبة الإسكندرية بالنسبة للعصر القديم، ولذلك فقد خطط لبناء مقر ضخم لهذه المكتبة ومع أنه لم يتمكن من تنفيذ كل خططه خلال وجوده على قيد الحياة، إلا أن خلفاءه استمروا في الإنفاق بكرم على هذه المكتبة. أما في عهد البابا سكستو الرابع (1471- 1484م) فقد بنى لهذه المكتبة قاعات خاصة بها في الطابق الأرضي لقصر البابا نيقولا الخامس. وقد شارك حينئذ في تزيين هذه المكتبة أشهر الفنانين في ذلك الوقت كـ دمينيكو ودافيد غير لاندايو وميلوكو دافورلي و ا. رومانو. وبعد قرن من الزمن قام البابا سيكستو الخامس خلال (1587- 1589م) بتشييد مقر ضخم لهذه المكتبة وقد أصبحت هذه بسرعة أهم مكتبة في العالم نتيجة لجهود البابوات والهدايا الكثيرة التي كانت تصل إليها من العالم المسيحي وغير المسيحي أيضا. وفي هذه الأيام لا تزال هذه المكتبة تعتبر من أغنى المكتبات في العالم من حيث أهمية المخطوطات النادرة والكتب المطبوعة وليس من حيث عدد الكتب فيها. وهكذا نجد اليوم في هذه المكتبة 60 ألف مخطوط و 7 آلاف من الكتب القديمة المطبوعة وأكثر من مليون كتاب بالإضافة إلى عدد كبير من الخرائط الجغرافية القديمة والمواد الأخرى القيمة.

وكان البابا سيكستو الرابع، تحت تأثير الأفكار التي أعلنها رجال الإحياء، قد حدد بشكل واضح في إحدى الوثائق أن «المكتبة يجب أن تكون مفتوحة

لكل الناس المتعلمين في عصرنا وفي العصور اللاحقة». وفي ذلك العصر كان بوسع الناس المتعلمين استعارة المخطوطات والكتب النادرة بالإضافة إلى الاستفادة مما هو موجود داخل المكتبة ويدلنا على هذا، القوائم الطويلة للاستعارة التي يرد فيها أسماء المستعيرين وعناوين الكتب المستعارة مع تواريخ استعارة الكتب وتواريخ إعادتها. ومن المثير هنا أن بعض الأفراد كان يسمح لهم حتى باستعارة الكتب المربوطة بالسلاسل إلى الطاولات المائلة.

د-مكتبات عصر النهضة في البلدان الأخرى.

لم تكن إيطاليا تتفرد بكونها البلد الوحيد الذي كان فيه الحكام والأغنياء يجمعون الكتب ويكونون المكتبات الخاصة. ففي ألمانيا وفرنسا وغيرها من البلدان تأثر الحكام وهواة جمع الكتب بالحركة التي بدأها رجال الإحياء في إيطاليا. ومن بين هؤلاء فقد اشتهر بشكل خاص الملك الكرواتي-الهنغاري ماتياش كورفين (1445- 1490م)، الذي كان يقلد الأمراء الإيطاليين في كل شيء حتى في جذب الشعراء والفلاسفة والفنانين إلى قصره وجمع المخطوطات القيمة. وكان بين أولئك الذين مارسوا دورا مهما في قصره الأسقف والدبلوماسي فيتز من سردنا والشاعر المعروف إيفان تشاسميتشكي. وقد كان لزوجته أيضا، الأميرة بياتريتشه من أسرة أراغونا في نابولي، دور مهم في خلق جو عصر النهضة في قصر هذا الملك إذ أنها كانت تحاول أن تجعل قصر بودا(*1) شبيها بفخامته وتألقه قصور الحكام في إيطاليا. وكما كان الأمر مع آل ميدتشي وبقية الأمراء في إيطاليا فقد أرسل الملك ماتياش أيضا مبعوثيه إلى بلدان أوربا المختلفة، وخاصة إلى إيطاليا، للبحث عن الكتب النادرة. وكانت فيرنسا بشكل خاص هي المركز الرئيسي لتأمين ما يحتاجه هذا الملك، وخاصة لدى فسبازيانو بستيشي. وكان الملك كورفين يطلب الكتب من مختلف مجالات العلم ومؤلفات الكتاب الكلاسيكيين وما شابه ذلك، وقد أسس في قصره مكتبة دعيت باسم «كورفينا» (نسبة إلى الملك) واشتهرت بسرعة في كافة أرجاء أوربا. وكان هذا الملك يوصي بتجليد الكتب على نحو خاص اشتهرت بذلك في عصر النهضة. وكان يوصي بتزيين الكثير من هذه الكتب بلوحات رائعة، ومن

(*1) بودا: الاسم القديم لبودابست. (المترجم).

أشهر الفنانين الذين عملوا في تزيين هذه الكتب الفنان والمؤرخ والدبلوماسي الراغوصي فيلكس بيتانتشيتش.

وفيما يتعلق بهذه المكتبة فنحن لا نعرف الرقم الصحيح لعدد الكتب فيها. وحسب بعض المصادر فإن هذه المكتبة كانت تضم 50 ألف كتاب حين كان الملك كورفين على قيد الحياة، إلا أنه يعتقد بشكل عام أن هذا الرقم مبالغ فيه.

وللأسف فإن خلفاء الملك كورفين المشغولين بالحروب الداخلية لم يهتموا كثيرا بتطوير هذه المكتبة. وهكذا فقد ذهبت الكثير من الكتب القيمة إلى أيدي آل ميديشي وإلى «مكتبة مارسيانا» في فينيسيا، ثم إلى فيينا وبقية المدن في أوربا بحيث لم يبق في هذه المكتبة إلا القليل من الكتب للأتراك العثمانيين الذين تغلغلوا في بودا بعد انتصارهم في موهاتش سنة 1526م. وقد تمكن خبراء تاريخ الكتاب والمكتبات بجهد كبير أن يجدوا بعض كتب هذه المكتبة الشهيرة: 156 كتابا متنوعا في حوالي أربعين مكتبة منتشرة في مختلف أرجاء أوربا.

ومن بين المخطوطات التي أخذها الأتراك العثمانيون معهم إلى استنبول، بالإضافة إلى الأشياء الأخرى القيمة، لدينا نسخة كرواتية بالحروف الغلاغولية(2*) لكتاب القداس، وهي النسخة المعروفة باسم «قداس هرفويه» التي زينت بالرسوم على نحو رائع والتي تعود كتابتها إلى بداية القرن الخامس عشر الميلادي. وقد بقيت هذه النسخة في كنوز السلاطين في استنبول، حيث لا تزال محفوظة هناك إلى اليوم.

لقد كان رجال الإحياء والحكام وأصحاب المصارف الألمان والهولنديون والفرنسيون وغيرهم يحاولون تقليد الإيطاليين خاصة في تجميع الكتب النادرة والمزينة بشكل فخم. وقد سافر الكثير من الناس المتعلمين من هذه البلدان إلى إيطاليا، وبقي البعض منهم في إيطاليا نظرا لأن المحيط الروحي الحي السائد هناك كان يغريهم بالبقاء. وهكذا فقد كان رجال الإحياء من كل أوربا يجدون غذاءهم الروحي في إيطاليا، وبشكل خاص في فيرنسا وروما وفينيسيا، حيث كانوا يشعرون بالتواصل مع العصر القديم أكثر من أي مكان آخر في الغرب. ففي مراكز الثقافة والفن الإيطالية كان يمكن لهم

(*1) بودا: الاسم القديم لبودابست. (المترجم).

أن يصلوا بسرعة إلى المعلومات التي تتعلق باكتشاف آثار الكتاب القدماء والكتب التي تصل من بيزنطة. ومن هؤلاء مثلا كان أرازمو روتردام (1467-1536م) الذي جاء إلى إيطاليا لإتقان اللغة اليونانية وبقي ثمانية شهور (1508م) ضيفا على رجل الإحياء ورجل الطباعة الدومانوسي في فينيسيا،

الطاولات المائلة التي كانت توضع عليها الكتب في مكتبة ميدتشي (لاورريزيانا) في فيرنسا، والرسم لميكيلل إنجلو.

الذي كان يصدر في ذلك الوقت بالذات بعض أعمال الكتاب الكلاسيكيين اليونانيين في لغتها الأصلية. ومن هؤلاء أيضا يوهانس روتشلين ونيقولا كوزانسكي وغيرهم الذين تأثروا بدورهم خلال تجولهم في إيطاليا وخلال اتصالهم برجال الإحياء هناك، وقد تمكن بعض هؤلاء، كارازمو روتردام على سبيل المثال، أن يتفوقوا بعلمهم على معاصريهم الإيطاليين. وبعد أن أخذ غوتنبرغ بإصدار الكتب بالطريقة الجديدة أصبحت ألمانيا الآن من أكبر المنتجين للكتاب. وقد برزت هنا المكتبات في كافة أرجاء البلاد بشكل مواز لبروز رعاة الأدب والعلم الذين أنفقوا كل ثرواتهم في شراء الكتب وتشييد المكتبات. ومن هؤلاء نجد أن أسرة فوغر من أوغسبرغ، التي تتعاطى الأعمال المصرفية، وقد اشترت مكتبات بكاملها في ألمانيا (كمكتبة هارتمان

شيدل الغنية بالمخطوطات) وإيطاليا وكونت واحدة من أكبر وأغنى المكتبات في عصر النهضة. وفي هذه المدينة البافارية أيضا قام بتكوين مكتبته القيمة رجل الإحياء كونراد بيوتنغر (1465- 1547م)، الذي قام أيضا بجمع بعض المؤلفات التاريخية من العصر الوسيط بغرض دراستها وإعدادها للطبع. وهكذا فقد أصدر مثلا «تاريخ اللونغوبارديين» لـ بال جاكون و«تاريخ القوط» لـ يوردانيس الخ. وقد حقق هذا شهرة عالمية حين اشترى نسخة من دليل السفر الروماني المعروف. التي دونت خلال القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بالاستناد إلى الأصل الذي يعود إلى القرن الثالث الميلادي على ما يبدو، وهي التي كانت قد اكتشفت في دير تيفيرنس البنيديكتي ثم دعيت باسمه.

أما في نورنبرغ فقد جمع رجل الإحياء قيليبالد بركايمر أهم مجموعة من المخطوطات اليونانية. وحسب التقليد الذي شاع حينئذ بين هواة جمع الكتب فقد كلف بركايمر سنة 1503 م ألبرت دورير بوضع إشارة خاصة على كتبه. وفي هذه الإشارة، التي ترمز إلى المالك، نجد عبارة تعبر عن الدافع لعمله هذا «لأجلي ولأجل الأصدقاء» التي عبر فيها بوضوح عن نظرته الإحيائية لمكان ودور مكتبته الخاصة في الوسط الذي يعيش فيه.

وقد قام الكثير من رجال الإحياء في ألمانيا بالبحث عن المخطوطات القديمة ودراستها ونسخها بكل حماس ثم أخذوا بإصدارها بعد اختراع غوتنبرغ. وهكذا فقد اكتشف بياتوس زينانوس (1485- 1547م) في دير مورباخ نسخة من «تاريخ الرومان» لـ ف. باتركول، بينما تمكن الآخرون من اكتشاف الكثيرون المؤلفات التاريخية والأدبية للعصر الوسيط في مكتبات الأديرة والكنائس، التي أثارت حينئذ اهتمام أوساط المتعلمين. وبهذه الاكتشافات لمؤلفات العصر الوسيط فقد تمكن هؤلاء من إنقاذ هذا التراث الذي لم يكن يثير حينئذ اهتمام رجال الإحياء في إيطاليا، ولكنه كان على قدر كبير من الأهمية لدراسة العصر الوسيط.

إن هذا الاهتمام بالمخطوطات القديمة ودراستها ونسخها وطبعها شمل فرنسا أيضا ولو بشكل متأخر قليلا. فقد قام كثير من رجال الإحياء الفرنسيين بنقل أفكار حركة الإحياء الإيطالية إلى بلادهم، ومن هؤلاء لا بد أن نخص بالذكر غيوم بوبيه (1468- 1540م) وكان مما ساهم في هذا

أيضا الحملات العسكرية للملوك الفرنسيين على إيطاليا. فقد اصطحب كارل السابع ولويس الثاني عشر بعد عودتهما من حملاتهما العسكرية في إيطاليا، مقتنيات فنية ومكتبات بكاملها بالإضافة إلى فنانين ومعلمين للغة اليونانية وغير ذلك، ولذلك فقد برزت في فرنسا بسرعة أدمغة متنورة ومتأثرة بالمثل العليا لحركة الإحياء. ومن هؤلاء يكفي أن نذكر الكاتب الساخر الممتاز فرانسوا رابليه، والفيلسوف والكاتب الكبير ميشيل أكيوم دي مونتين وغيرهم. وفي هذه الأثناء أصبح بلاط الملوك الفرنسيين على نمط أولئك الإيطاليين، أي مركزا لنشاط ثقافي حي. وفي هذا البلاط أيضا جرى جمع المخطوطات النادرة والكتب المطبوعة. وهكذا فقد قام لويس الثاني عشر بإغناء مكتبة البلاط، التي كانت تقع حينئذ في حصن بلوا على فهر اللوار، بالكتب التي تخص بترارك والتي وجدها في فينيسيا، ثم أضاف إليها مكتبة أدواق فيسكونتي وسفورسا من بافيا. وكان يعمل في بلاطه أشهر الرسامين لتزيين الكتب بينما كانت زوجته، آن دي بريتاني، تشرف بشكل مباشر على المكتبة إذ أنها كانت هاوية متحمسة لجمع الكتب. أما المكتبة الملكية الأخرى فقد أسسها سنة 1518 الملك فرانسوا الأول، الذي حكم خلال (1515- 1547م). وقد كان هذا من رعاة الأدب والعلم ومن هواة الفن والكتاب ولذلك فقد جعل مكتبته في فونتينيبلو واحدة من أهم المكتبات في فرنسا. وقد انضمت إلى هذه المكتبة سنة 1544م مكتبة بلوا مما شكل الآن المكتبة الملكية المعروفة التي نقلت إلى باريس سنة 1567م. وقد دخل هذا الملك الفرنسي في تاريخ الكتاب والمكتبات نظرا للقرار الذي اتخذه باسم «النسخة الإلزامية»، الذي يلزم فيه أصحاب المطابع بأن يرسلوا نسخة من كل كتاب يطبعوه إلى المكتبة الملكية. وفي الواقع أن الهدف من هذا القرار لم يكن فقط تأمين وصول الكتب إلى المكتبة الملكية بل تأمين رقابة الدولة أيضا على كل ما يصدر من كتب. إلا أن هذه «النسخة الإلزامية»، التي دعيت هكذا أولا في المكتبة الملكية ثم انتشرت التسمية في بقية المكتبات وبقية البلدان، قد ساهمت على كل حال في إغناء مكتبات الملوك والأمراء ومكتبات الدولة بشكل واضح.

وفي إنكلترا أيضا أثرت حركة الإحياء الإيطالية بشكل قوي في الحياة الروحية. وكان ريغشارد دي بوري يشتري الكتب بحماس كبير في إيطاليا

منذ القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أن عدد الإنكليز المتأثرين بمصادر حركة الإحياء الإيطالية، والأوربية بشكل عام، قد زاد كثيرا خلال القرن الخامس عشر الميلادي وزاد معه شراء مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين ومؤلفات رجال الإحياء الإيطاليين. وقد عمد الكثير من هؤلاء إلى السفر باتجاه إيطاليا ومن هؤلاء كان جون تيبتوفت، دوق ورستر (1427- 1470م) الذي ذهب إلى فيرنسا لتعلم اليونانية وعاد إلى بلاده محملا بالكتب التي اشتراها لدى فسبازيانودي بستيشي. ومن هؤلاء أيضا همفري دوق غلوسستر (1391 - 1447 م)، الذي كان من المتحمسين للمثل العليا لحركة الإحياء. وقد كان هذا يترجم عن اليونانية وينفق الكثير لمساعدة الناس المتعلمين في عصره. وكان قد طلب الكثير من الكتب من إيطاليا لمكتبته الخاصة، ثم أهدى بعض كتبه إلى المكتبة الجامعية في أوكسفورد.

ذ- كتب ومكتبات رجال الإحياء في كرواتيا

وصل تأثير حركة الإحياء إلى مدن كرواتيا بكل قوته، سواء تلك المنتشرة على ساحل البحر الأدرياتيكي أو الممتدة داخل البلاد، وهكذا فقد أخذ الأفراد هنا أيضا، وليس فقط الأديرة والكنائس، في جمع الكتب وتكوين المكتبات القيمة. إلا أن الكثير من هذه المكتبات القيمة بقيت للأسف خارج البلاد، وبالتحديد في المدن التي عاش وعمل فيها رجال الإحياء من كرواتيا، ومن هؤلاء أسقف سني نيقولا مودرشكي (حوالي 1427- 1480م) الذي كان كاتبا غزير الإنتاج (طبع أقدم كتاب مؤلف من قبل كاتب كرواتي وهو يتضمن خطبة بمناسبة وفاة الكاردينال ر. رياريا سنة 1474م). وكان هذا على صلة وثيقة بأوساط حركة الإحياء في إيطاليا وتمكن من جمع مجموعة غنية جدا من المخطوطات التي تركها حسب وصيته لدير سانتا ماريا في روما ومن هذه المكتبة لم يبق إلا ثمانين مخطوطا وهي محفوظة اليوم في «مكتبة أنفليكا» في روما.

وقد تمكن الكاردينال الراغوصي إيفان ستويكو فيتش، الذي مر معنا سابقا، من تكوين مكتبة قيمة أخرى. وهناك أيضا مكتبة مهمة تمكن من تكوينها رئيس الأساقفة إيفان فيتيز من سردنا (حوالي 1405- 1472م). الذي أصبح بعد ذهابه إلى بلاط الملك الهنغاري-الكرواتي ماتياش كورفين شخصية

مركزية في وسط رجال الإحياء المحيطين بالملك. وقد بقيت هذه المكتبة خارج البلاد أيضا، في هنغاريا.

ولدينا في سبليت مكتبة لأهم رجال الإحياء فيها، ماركو ماروليتش (1450- 1524م)، التي وصفها لنا باستفاضة في وصيته. وهكذا بالإضافة إلى الكتب الدينية تجد في هذه المكتبة مؤلفات شعرية وتاريخية وجغرافية وفلكية ورياضية الخ. وبالاستناد إلى القائمة الواردة في وصيته فقد كان ماروليتش يحتفظ في مكتبته بمؤلفات فرجيل وهوراس ويوفينال وليفي وهيرودت وبلوتارك وبلين وأفلاطون وشيشرون وغيرهم، بالإضافة إلى مؤلفات الكتاب المعاصرين كـ بوجو براتشوليني ولورنسو فالاس ومارين بارلتيي وغيرهم التي تصل إلى200 مؤلف. وبالنسبة إلى ذلك الوقت فإن هذه المكتبة لم تكن كبيرة وحسب بل وشاملة في موضوعاتها. وللأسف فإن هذه المكتبة لم تحتفظ بكليتها لأن مارولتيشي كان قد أوصى بتوزيعها على أخته بيرا وأخيه ألكسندر وعدد من أصدقائه وبعض الأديرة، بينما أوصى ببيع قسم منها وتوزيع ثمنه على الفقراء. وحتى اليوم لم يتم العثور إلا على آثار بعض الكتب التي يمكن بالتأكيد إعادتها إلى الأصل الذي جاءت منه، أي مكتبة ماروليتش.

البابا سكست الرابع يزور مكتبة الفاتيكان: لوحة جدارية في مستشفى «سانتو سبيرتو» بروما.

وعلى حد معلوماتنا فإن هذه المكتبة كانت من أكبر المكتبات الخاصة في كرواتيا، أي أنها لم تكن الوحيدة في ذلك الوقت. ففي سبليت بالذات كان يوجد مجموعة من رجال الإحياء تمارس المواد المتعلقة بالعصر القديم وتكتب الأشعار والأعمال التاريخية في اللاتينية والكرواتية. وكان هؤلاء يسافرون إلى إيطاليا وغيرها من البلدان الأوربية ويعودون محملين بالكتب مما كان يمكنهم من تكوين مكتباتهم الخاصة ويمكن لنا الآن بالاستناد إلى موضوعات هذه المكتبات أن نقيم اهتماماتهم الثقافية وأن نتعرف على الجو الثقافي الذي كان يسود حينئذ في مدن الساحل الأدرياتيكي.

وقد كان أصحاب هذه المكتبات الخاصة على ما نعرف يعيرون كتبهم بكل حماس إلى مواطنيهم انسجاما مع المثل العليا لحركة الإحياء. ومن هذه المكتبات الخاصة، التي لا نعرف عنها للأسف إلا القليل، كانت هناك واحدة للدبلوماسي والكاتب توما نيفر وواحدة أخرى لأسرة بابالتيش الفنية التي كانت تحتفظ في بيتها بمتحف كامل من الآثار الحجرية للعصر القديم.

وإلى جانب سبليت كانت هناك مكتبات قيمة في المدن الأخرى كزادار وهفار وخاصة في دوبروفنيك (راغوصة). وقد كان الشعراء والأطباء والتجار ورجال الدين وغيرهم يشترون الكتب ويكونون المكتبات القيمة ويهتمون بآثار العصر القديم التي كانت تبعث الاحترام في نفوس الناس المتعلمين، كما كانوا يؤلفون وينشرون أعمالهم الأدبية. وفي هذا المضمار كان أهالي دوبرفينك يتفوقون على غيرهم نظرا للصلات المتطورة التي كانت تربط دوبرفينك مع إيطاليا المجاورة ومع البلدان المتوسطية الأخرى. وبفضل هذه الصلات فقد كان أهالي دوبروفينك يطلعون على ما يجري في المجال الثقافي والعلمي ويشاركون في المسارات الثقافية آنذاك في أوربا. وهكذا لا نجد في دوبروفينك المكتبات الخاصة فقط بل الأفكار التي تدعو أيضا الحد أن يكون الكتاب في متناول الجمهور. وذلك لم يكن من النادر أن يوصي الأفراد بكتبهم إلى المدينة أو الأديرة بشرط أن تكون في متناول الجمهور. ومن هؤلاء نجد أن نيقولا ميهوفيل بارنيو ترك سنة (1527م) كتبه إلى البلدية مشترطا أن تكون في متناول الجمهور «على شرف الوطن ولفائدة شباب دوبروفينك ولتعزية المسني». أما أسقف تريبنيه يو راي كروجيتش فقد ترك كتبه الـ300 إلى دير الدومينيكان ودير الفرنسيسكان لأنه كان

يعرف أن كتبه هناك في متناول كل الناس المتعلمين في دوبروفينك.

وفي هذه المدينة المهمة للغاية كانت مكتبة دير الدومينيكان ومكتبة دير الفرنسيسكان من أهم المكتبات لفترة من الوقت لأنها كانت مفتوحة للمواطنين. ولذلك لا يفاجئنا هنا قرار مجلس المدينة سنة 1501م الذي ينص على تأمين مبلغ من المال لبناء قاعة خاصة للكتب في دير الدومينيكان لتكون «فخرا للدير المذكور وتعزية للمواطنين وللأجانب الذين يتوقفون في مدينتنا». وقد كانت هناك مكتبات أخرى في كنيسة ستون وغيرها من الكنائس وفي مدرسة دوبروفنيك الإحيائية خلال القرن الخامس عشر للميلاد. وحول هذه الأخيرة لدينا ما ورد في وصف دي ديفرسيس لمدينة دوبروفينك حيث يذكر أنه في الطابق الأخير لبناء المدرسة «منبر كبير وعال للأستاذة، مزين بالخشب المحفور، وحوله تحفظ الكتب في أربع خزائن قابلة للإغلاق».

ر- عدد الكتب في مكتبات عصر النهضة

كان من المهم بالنسبة لهواة جمع الكتب، كالأمراء والمصرفيين والأدواق وغيرهم، أن يكون لديهم في المكتبات مخطوطات نادرة وغالية من أن يجمعوا الكتب المطبوعة العادية التي يمكن أن يشتريها أي شخص بمبلغ بسيط. ومن هنا فقد كانت أهم مكتبات الحكام وهواة جمع الكتب في عصر النهضة مشهورة بسبب هذه المخطوطات النادرة التي كان يزينها أشهر الفنانين والتي كان يجلدها أفضل المجلدين. ولذلك فإن هواة جمع الكتب من الأغنياء لم يهتموا في البداية بالطباعة بل كانوا يشجعون بطلباتهم ورش النسخ والرسم التي بقيت تعمل فترة طويلة بعد اختراع غوتنبرغ لصالح أولئك الأغنياء.

إلا أن الطباعة استفاد منها فورا رجال الإحياء وطلاب الجامعات الكثيرة والشريحة المتعلمة من سكان المدينة، وكل أولئك الذين كانوا لا يملكون المال الكافي لشراء المخطوطات الغالية، والذين كانوا لا يحتاجون إلى الكتاب للتعبير عن مركزهم الاجتماعي. وهكذا فقد كانت لدينا مكتبات تضم مخطوطات غالية، وهي في هذه الحالة لم تكن تضم عددا كبيرا من الكتب نظرا للثمن المرتفع لكل مخطوطة من هذا النوع. أما في الجانب الآخر فقد

كانت لدينا شرائح جديدة من القراء لا تملك المال الكافي لتكوين مجموعات من الكتب الغالية ولا تقتنع أصلا بحاجتها لذلك. ومن هنا لا نستغرب أن نجد أن المكتبات كانت صغيرة نسبيا سواء لدى الفئة الأولى أو لدى الفئة الثانية.

وينطبق هذا بشكل خاص على القرن الخامس عشر الميلادي، وإلى حد ما على القرون اللاحقة كما سيتضح معنا لاحقا.

لقد مر معنا أن أهم المكتبات في عصر النهضة تعود إلى نيقولو نيقولي التي كانت تضم حوالي 800 كتاب، وأن مكتبة الفاتيكان التي كونها البابا نيقولا الخامس بعد أن أنفق في سبيلها مبالغ طائلة لم تكن تضم حسب بعض المصادر أكثر من ألف كتاب. ولم تكن المكتبات الأخرى المعروفة لعصر النهضة تضم من الكتب أكثر من ذلك. وهكذا نجد أن فهرس مكتبة الأدواق في بافيا كان يضم سنة 1426م 988 مخطوطا، بينما كانت مكتبة أمراء أسته في فيرارا لا تضم سنة 1495م سوى 512 كتابا. وحتى المراكز الجامعية أيضا لم تكن تسمح لنفسها بهذا البذخ، أي أن تضم مكتباتها عددا كبيرا من الكتب. وهكذا نجد أن مكتبة جامعة كمبردج المعروفة كانت تضم سنة 1424م 122 كتابا فقط، وبعد خمسين سنة تقريبا أي مع انتشار الطباعة وصل هذا الرقم إلى 330 كتابا.

أما المكتبات الخاصة لرجال الإحياء فقد كانت أكثر تواضعا إذ كانت الواحدة لا تضم إلا بضع عشرات من المخطوطات. ومن بين هؤلاء كانت مكتبة بيكو ديلا ميراندولا (1463- 1494م)، أحد أعظم المثقفين في عصره، تعتبر استثناء في حد ذاتها إذ أنها كانت تضم 1186 كتابا.

ولكن بعد اختراع الطباعة، وخاصة منذ العقد السابع للقرن الخامس عشر الميلادي، ومع انتشار الكتب بعد ذلك أخذ عدد الكتب في المكتبات يزداد بسرعة. ولدينا أفضل مثل على هذا وهو مكتبة دير تيفرينس في بافاريا إذ أن فهرس المكتبة ضم سنة(1484م) 1103 كتاب، بينما ارتفع هذا العدد بعد عشر سنين إلى 1738 كتابا. وقد ارتفع عدد الكتب في مكتبات الملوك والأمراء والمكتبات الخاصة بسرعة أكبر خلال القرن السادس عشر الميلادي، بحيث لم يعد من المستغرب أن تضم مكتبة خاصة لأحد الأفراد العاديين عدة آلاف من الكتب.

ز- إصلاح الكتابة

إن هذا الفصل عن الكتاب والمكتبات في عصر الإحياء والنهضة لا يمكن أن يكتمل دون أن نتعرض إلى نقطة مهمة وهي الكتابة.

كان حماس رجال الإحياء للعصر القديم قد انعكس من ناحية أخرى في ازدرائهم للخطوط غير المقروءة «البربرية»، التي كانت تستعمل حينئذ في إيطاليا وفي بقية أنحاء أوربا. وكما في كل مجال آخر فقد كان رجال الإحياء يدعون في مجال الكتابة إلى إعادة الاعتبار للبساطة الكلاسيكية والكتابة المقروءة المدونة بشكل أنيق كما كانوا يجدونها في المخطوطات القديمة. ولم يكن الخط الذي يدعون إليه هو الروماني القديم بل ذلك الكارولي، أي ذلك الذي برز خلال النهضة الكارولية والذي بقي يستعمل في بعض أرجاء أوربا حتى القرن الحادي عشر. وكان رجال الإحياء يطلقون على هذا الخط تسمية «الخط القديم» (littera antiqua) ويعارضون به الخط القوطي (littera moderna)، وهو خط مثقل بالتزيينات غير الضرورية ومكثف ومدبب ومترابط إلى حد يصبح فيه غير مقروء. وقد انتقد هذا الخط لأول مرة وبكل قوة فرانشيسكو بترارك، الذي أدرك حينئذ أفضل من أي شخص آخر أنه لا بد أيضا من تغيير الخط لكي يتناسب مع العصر الجديد كالفن والعلم والحياة بشكل عام. وكان بترارك في كتاباته يتناول كثيرا مسألة الخط، إذ أنه كان من ناحية يوجه ملاحظاته إلى الخطوط المستعملة في عصره بينما كان من ناحية أخرى يدعو إلى إعادة الاعتبار إلى الخط القديم. وهكذا فقد كان بترارك ينتقد الخط غير المقروء الذي كان يستعمل في الجامعات قائلا إن «الحروف متداخلة كصف الفرسان حتى أن الكاتب نفسه لا يستطيع بعد مضي فترة من الوقت أن يقرأ ما كان قد كتبه بينما يكون القارئ قد ضمن لنفسه فقد البصر مع شرائه للكتاب» وقد عبر بترارك بوضوح عن موقفه من هذه المسألة في رسالة له سنة 1351 م «لقد تعودت عيوني على العصر القديم إلى حد أنها تكره كل خط حديث».

إلا أن بترارك نفسه لم يذهب إلى النهاية في رفضه للخط القوطي ووضعه للخط الجديد الذي يستند إلى الخط الكارولي بشكل مباشر، ولكن التجديدات التي أدخلها على شكل الحروف وجدت صدى مناسبا لها في فيرنسا على كل حال. وهكذا فقد تابع الطريق في هذا الحقل كولوتشو

سالوتاتي الذي وضع في نهاية القرن الرابع عشر خطا جديدا يعتمد على الخط الكارولي. إلا أن سالوتاتي بدوره لم يتمكن من التحرر تماما من بعض عناصر الخط القوطي الذي كان سائدا في ذلك الحين إلى حد أنه كان يستعمله أيضا في الأعمال الإدارية اليومية. أما في القرن الخامس عشر فقد تمكن أخيرا رجال الإحياء، بفضل نيقولو نيقولي وبوجو براتشوليني بشكل خاص، من التخلي تماما عن الخط القوطي ووضع خط جديد أصبح يسمى «الخط الإحيائي» (humanistica) وقد انتشر هذا الخط خلال عدة عقود في كافة أرجاء إيطاليا ثم في بقية أرجاء أوربا. إلا أن هذا الخط الجديد بقي يستعمل في البداية لكتابة بعض النصوص فقط، وبالتحديد لكتابة مؤلفات الكتاب القدماء ومؤلفات الكتاب المعاصرين من رجال الإحياء. وبعبارة أخرى فقد بقي الخط القوطي يستعمل لكتابة النصوص القانونية والطبية والدينية بشكل خاص حتى نهاية القرن الخامس عشر.

وفي الواقع أن اشتهار الخط الجديد، الإحيائي لم يكن يرتبط فقط بالرغبة في خط بسيط ومقروء بل كان يعكس بصدق المفاهيم الجمالية الجديدة للنهضة بالإضافة إلى الحاجة إلى تواصل أسرع. فقد كانت الحاجة تدعو إلى أن تكتب بخط يمكن أن يقرأه عدد كبير من القراء دون أي جهد ودون داع لمعرفة أربطة الحروف المعقدة. وفي الحقيقة لقد كانت هذه القضية راهنة بشكل خاص في بداية القرن الخامس عشر، أي حين ظهر الكتاب المطبوع الذي كان موجها إلى عدد أكبر بكثير من القراء بالمقارنة مع المخطوط. وبعبارة أخرى فقد أصبح الكتاب بثمنه وأعداده الكبيرة قريبا من تلك الشرائح الاجتماعية التي لم تتعود على قراءة الخطوط المعقدة التي كانت تستعمل في السابق.

المراجع

حول الكتاب والمكتبات بشكل عام خلال عصر الإحياء والنهضة انظر:

G. Avanzi, Libri, Librerie, biblioteche dell'Umanisimo e della Ri; nascenza, Roma1951,

Libri, scrittura e pubblico nel Rinascimenti, a cura di A. Petrucci; Roma-Bari 1979

C. Buhler, The Fifteenth Century Book, Philadelphia 1960 E. Ph;

Goldschmidt, The Printed Book of the Renaissance, Amsterdam 1974.

Das Verhaltnis der Humanisten zum Buch, Boppard 1977

وحول اكتشاف مؤلفات الكتاب القدماء في ذلك الوقت انظر:

R. Sabbadini, Le scoperte dei codici latini e greci nei secoli XIV e XV, I-II, Firene, 1905-1914.

وانظر أيضا:

R. Weiss, The Renaissance Discovery of Classical Antiquity, Ox-ford 1969.

وفيما يتعلق ببترارك وخاصة حول مكتبته انظر:

P. De Nolhac, Petrarch and the Ancient world, Boston 1907.

وحول فكرته لإنشاء مكتبة عامة في فينسيا انظر:

N. Vianello, I Libri del Petrarca e la prima idea di una publica biblioteca in Venizia, Miscellanea marciane di studi bessarionei, Padova 1976, p.435-451.

وحول المكتبة التي جمعها جوفاني بوكاشيو انظر:

E. Rostagno, Le Libreria del Boccaccio, Rivista delle biblioteche, 14(1903), p.93-94.

وحول مكتبة «مارسيانا» في فينيسيا انظر:

L. Labowsky, Bessarion's library and the biblioteca Marciana Roma 1979.

وفيما يتعلق بحياة نيقولو نيقولي ومكتبته التي افتتحت في دير القديس مرقس في فيرنسا لدينا دراسة جيدة جدا:

B. L. Ullman-Ph.A. Stadter, The Public Library of Renaissance Florence, Nicola Niccoli, Cosimo de'Medici and the Library of San Marco, Padova 1972.

وحول المكتبات خلال عصر الإحياء والنهضة لدينا مرآة عامة مع ببليوغرافيا مفصلة لدى:

A. Bomber, Von der renaissance bis zum Beginn der Aufklarung, Handbuch der Bibliothekswisswnschaft, 2. Aufl., Wiebaden 1955, Bd. III, 1, p.499, 505-559.

وحول المكتبات الأخرى في ذلك الوقت انظر:

F. Pintor, Per la Storia della libreria Medicia del Rinascmento, Firenze 1904;

J. Hilgers, Zur Bibliothek Nikolas V. Zeitschrift fur Bibliothekswesen,19(1902), p.1-11;

P. Kipre, The Library of Pico della Mirandola, New York 1936;

C. Cspodi, The Corvinian Library Budapest 1973.

وحول مكتبات الأديرة الكرواتية انظر:

N. Zic, Knjiznica Modruskog biskopa Nikole, Nastavni vjesnik, 41 (1932- 1933), p.336-347.

W. Frankoni, Die Bibliothek des Johann Vitez, Literrarische Berichte aus Ungarn, 2 (1878), p. 113.

W. Wienberger, Erhaltene Handschriften des Kongs Mathias Corvinus, und des Garner Erzbischofs Johann Vitez, Zeitschrift fur Bibliothekswesen, 46 (1929), p. 6-13;

K. Segvic, Knjiznica Marka Marulica, Nastavni Vjesnik, (1925), Vol. 1, p. 44-51.

H. Morovic, Povijest Biblioteka u gradu Spiltu, I, Zagreb 1971, p.59-89;

K. Kovac, Uber Bucher und Bibliotheken im Alten Ragusa, Mittheilungen. des K. k. Archivrates, 1 (1914), p. 270-275.

وفيما يتعلق بالحروف الإحيائية، ظهورها وتطورها، انظر:

B. L. Ullman, The origin and development of humanistic script, Roma 1969;

J. Wardop, The script of humanism, Some aspects of humanistic script 1460- 1560, Oxford 1963.

10 بدايات الطباعة في أوربا

لقد برزت في أوربا مسألة كانت تحتاج إلى حل سريع: كيف يمكن تلبية الطلبات المتزايدة على الكتاب حين تزايد بسرعة عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في المدن، وحين كان يتزايد طلب الطلاب في الجامعات للكتب الجامعية وغيرها، وحين أثار اكتشاف المخطوطات اهتمام الناس المتعلمين وزاد بدوره من الطلب على أمثال هذه المؤلفات، وحين أصبح الكتاب بشكل عام سلعة مطلوبة وأخذ يمارس دورا أهم بكثير بالمقارنة مع الوقت الذي كان فيه عدد المهتمين بالكتاب قليلا نسبيا.

وفي الواقع لقد كان الأمر يحتاج إلى حل لمسألتين أساسيتين. أما المسألة الأولى فهي إيجاد مادة جديدة ورخيصة للكتابة، بينما كانت المسألة الثانية تنحصر في البحث عن حل تكنولوجي لسرعة نسخ الكتاب الواحد. وفيما يتعلق بالمسألة الأولى فقد كان الحل قد أنجز من الناحية التكنولوجية بعد أن انتقل إنتاج الورق من البلدان الإسلامية إلى أوربا. ولكن طالما كان إنتاج الورق محدودا نسبيا فقد كان من الصعب أن يلعب الورق هنا دورا أكبر وأن ينهي استعمال الرق كمادة للكتابة. إلا أن الورق

أخذ ينتج بكميات كبيرة منذ نهاية القرن الرابع عشر، وخاصة خلال القرن الخامس عشر، بحيث أن الورق لم يعد يمثل عقبة لإنتاج أكبر للكتاب. أما المسألة الأخرى، وهى سرعة نسخ الكتاب بشكل ميكانيكي، فقد حلها أخيرا في منتصف القرن الخامس عشر الألماني يوهان غوتنبرغ.

أ- إنتاج الورق

بالمقارنة مع الرق كان للورق أفضلية كبيرة إلا أنه كان لا يخلو أيضا من نقيصة ما إذ أنه كان يتضرر ويتمزق بسهولة. وقد كان هذا أحد الأسباب التي دعت الكثيرين في البداية إلى عدم الثقة بالورق كمادة للكتابة، وخاصة لكتابة وثائق الدولة المهمة والوصايا المختلفة والوثائق المشابهة. ومن ناحية أخرى فقد كان الورق أفضل من الرق إذ أن سطحه كان أنعم ولأن حبر المطبعة كان يلتصق عليه بسهولة أكثر بالمقارنة مع الرق. وبالإضافة إلى هذا فإن المطبعة لم تكن تتقبل إلا الرق الرقيق من النوعية الجيدة، أي أغلى أنواع الرق. لقد كان هذا النوع من الرق نادرا ولذلك لم يكن مناسبا للاستعمال بشكل واسع في الصناعة المطبعية التي تطورت بعد اختراع غوتنبرغ.

في منتصف القرن الخامس عشر أنتج الورق بكميات كبيرة ولذلك أصبح يستعمل أيضا لكتابة الوثائق. وكان مما ساهم في انتشاره ثمنه الرخيص والإنتاج الواسع الذي كانت تضخه معامل الورق الكثيرة في ذلك الوقت. وقد انحصرت هذه المعامل أولا في إيطاليا بينما كان التجار هنا يصدرون إنتاجها من الورق إلى كافة البلدان الأوربية، ولكن سرعان ما برزت معامل الورق في البلدان المجاورة التي أصبحت تنتج الورق بكميات كافية.

ومع اختراع غوتنبرغ وانتشار الطباعة تمكن الورق أخيرا من الانتصار بشكل نهائي على الرق. وعلى الرغم من هذا فإن الرق بقي يستعمل لفترة أخرى لأن هواة جمع الكتب من الأغنياء استمروا لفترة طويلة يوصون ورش النسخ على مخطوطات مدونة على الرق، كما أن غوتنبرغ نفسه طبع قسما من نسخ التوراة على الرق. وفي الواقع لا توجد معطيات دقيقة تؤكد عدد النسخ التي طبعها غوتنبرغ على الرق وعدد النسخ التي طبعها على الورق، ولكن يعتقد أن العدد الإجمالي للنسخ كان بين 180-200 نسخة ومن هذه

كانت حوالي ثلاثين نسخة مطبوعة على الرق.

ولا يوجد هنا شك في أن تشبع السوق بالورق كان أحد الأسباب المهمة التي قادت إلى اختراع وانتشار الطباعة، إلا أن التطور اللاحق لصناعة الورق ارتبط بدوره بتطور الطباعة. وهكذا لير من المصادفة هنا أن أحد شركاء غوتنبرغ في ستراسبورغ في بداية عمل المطبعة، أ. مايلمان، كان يملك مصنعا للورق بالقرب من هذه المدينة. وكان المنتجون الأوربيون للورق منذ العقد السابع للقرن الثالث عشر، أي منذ بداية إنتاج الورق خارج العالم العربي، قد لجأوا إلى وضع ما يسمى إشارات مائية (Filigran) في إنتاجهم من الورق. وكان هؤلاء يحصلون على هذه الإشارات بوضع إشارات دقيقة مصنوعة من الشريط، وأحيانا الحروف الأولى من اسم المنتج، فوق الشبكة التي توضع عليها عجينة الورق. وهكذا فإن هذه الإشارات تظهر على الورق بعد أن يجف إذ أن مكانها يصبح أكثر رقة وشفافية بحيث تبدو بوضوح إذا كان الورق باتجاه الضوء. وكانت هذه الإشارات تمثل أشياء مختلفة: حيوانات ونباتات في الغالب، ومخلوقات خيالية وأشكال مختلفة ثم رموز متنوعة (مرساة، جرس، تاج الخ) وشعارات الخ.

أما السبب الرئيسي لوضع هذه الإشارات فقد كان حماية نوعية الورق، أي أن هذه الإشارات كان تقوم بالدور الذي ستمثله لاحقا العلامات التجارية للمصانع المختلفة.

إن هذه الإشارات لها أهمية كبيرة في تاريخ الكتاب حتى أنه كتب حولها عدد كبير من الكتب والدراسات منذ القرن الثامن عشر الميلادي وأصبح هناك علم مستقل يهتم بها Filigranology. وفي الواقع أن هذا العلم يساعد في الدرجة الأولى على تحديد تاريخ الورق، وبالتالي على تحديد تاريخ طباعة أي كتاب. وقد أوضحت الأبحاث أن كل منتج كان يستعمل إشارات معينة خلال وقت معين. ونظرا لأن هذا العلم قد تمكن الآن من تحديد بداية استعمال الإشارات الخاصة بكل مصنع فقد أصبح في الإمكان أن نحدد بسهولة تاريخ إنتاج الورق. ومن ناحية أخرى فإن لهذه الإشارات أهمية إضافية إذ أنها تعرفنا على الطرق التجارية التي كان يسلكها الورق من المنتج إلى المستهلك، وهذا عامل مهم بطبيعة الحال لتحديد تاريخ التجارة والطباعة. وكمثال على ما يمكن أن تساعد معرفة مصدر الورق في

حالة بعض القضايا نذكر هنا قصة الكتاب الأول الذي طبع باللغة الكرواتية سنة 1483م، وهو كتاب القداس. فقد ساد الاعتقاد لوقت طويل أن هذا الكتاب طبع في فينسيا، إلا أنه في الفترة الأخيرة اتضح أن هذا الكتاب قد طبع بالتأكيد في كرواتيا لأن مصدر معظم الورق المستعمل في طباعته من أصل ألماني وليس من أصل إيطالي كما يجب أن يكون لو أنه طبع في فينسيا.

ب- الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية

في الوقت الذي شاع فيه استعمال الورق في أوربا أخذت تطبع أيضا الكتب بالقوالب الخشبية التي كانت تتضمن في البداية رسوم القديسين فقط ثم الرسوم مع النصوص. وقد رأينا سابقا أن الكتب كانت تطبع بهذه التقنية قبل عدة قرون في الصين واليابان وكوريا وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، وليس من المستبعد أن تكون هذه التقنية قد وصلت إلى أوربا بواسطة «طريق الحرير». وبينما وصلت هذه التقنية إلى ذروتها في الشرق الأقصى بحيث أصبح في الإمكان طبع الكتب للنخبة الاجتماعية نجد أن الطباعة بالقوالب الخشبية في أوربا كانت نتاجا للثقافة الشعبية أو للثقافة التحتية (Subculture). وفي الواقع لقد كان كل ما يطبع بهذه التقنية في أوربا موجها للجمهور غير المتعلم وحتى للجمهور الأمي الذي أصبح أخيرا بفضل هذه الرسوم البسيطة، والسيئة في تقنيتها، والنصوص القصيرة يستطيع أن يمتلك صلة بصرية مع الموضوعات التي كان لعدة قرون خلت لا يعرف عنها إلا بالسماع من خلال الوعظ في الكنيسة ومن خلال الصور الجدارية والتماثيل والأعمال الأخرى الفنية المتمثلة في تيجان الأعمدة والمنحوتات والنقوش الجدارية في الكنائس. ولكن مع كل هذه اللوحات والمنحوتات في الكنائس لم تشعر الجماهير الأمية في القرون الوسطى بصلة قريبة كما كان الأمر حين أصبحت تملك في يدها صور القديسين الأحياء، الصور التي يمكن أن تحملها دائما أو يمكن أن تعلقها على الجدران لتحميها من الأمراض والمشاكل، أو حين أصبحت تستطيع أن تقرأ وتعاود قراءة أحد الكتب الدينية (بالطبع بعد تعلم القراءة) وأن تنقل الآخرين- الجيران مضمون الكتاب على النحو الذي كان يفعله الراهب أو رجل الدين.

وبعبارة أخرى فقد كانت هذه أول صلة للشرائح التحتية الاجتماعية بالكلمة المكتوبة بعد انفصال دام عدة قرون عن الكتاب والقراءة والكتابة.

وكما يبدو فإن طبع صور القديسين بواسطة القوالب الخشبية في أوربا بدأ أولا في ألمانيا وهولندا خلال العقد الأخير من القرن الرابع عشر، إلا أن أقدم أثر مطبوع بواسطة القوالب الخشبية ومحفوظ إلى اليوم يعود إلى سنة 1423م. وفي الحقيقة أن هذه السنة تظهر في لوحة تمثل القديس كريستوفر مع نص إلى جانبه. وقد أصبحت هذه اللوحات التي تمثل القديسين شعبية جدا خلال فترة قصيرة. وسرعان ما أصبحت تطبع بهذه الطريقة أوراق اللعب والتقاويم ثم طبعت الكتيبات التي لم يكن يتجاوز الواحد منها عدة صفحات والتي كانت تزين بالرسوم وتمثل مشاهد من حياة المسيح ومن سفر الرؤيا والعهد القديم ومن حياة القديسين. وقد كانت تصاحب هذه سير حياة موجزة كانت تطبع بنفس الطريقة التي تطبع بها اللوحات. ومن أشهر هذه الكتب المطبوعة بواسطة القوالب الخشبية كانت «التوارة للفقراء» و«مهارة الموت» و«نشيد الإنشاد» و«مرآة النجاة الإنسانية» الخ. وفي البداية كانت هذه الكتب المطبوعة تتضمن موضوعات دينية ثم أخذت تطبع لاحقا تلك الكتب التي تتضمن موضوعات غير دينية وحتى موضوعات علمية. ومن هذه انتشرت بشكل خاص القواعد الموجزة للغة اللاتينية التي وضعها إليوس دوناتوس العالم الروماني من القرن الرابع الميلادي، والتي بقيت تنسخ باهتمام طيلة العصر الوسيط. ونظرا لحجمها المختصر، والاهتمام الكبير بها، فقد كانت هذه القواعد من أكثر الكتب التي طبعت بواسطة القوالب الخشبية. وبالمقارنة مع بقية الكتب المذكورة فإن هذه القواعد لم تكن مزينة بالرسوم بل كانت مقتصرة على النصوص.

كانت كل هذه الكتب لا تحتوى إلا على عدد قليل من الصفحات إذ أن النصوص الطويلة كانت نادرة جدا. وقد طبع في روما سنة 1475م أكبر كتاب من حيث عدد الصفحات، وهو الترجمة الألمانية لدليل السفر المعروف «عجائب روما»، الذي كان قد نسخ كثيرا منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وقد تضمن هذا الكتاب حينئذ 92 صفحة احتوت النصوص واللوحات المطبوعة على الوجهين.

ومن الطبيعي أن نفترض هنا أن اختراع غوتنبرغ للطباعة بالأحرف

المتحركة قد قضى على الكتب البدائية والغالية المطبوعة بواسطة القوالب الخشبية. إلا أن هذا لم يتم بسرعة إذ بقيت الكتب التي تطبع بواسطة القوالب الخشبية حتى العقد الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، أي بعد ستين سنة من طباعة غوتنبرغ للتوراة. وفي الحقيقة لقد كان الكتاب المطبوع بواسطة القوالب الخشبية قد ازدهر بالضبط في الفترة التي كانت قد بدأت فيها مرحلة غوتنبرغ.

إن تفسير هذه الظاهرة، التي تبدو غريبة للوهلة الأولى، يكمن في حقيقة أن غوتنبرغ وغيره من رجال الطباعة في كل أرجاء أوربا كانوا في بداية تطور الطباعة يوجهون إنتاجهم لتلبية حاجات النخبة المتعلمة في المجتمع ولهواة جمع الكتب الذين كان عددهم في ازدياد، بينما كان اهتمامهم ينصب في الدرجة الأخيرة على أولئك القراء الذين كانوا قد وجدوا في الكتاب المطبوع بالقوالب الخشبية ما يناسبهم: اللوحات الكثيرة التي يرافقها نص مختصر ليست له قيمة تذكر.

وهكذا يبدو في العقود الأولى من مرحلة غوتنبرغ ازدواج في إنتاج الكتاب أو ثنائية ثقافية تعكس بصدق الفرق بين ثقافة الجماهير وبين ثقافة الإحياء وثقافة النخبة الاجتماعية والثقافية. وقد لجأت هذه النخبة إلى الاستفادة من اختراع غوتنبرغ في الدرجة الأولى لإنتاج تلك الكتب المعرفية التي لم تكن مفهومة للجماهير سواء من حيث الموضوع أو من حيث اللغة، لأنها كانت مكتوبة في اللاتينية أو اليونانية ونادرا في اللغة الشعبية. ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الكتب غالية جدا بالنسبة للجماهير. إلا أن التفات رجال الطباعة إلى تلبية حاجات الجماهير أدى أخيرا إلى القضاء على الكتاب المطبوع بواسطة القوالب الخشبية الذي كان يميز بالفعل فن الجماهير وثقافة الجماهير في أوربا خلال عصر النهضة.

ت- غوتنبرغ

لم يحل الكتاب المطبوع بالقوالب الخشبية تلك المسألة التي كانت تفرض نفسها باستمرار: الإنتاج الواسع والصناعي للكتاب. فقد كان العمل البطيء والمضني لحفر الألواح الخشبية، وخاصة حين كان الأمر يتعلق بنص طويل، وعدم قدرة هذه الألواح على إعطاء عدد كبير من النسخ بسبب تضررها

السريع من الأسباب التي أعاقت هذه التقنية عن تلبية الحاجات. ولذلك كان لا بد من البحث عن حل آخر، أبسط وأسرع وأرخص. وقد وجد هذا الحل أخيرا يوهانس غوتنبرغ.

ولد يوهانس غنسفلايش، الذي اتخذ لاحقا لقب غوتنبرغ نسبة إلى البيت الذي ولد فيه (Hofzum Gutenberg)، في مدينة ماينس سنة 1397م. ولا نعرف شيئا عن السنوات الأولى لحياته في ماينس وكل ما نعرفه هنا أن والده كان ينتمي إلى الشريحة الغنية للأشراف بينما كانت والدته إلسه فيرنج من إحدى العائلات العادية في المدينة.

وكانت ماينس حين ولد غوتنبرغ فيها لا يتجاوز عدد سكانها ستة آلاف نسمة، إلا أنها مع ذلك كانت من أغنى وأهم المدن في ألمانيا. وكانت ماينس بموقعها على مصب نهر ماين في الراين، حيث كانت تتقاطع أهم الطرق التجارية لألمانيا في ذلك الوقت، تمتلك كل الشروط لكي تكون مركزا للنشاط التجاري الحي والانقلاب الفني وبالتحديد مركزا سياسيا وثقافيا مهما.

ومن بين المهن التي تطورت في ماينس حينئذ لا بد أن نذكر بشكل خاص صياغة الذهب والفضة وصنع الأختام المعدنية وصك النقود. ويعتقد هنا أن غوتنبرغ تعلم المهنة في ورش سبك المعادن التي ستفيده كثيرا فيما بعد حين سيعمد إلى صب الحروف لمطبعته.

إلا أن النزاع بين الأشراف وبين الروابط الحرفية التي كانت تتزايد قوتها أرغم غوتنبرغ على مغادرة مدينته والهجرة إلى ستراسبورغ. ولا يعرف بالضبط تاريخ هذه الهجرة ولكن يعتقد أنها حصلت خلال 1430م. وخلال إقامته هنا أسس غوتنبرغ مع ثلاثة من مواطنين هذه المدينة رابطة لتصنيع المرايا المعدنية للحجاج الذين كانوا يمرون من هنا في طريقهم إلى آخن. وفي ذلك الوقت كان غوتنبرغ قد بدأ يعمل بشكل سري في اختراعه.

ويبدو أن غوتنبرغ كان منذ ذلك الوقت يملك تصورا واضحا عن طريقة أسهل وأرخص لنسخ النصوص وذلك بواسطة صنع الأحرف بشكل منفصل ثم وضعها أمام بعضها البعض للحصول على الأصل الذي يجب أن ينسخ. وقد كان من الواضح له إن هذه الحروف لا يمكن أن تصنع إلا من المعادن لأن الحروف المعدنية فقط هي التي كانت قادرة على إعطاء عدد كبير من النسخ للكتاب الواحد. ولكن لأجل التوصل إلى تنفيذ هذه الفكرة احتاج

الأمر إلى تذليل بعض المصاعب التقنية، وكان غوتنبرغ يحتاج لأجل هذا مبالغ كبيرة من المال. ونظرا لأن غوتنبرغ لم يكن يملك المال الكافي فقد كان مضطرا منذ البداية إلى البحث عن شركاء أغنياء. وهكذا فقد تصرف بالفعل إلا أن هذا سبب له المتاعب.

فقد وصل النزاع الذي شب بين غوتنبرغ وبين وريث أحد شركائه، أندرياس دريتزهن، الذي توفي سنة 1439م، إلى المحكمة أخيرا ووصلت إلينا بعض وثائق هذه القضية. وهكذا نفهم من إحدى هذه الوثائق أن المرحوم دريتزيهن قد أنفق مبالغ كبيرة على العمل الذي كان ينجزه غوتنبرغ بشكل سري. ومع أن الشهود في المحكمة أشاروا إلى عمل يتم بواسطة المكبس إلا أنه يبدو أن هؤلاء الشهود أنفسهم لم يعرفوا طبيعة العمل الذي كان يمارسه غوتنبرغ. وقد ذكر أحد هؤلاء الشهود، ألا وهو الصائغ هانس دنييه، في شهادته أنه أخذ من غوتنبرغ قبل ثلاث سنوات 300 غولدن لأجل المشتريات التي تتعلق بالطباعة (Das Zu Truchen Gehoret). ولا يوجد هنا شك في أن غوتنبرغ كان يعمل حينئذ في تصميم مطبعته ولذلك كان يحتاج بالطبع إلى مبالغ كبيرة من المال لم تكن متوفرة لديه. ونظرا لأنه كان ينفق أموال الآخرين فقد وصلت إلينا بعض المعطيات عنه ولو أنها قليلة. وقد تكرر هذا الأمر حين عاد إلى ماينس، حيث أخذ ينفق أيضا من أموال الآخرين.

وفي الحقيقة لم تر محكمة ستراسبورغ في عمل غوتنبرغ أية مخالفة للقانون ولكن مع ذلك حكمت عليه بدفع مبلغ من المال إلى ورثة أندرياس دريتزهن.

ولكن ماذا حصل بعد ذلك في ستراسبورغ، وماذا جرى لاختراعه الذي كان يعمل به؟ هذا ما تنقصنا عنه المعلومات. إن المصادر لا تذكر لنا أي معلومات عما طبعه غوتنبرغ في هذه المدينة، ولم يبق لنا أي أثر من مطبوعات غوتنبرغ خلال إقامته في ستراسبورغ.

وهكذا فقد بقي ما حدث لغوتنبرغ سنة 1444م، سرا من الأسرار حيث تذكره المصادر لآخر مرة كأحد سكان ستراسبورغ، وسنة 1448م، حين نجده مرة ثانية في مسقط رأسه ماينس. إلا أن هناك شيئا مؤكدا على الأقل، ألا وهو استمرار غوتنبرغ في العمل لتنفيذ اختراعه. ففي سنة 1450م استدان

في ماينس مبلغا من المال من مواطنه الغني يوهانس فوست، الذي أراد بطبيعة الحال أن يكسب الكثير من خلال استثمار أمواله في الطباعة. وبهذا المبلغ من المال اشترى غوتنبرغ حينئذ الرصاص والورق والرق والحبر ودفع أجور العمال لديه (في مراحل مختلفة كان يساعد غوتنبرغ 15- 20 عامل) بالإضافة إلى الأعمال الأخرى التحضيرية. وفي ذلك الوقت بالذات بدأ غوتنبرغ في إنجاز مشروعة الكبير، وهو طبع التوراة.

لقد بدأ غوتنبرغ العمل في هذا المشروع سنة 1442م ولم ينجزه إلا بعد مضي أربع سنوات، أي في 1445م. وقد صدر هذا العمل حينئذ في مجلدين بالحجم الكبير حيث طبع النص على عمودين في صفحاته التي بلغت 1280 صفحة. وقد دعيت هذه التوراة «توراة الـ42 سطرا»، وهي تعتبر رائعة مهنة الطباعة التي بدأت معها صفحة جديدة في التاريخ الثقافي للإنسانية.

وفي الواقع فإن غوتنبرغ لم يختر بالصدفة التوراة كأول كتاب يطبعه. فقد كان هو وشريكه العصبي فوست يهتمان بالناحية المالية لهذا المشروع المكلف ولذلك بدا لهما أن طباعة التوراة هي أضمن لهما من الناحية المالية.

وخلال العمل في إنجاز هذه الطبعة من التوراة طبعت حينئذ عدة أعمال بسيطة أيضا. إلا أننا لا نعرف حتى الآن ما إذا كانت هذه الأعمال الأخرى قد طبعت في مطبعة غوتنبرغ أو، كما يعتقد بعض المؤرخين، في مطابع صغيرة أخرى في ماينس كانت تستعمل تقنية مغايرة لمطبعة غوتنبرغ. ومن هذه الأعمال المطبوعة الأخرى لدينا «التقويم التركي» الذي صدر سنة 1454م، وكتاب «القداس الخاص» الذي لا يوجد تاريخ لصدوره، ولكن يعتقد إنه قد صدر أيضا خلال تلك السنة (1454م)، وعدة كتب أخرى أصغر. إلا أن الأمر هنا لا يزال يكتنفه الغموض سواء فيما يتعلق بسنة صدور هذه الكتب أو بمكان طباعتها.

ولكن النزاع بين غوتنبرغ وبين فوست، الذي استثمر مبالغ كبيرة في اختراع غوتنبرغ، كان قد بدأ مع بداية طبع التوراة ثم تطور بكل حدة مع نهاية هذا العمل. فقد قدر فوست الحذق، الذي كانت له صلات قوية مع المحكمة والبلدية، إنه قد آن الأوان لإخراج غوتنبرغ من اللعبة ومن الربح. وهكذا فقد رفع دعوى ضده في المحكمة التي حكمت عليه أن يعيد إلى

فوست كل المبالغ التي استدانها منه مع فوائدها بما يصل إلى 2020 غولدن ذهبي، وهو مبلغ كبير بالنسبة لذلك الوقت. وبالطبع فإن غوتنبرغ لم يكن يملك مبلغا كهذا. أما نتيجة ذلك فقد أصبحت معروفة لنا من الوثائق الأخرى، حيث أصبح اسم فوست يرد كصاحب للمطبعة بدلا عن غوتنبرغ. لقد كان فقدان المطبعة التي كان قد أنجزها بكل جهد ونكران للذات، يعني بالنسبة إلى غوتنبرغ خسارة فادحة لا تعوض أبدا. وفي الواقع كان غوتنبرغ قد خسر مع المطبعة كل نسخ التوراة التي طبعت فيها أيضا.

أما ماذا حدث بعد ذلك مع غوتنبرغ وعمله فمن الصعب أن نتصوره بالاستناد إلى الأخبار المتفرقة التي نعرفها اليوم. ولكن يبدو أن غوتنبرغ لم يتخل عن المطبعة بل عاد إلى هذا العمل في مطبعة أخرى أصغر، ويبدو أنه أخذ شيئا من مطبعته القديمة إلى تلك الجديدة كبعض الحروف التي كان قد طبع بها التوراة. ويعتقد البعض أن غوتنبرغ بدأ يصدر فيماينس طبعة جديدة من التوراة، تلك المعروفة «بتوراة الـ36 سطرا» التي أنجزت أخيرا في سنة 1460م. إلا أن الأقرب إلى الصحة أن تكون هذه المطبعة من التوراة قد أنجزها هاينرنج كيفر H. Kefer أو بفيستر Pfister اللذان كانا من رجال الطباعة في هذه المدينة.

ولكن هناك أسبابا أقوى تؤكد نسبة كتاب آخر إلى غوتنبرغ، إلا وهو كتاب «الجامع» لجوفاني بالب وكان هذا الكتاب قد ألف سنة 1286م ونسخ مرات كثيرة خلال القرون الوسطى لأنه كان مرغوبا، وهكذا فقد أصبح الدافع لطباعته واضحا. وفي الواقع لا نجد في هذا وحتى في «توراة الـ42 سطرا» اسم غوتنبرغ كناشر للكتاب ولكن يعتقد بأنه هو الذي نشر هذا الكتاب لأن الصفحة الأخيرة منه تتضمن تمجيدا بمدينة ماينس وبألمانيا على اعتبارها بلد الطباعة. أما المطبعة التي طبع فيها غوتنبرغ هذا الكتاب فهي متواضعة جدا بالمقارنة مع المطبعة التي خسرها، وهذا يبدو في المظهر المتواضع جدا للكتاب المذكور. إلا أن البعض يعتبر هذا المظهر المتواضع جدا للكتاب سببا كافيا لنفي الرأي الذي يقول إن غوتنبرغ هو الذي نشر هذا الكتاب ولكن أكثرية الباحثين يعتقدون الآن أن هذا السبب لا يكفي لإخراج هذا الكتاب من قائمة الأعمال التي أصدرها للتوراة إذ أن الأمر يتعلق هنا بنصوص مختلفة (تقاويم وقواعد الخ) ليس لها طابع ديني.

أما عن هذه المطبعة الثانية لغوتنبرغ فلا نعرف إلا القليل. ومما نعرفه هنا أن حاكم المدينة كونراد هرمر هو الذي قدم المال اللازم لتأسيس هذه المطبعة بعد أن سلمت المطبعة الأولى إلى فوست. ولكن في هذه المرة أيضا لم يعرف غوتنبرغ كيف يتدبر الأمور. وهكذا بعد أن عجز غوتنبرغ طيلة حياته عن رد هذا الدين فلم يبق أمام هومر إلا أن يأخذ بعد وفاته المطبعة، التي «كانت لي وهي لي اليوم» كما كتب بنفسه في إحدى الوثائق.

ومن ناحية أخرى فقد تمكن فوست من تطوير المطبعة التي أخذها بشكل رائع. فقد تولى الناحية المالية بنجاح كبير فوست نفسه، بينما تولى الناحية الفنية بيتر شافر الذي كان قد أتقن هذه المهنة على يد غوتنبرغ خلال طبع التوراة. ومع أنه كان من أفضل مساعدي غوتنبرغ، إلا أنه في اللحظة الحاسمة خان معلمه وانحاز إلى صف فوست. وفي الواقع ما زلنا لا نعرف الأسباب التي دفعت شافر إلى هذا الموقف ولكن يبدو أن الدور الأساسي في هذه القصة كان لابنة فوست، كريستينا، التي أحبها شافر وتزوج منها أخيرا.

وهكذا بعد سنتين فقط من الحكم الذي صدر ضد غوتنبرغ، أي في عام 1457م أصدرت هذه المطبعة «كتاب المزاميز» المعروف باسم Psalterium Moguntinum الذي جاء بمستوى التوراة من حيث الفخامة. بالإضافة إلى هذا فقد طور شافر الحروف المستعملة وطبع سنة 1458م كتاب «قانون القداديس» ثم كتاب «في العقلي» سنة 1459م التي تجاوز فيها بعدة جوانب معلمه غوتنبرغ. وكان «كتاب المزامير» المذكور قد تضمن لأول مرة الشارة الطباعية لمطبعة فوست وشافر التي اتخذت شكل درعين معلقين على غصن. وقد توفي فوست بالطاعون خلال رحلة عمل له إلى باريس سنة 1466م بحيث أن شافر بقي المالك الوحيد للمطبعة. وقد توفي شافر بدوره سنة 1502، ولكن إلى ذلك الحين بقيت مطبعته صامدة في وجه المنافسة الكبيرة لبقية المطابع بحيث كانت واحدة من أنجح المطابع في ذلك العصر.

ولنعد الآن مرة ثانية إلى غوتنبرغ. ففي سنة 1462 م اندلعت في ماينس حرب أهلية دامية أصابت غوتنبرغ بشكل مباشر، ففي تلك السنة هاجم جنود الأمير أدولف ماينس بشكل مفاجئ وقاموا فيها بمجزرة مروعة. فقد أحرقوا حينئذ مئات البيوت ونهبوا وقتلوا سكان المدينة دون أية رحمة. أما

من بقي على قيد الحياة من سكان المدينة، ومن بينهم غوتنبرغ، فقد نفوا إلى خارج المدينة. وفي هذه الكارثة تضررت كثيرا مطبعته أيضا. وقد كانت هذه ضربة قاصمة لغوتنبرغ العجوز حيث إنه لم يستطع أن يسترد ذاته بعدها. وحسب أحد المصادر المتأخرة فقد أمضى غوتنبرغ سنواته الأخيرة في بؤس بعد أن فقد بصره، إلى أن توفي سنة 1468م، في ماينس على ما يبدو. وقد فاتت وفاته على كتاب الوقائع إذ لم يسجلها أي واحد منهم، إلا أننا نعرف عن وفاته في هذه السنة بالذات لأن شخصا مجهولا دون ذلك على أحد الكتب.

وبالاستناد إلى ما نعرفه عنه فإن غوتنبرغ كان شخصا يتمتع بإرادة قوية وحيوية كبيرة. ونظرا لمعرفته بان استغلال اختراعه لا يحتاج إلى ذكاء كبير فقد أبقى اختراعه في السر إلي أن طبع أول كتبه. وقد نجح غوتنبرغ في ذلك ولهذا فإن اسمه يرتبط بأهم ثورة حدثت في مجال التواصل منذ اكتشاف الورق.

ث- غوتنبرغ والطباعة في الشرق الأقصى

هناك عدة آراء حول ما إذا كان غوتنبرغ كان يعرف شيئا عن الطباعة في الشرق الأقصى، وخاصة حول معرفته بتقنية الطباعة بواسطة الحروف المتحركة، ويرى البعض أن هذا غير مستبعد لأن الصلات التجارية بين الغرب والشرق الأقصى كانت متوفرة منذ العهد الروماني ثم تطورت أكثر خلال الحروب الصليبية وبعدها. وفي الواقع لقد كان «طريق الحرير» القديم لا يستعمل فقط لنقل الحرير والسلع التجارية إلى القسطنطينية، ومنها إلى بلدان الغرب، بل كان ينقل أيضا المعارف العلمية والتقنية من الشرق الأقصى الذي كان متطورا في ذلك الوقت. ومن الشرق الأقصى كان قد وصل عن طريق العرب إنتاج الورق، ولذلك لا يستبعد هنا الافتراض القائل بأن فكرة طبع الكتب بواسطة الحروف المتحركة قد جاءت من الشرق الأقصى. ومع هذا يسود هنا الرأي القائل بأنه حتى لو أن غوتنبرغ أو غيره كان يعرف هذه الطريقة فإن هذا لا يقلل من أهمية غوتنبرغ لأن الطباعة لم تنتشر في أوربا الغربية وبقية بلدان العالم إلا بعد أن نجح غوتنبرغ في تصميم مطبعته وفي إثبات نجاحها لطبع كتب ضخمة كالتوراة. وعلى كل

حال لا يوجد لدينا حتى الآن دليل مؤكد يثبت أن غوتنبرغ كان على اطلاع على التقنية الكورية-الصينية للطباعة بواسطة الحروف المتحركة.

وبالإضافة إلى هذا لا بد أن نضيف هنا أن غوتنبرغ لم يكن يحتاج إلى أن يبحث في مكان بعيد عن إمكانية الطباعة بواسطة الحروف المتحركة. فمن المعروف أن مبدأ الطباعة بواسطة الحروف المتحركة كان معروفا حتى للرومان القدماء حيث لدينا إشارات واضحة لمثل هذه الطباعة في نصوص لشيشرون وغيره من الكتاب الرومانيين.

ج-«مخترعون» آخرون للطباعة في أوربا

قبل أن نتابع مصير اختراع غوتنبرغ لا بأس أن نتوقف هنا قليلا عند بعض الحقائق التي لا يوجد اتفاق عليها منذ وقت طويل، تلك التي برزت منذ القرن الخامس عشر الميلادي والتي يريد منها أصحابها التشكيك في فضل غوتنبرغ لاختراعه الطباعة بواسطة الحروف المتحركة. وكان أول من حاول نفي هذا الفضل يوهان شافر ابن بيتر شافر، الذي كان يؤكد بشكل خاص بعد وفاة والده سنة 1502م أن أباه وليس غوتنبرغ هو الذي اخترع أول مطبعة. أما الهولنديون فقد بدأوا يؤكدون منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي أن الكتب المطبوعة الأولى بهذه الطريقة الجديدة قد صدرت أولا في بلادهم. وهكذا نجد هذا التأكيد مثلا في «وقائع مدينة كلن» (1499م)، بينما نجد سنة 1588 أن إدريانوس يونيوس في كتابه «باتافيا»(*) يذكر الرواية المحلية بأن الكتب المطبوعة الأولى قد أصدرها لورنس يانسون المعروف باسم كوستر من هارلم. إلا أنه من المعروف عن هذا أنه كان قد طبع بعض الكتب بواسطة القوالب الخشبية وليس بواسطة الحروف المتحركة. ولكن هذا لم يمنع سكان هارلم من أن يقيموا لمواطنهم نصبا في المدينة اعترافا بفضله. وحتى اليوم لا تزال تنشر محاولات علمية لإثبات أسبقية كوستر، إلا أن كل الحقائق تميل إلى جهة غوتنبرغ.

أما المنافس الجدي الآخر لغوتنبرغ فهو بروكوب فالدفوغل، الذي يعود بأصله إلى مدينة براغ، والذي عاش لفترة من الوقت في أفينيون بفرنسا حيث كان يعمل صائغا هناك. فخلال سنوات (1444- 1446م) وقع فالدفوغل

(*) باتافيا Batavia منطقة ما بين ميلانو وتورينو بإيطاليا. (المترجم).

عدة عقود تجارية حفظت إلى حيث يبدو أنه اشترى مواد مختلفة (قصدير، حديد، رصاص الخ) كان يحتاج إليها كما ورد في أحد هذه العقود، لـ«الكتابة الاصطناعية»-(Causa Ar tificialiter Serbendi). ولكن لا يعرف بالتحديد ماذا كان يقصد هنا بـ«الكتابة الاصطناعية»، ولذلك لا يمكن أن يقال هنا أي شيء بشكل مؤكد حول هذا التعبير. وحتى لو أن فالدفوغل كان يعمل كغوتتبرغ إلا أن عمله هذا كان لاحقا لعمل لغوتتبرغ ولا يعرف عنه أصلا أنه قد طبع كتابا ما.

وفيما يتعلق بالمنافس الثالث لغوتتبرغ، الإيطالي بامغيلو كاستالادي، فقد أثبت فعلا أنه بالإضافة إلى ممارسته للطب نشر عدة كتب منذ سنة 1471م وليس قبل 1461 م التي تؤرخ بعض الكتب المطبوعة التي تنسب إليه. وحسب الأسطورة، التي دونت في الحقيقة لأول مرة في القرن السابع عشر، فإن كاستالادي هو الذي اخترع الطباعة بواسطة الحروف المتحركة ثم قام أحد ضيوفه بنقل هذا الخبر إلى ألمانيا.

ج-انتشار الطباعة

ما زلنا لا نعرف الكثير من التفاصيل عن السنوات الأولى لتطور الطباعة فيماينس، ولا شك أن أحد الأسباب هنا يكمن في عدم رغبة غوتتبرغ أو فوست في أن يعرف الناس شيئا عن عملهما. ولكن بعد النزاع الذي تطور بينهما، وخاصة بعد أن قام جنود الأمير أدولف بتشتيت سكان ماينس ومن بينهم أولئك الذين كانوا يعملون في الطباعة، لم يعد من الممكن إخفاء السر بحيث أن الاختراع الجديد سرعان ما عرف في العالم. وهكذا فقد أخذت الطباعة تنتشر بسرعة، أسرع بكثير مما كان يرغب به غوتتبرغ، في ألمانيا أولا ثم في البلدان الأوربية الأخرى. وفي الواقع أن السرعة العجيبة التي انتشرت بها الطباعة في أوربا تدل على أن غوتتبرغ قد حل في اللحظة المناسبة إحدى المشاكل الراهنة التي لم تعد تنتظر التأجيل بالنسبة إلى أوربا في ذلك الوقت، ألا وهي مشكلة الإنتاج الأسرع والأرخص للكتاب-أي مشكلة الوسيلة الأكثر فعالية لنشر المعلومات العلمية وغيرها. فمع اختراع غوتتبرغ أصبح الكتاب يتمتع بأهمية كبيرة لم يعرفها حتى الآن إذ أنه أصبح وسيلة فعالة جدا في التطور الإنساني. وفي الواقع أن أوربا كانت

على استعداد لتقبل اختراع غوتنبرغ وقد استخدمته حينئذ بشكل فعال.

لقد بدأت الطباعة مسيرتها الناجحة خارج ماينس في الوقت الذي كان فيه غوتنبرغ لا يزال على قيد الحياة. وهكذا فقد أسس يوهانس منتلين حوالي 1460م مطبعة في ستراسبورغ، حيث طبع في تلك السنة والسنة اللاحقة التوراة باللغة اللاتينية بينما طبع سنة 1466م أول ترجمة ألمانية للتوراة. وفي ذلك الوقت أيضا (حوالي 1460م) بدأ نشاطه الطباعي ألبرخت بغيستر، الذي يعتقد بأنه من تلامذة غوتنبرغ في مدينة بامبرغ. وقد دخل بغيستر في تاريخ الطباعة لسببين إذ أنه كان أول من طبع الكتب باللغة الألمانية الشعبية وأول من طبع الكتب المزينة بالرسوم. ومن بين الأشياء التي طبعها فقد أصدر بغيستر طبعتين من الكتاب المعروف «توراة الفقراء»، الأولى بالألمانية والأخرية باللاتينية.

وفيما بعد سارع تلامذة غوتنبرغ وشافر إلى تأسيس المطابع في سلسلة من المدن الألمانية. وهكذا فقد أسس أولريخ سلي سنة 1466م مطبعة في مدينة كلن التي أصبحت واحدة من أهم المراكز الطباعية في ألمانيا، إذ وصل عدد المطابع فيها سنة 1500م إلى ثلاثين مطبعة. وهكذا فإن سلي نفسه قد أصدر حوالي 200 كتاب خلال وجوده على قيد الحياة (توفي سنة 1507م).

وإلى جانب كلن فقد أصبحت أوغسبرغ في بافاريا مركزا مهما لإنتاج الكتاب. وفي هذه المدينة كانت تعيش أسرة فوغل المعروفة التي تتعاطى الصيرفة. وقد بدأ هنا بطبع الكتب 1468م غنتر ساينر، الذي يعتقد بأنه تعلم مهنة الطباعة لدى منتليت في ستراسبورغ. أما في نورنبرغ فقد أسس يوهانس كوبرغر أول مطبعة هناك سنة 1468م. وقد قام هذا بإصدار أهم عمل له سنة 1493م حين طبع الكتاب الضخم لرجل الإحياء العلامة هارتمان شيدل «كتاب الوقائع» (المعروف بـ«وقائع غوتنبرغ») في اللاتينية والألمانية. وبالإضافة إلى هذا فقد طبع كوبرغر عددا كبيرا من الكتب المصورة والغالية، إلا أنه أيضا كان من الأوائل الذين بادروا إلى طبع الكتب الرخيصة الموجهة إلى الجمهور العريض من القراء. وكان هذا يبيع كتبه عبر شبكة منظمة ومتطورة في الكثير من المدن الأوربية حتى أنه في هذا المجال كان من أنجح الناشرين في عصره. فخلال سنوات (1473- 1513م) نشر كوبرغر 336 كتابا،

ولذلك يمكن اعتباره بالتأكيد أغزر ناشر-طابع في أوربا.

أقدم تصور للمطبعة نجده في كتاب م. هوسنن الذي طبع في ليون سنة 1499م وإلى اليمين لدينا مكتبة لبيع الكتب.

وقد حصلت المدن الألمانية الأخرى بسرعة على مطابع له: أولم (1473م) ولوبك (1475م) ولايبزغ (1481م) وغيرها من المدن قبل نهاية القرن. وفي ذلك الحين ازداد الطلب كثيرا على العاملين في مهنة الطباعة إذ أصبح هؤلاء يهاجرون من مدينة إلى أخرى ليؤسسوا مطابع جديدة أو ليعملوا في المطابع الموجودة.

وقبل موت غوتنبرغ كانت مهنة الطباعة قد تخطت جبال الألب لتصل إلى إيطاليا، إلى البلد الذي ستتطور فيه الطباعة بسرعة أكثر من أي بلد آخر خلال ذلك الوقت. ففي سنة 1465م تم تشغيل أول مطبعة في دير القديس سكولاستيك البنيديكتي في سوبياكو قرب روما بفضل الألمانيين أرنولد بانارتز وكوفراد سفنهايم. وكان هذان قد تعلما مهنة الطباعة في ماينس، في مطبعة غوتنبرغ وهافر على ما يبدو، حين غادرا المدينة بعد دخول جيش الأمير أدولف إليها. إلا أن إقامتهما في سوبياكو لم تطل

كثيرا. ففي هذا الدير، بالاستناد إلى كل ما نعرفه اليوم، قاما أولا بطبع كتاب «دوناتس» Donatus ثم طبعا كتاب شيشرون «حول الخطيب» وكتابين آخرين. أما بعد انتقالهما إلى روما فقد طبعا أولا كتاب شيشرون «رسائل للأصدقاء» 1467م ثم عدة كتب مهمة أخرى إلى سنة 1473 حين وقعا في مشاكل مالية كبيرة. ونتيجة لهذا فقد تخلى سفنايم حينئذ عن العمل بينما بقي بانارتز يواصل عمله إلى سنة 1476م حين انسحب بدوره من هذا العمل. وهكذا فقد طبع هذان الألمانيان 4 كتب في سوبياكر و48 كتابا في روما، بينما طبع بانارتز وحده 12 كتابا آخرا.

وفي غضون ذلك تتابع قدوم المهنيين الألمان إلى إيطاليا حيث أسسوا مطابع جديدة في روما وبولونيا (1470م)، حيث وصل عدد ورش الطباعة خلال نهاية القرن إلى 47 ورشة، ثم في فولينيو (1470م) وتريفي (1470م) وبارما (1472م) وغيرها.

ومن كل المدن الإيطالية اشتهرت فينسيا بشكل خاص كمركز للكتاب المطبوع، حيث وجدت مهنة الطباعة في هذه المدينة تشجيعا قويا وشروطا ثقافية واقتصادية وسياسية مثالية لتطورها الكبير. وهكذا منذ سنة 1469م، حيث أسست أول مطبعة، ازداد عدد المطابع باستمرار حتى وصل إلى 150 مطبعة في نهاية القرن. وقد طبع في هذه المطابع حتى ذلك الحين أربعة آلاف كتاب أي أكثر من أية مدينة أخرى في أوربا.

كان أول من عمل في مهنة الطباعة في فينسيا الألماني يوهانر دي سبيرا وكان أول ما طبعه هناك كتاب شيشرون الرائج «رسائل إلى الأصدقاء». وكان شيشرون هو الكاتب المفضل في أوساط حركة الإحياء الإيطالية ولذلك فإن الطباعة في فينسيا، إحدى أشهر مراكز الإحياء، قد انطلقت بكتاب شيشرون وليس بالتوراة كما كان الأمر في ماينس. وقد أصدر دي سبيرا طبعة ثانية من كتاب شيشرون المذكور ثم أصدر «التاريخ الطبيعي» لبلين وغير ذلك من الكتب. وبعد موته تابع هذا العمل بنجاح أخوه فندلين دي سبيرا. ولكن في هذه المدينة سرعان ما برزت منافسة قوية وكبيرة للغاية في العمل الطباعي. ومن بين رجال الطباعة الذين كانوا يعملون في فينيسيا فقد تمتع الفرنسي نيقولا ينسون، المولود في سومفوار بالقرب من تروآيا، بشهرة خاصة. فقد أرسله ملك فرنسا كارل السابع سنة 1458م إلى

ماينس لكي يتعلم مهنة الطباعة ومع أننا لا نعرف كيف تعلم وفي أية مطبعة من مطابع ماينس مارس هذه المهنة إلا أنه عندما وصل إلى فينيسيا كان قد أتقن هذه المهنة على نحو نادر بالنسبة لذلك الوقت في أوربا. وقد بدأ هو أيضا نشاطه الطباعي بكتاب لشيشرون ألا وهو «رسائل إلى بروتوس» الذي طبعه سنة 1470م، بينما طبع خلال عشر سنوات أخرى (1470- 1480م) 160 كتابا. ونظرا للمنافسة القوية جدا، التي برزت بسرعة في فينيسيا، فقد أسس شركة (نيقولا ينسون وشركاه) أخذت تتعاون بشكل وثيق مع فندلين دي سبيرا وغيره من رجال الطباعة. وقد تمكنت هذه الشركة خلال فترة من الزمن أن تسيطر بإنتاجها على سوق الكتب في فينيسيا.

لقد بقيت فينيسيا تجذب إليها العاملين في الطباعة من ألمانيا، ولكن سرعان ما أخذ يبرز في هذه المهنة الإيطاليون أيضا. ومن هؤلاء كان كلمنت دي بادوفا أول إيطالي يبرز في هذا الميدان (1471م) ثم تبعه غابرييل وفيليبو بيرو اللذان طبعا كتاب جوفاني بوكاشيو «محب الجمال» ومن الأسماء المهمة أيضا «أندريا كورسان» من أزولا الذي تميز بنشاطه خلال سنوات (1479- 1529م). وكان هذا قد أخذ مطبعة ن. ينسون وطبع الكثير من الكتب الدينية والقانونية، التي جعلت منها شخصية مشهورة، بالإضافة إلى طباعته للكتب باللغة الكرواتية. ففي هذه المطبعة طبعت الطبعة الثانية لـ«كتاب الصلوات» سنة 1493م الذي ورد فيه بصريح العبارة أن هذا النص قد صححه الكاهن القانوني لسني Senj بلاج باروميتش، الذي أوصى مطبعة تورستاني على صب الحروف للمطبعة الغلاغولية التي ستبدأ عملها لاحقا في سني.

وهكذا تحولت فينيسيا إلى مركز لجذب رجال الطباعة من كل أرجاء أوربا. فقد اشتهر فيها أيضا كرواتيان من رجال الطباعة ألا وهم أندريا بالتاشيتش من كوتور وبونينوس دي يونينوسي (دوبريتش دوبريتفيتشر) من لاستوفا. وكان أ. بالتاشيتش حوالي (1450- 1500م) قد طبع خلال سنوات (1477- 1493م) 41 كتابا وهي بمعظمها للكتاب الكلاسيكيين ثم للكتاب الآخرين من العصر الوسيط. وقد كانت هذه الكتب التي طبعها من أجمل المطبوعات حينئذ في فينيسيا. أما معاصرة دوبريتشفيتش (1454- 1528م)، الذي يصغره قليلا في السن، فقد عمل فترة من الوقت لدى بالتاشيتش وطبع

معه سنة 1478م مجموعة أعمال لاتكانس. وبعد فينيسيا توجه إلى فيرونا أولا، حيث نشر 38 كتابا رائعا خلال سنوات (83 14- 1491م). وكان دوبريتشبيتش كغيره من الناشرين-الطابعين في ذلك الوقت يتمتع بثقافة عصر الإحياء ولذلك فقد كان يكتب للكتب التي يطبعها مقدمات وخاتمات كما أنه كان يحرر النصوص ويعدها للطباعة. وقد طبع دوبريتشفيتش مؤلفات بعض الكتاب القدماء كتيرنس وفست وبلوتارك وغيرهم، كما أصدر طبعة من «الكوميديا الإلهية» لدانتي سنة 1487م وأصبح بهذه الكتب التي أصدرها يعتبر من أشهر رجال الطباعة في أوربا.

وفي بادوفا القريبة كان يعمل هناك السلوفيني ماتيا سردونيس من سلوفن غرادتس، الذي طبع هناك 40 كتابا.

أما أشهر رجال الطباعة في فينيسيا، وربما الأشهر في كل العصور، فقد كان الدومانوسيو (1449- 1515م). وقد ولد مانوسيو في بازيانو بالقرب من فيليتريا وتعلم اليونانية في فيرارا ثم استقر في ميراندولا لدى الفيلسوف بيكو ديلاميراندولا. وفي 1488م قدم إلى فينيسيا حيث استفاد من معرفته لليونانية والتراث الكلاسيكي في إعداد مؤلفات الكتاب القدماء للطبع لحساب الناشرين-الطابعين. ومن المحتمل أن يكون بين هؤلاء أندريا كورساني، حيث تعلم مانوسير مهنة الطباعة، وقد، ساعدته معرفته لليونانية والتراث القديم أكثر حين أخذ يمارس مهنة الطباعة والنشر. وفي الواقع لم يكن مانوسيو يمارس الطباعة بشكل مباشر ولكن معرفته بتقنية الطباعة مكنته أن يطور إصدار الكتب إلى ذلك المستوى الذي جعل منه رائد الناشرين-الطابعين لعصر النهضة.

لقد اهتم مانوسيو بشكل خاص بطبع مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين اليونانيين ومع أنه لم يكن أول من طبع الكتب باللغة اليونانية، إلا أنه حقق أعظم نجاح له في هذا المجال بالذات. وهكذا فقد بدأ عمله سنة 1495م بطبع الكتاب المعروف بقواعد اللغة اليونانية التي وضعها قسطنطين لاسكاريس، ثم أصدر أعمال أرسطو في خمسة مجلدات كبيرة خلال (1495-1499م)، وأعمال توكيد وصوفوكل وأفلاطون وهيرودوت وغيرهم التي فاقت بشكل حروفها وجمال طباعتها كل ما صدر حتى ذلك الحين في هذا المجال. وبالإضافة إلى هذا فإن مانوسيو له الفضل أيضا في طبع مؤلفات

الكتاب اللاتين كفرجيل ويوفنال وهوراس وغيرهم. وقد استعمل في هذه الطبعات حروفا جديدة وأنيقة اشتهرت باسم الحروف «الإيطالية» أو حروف «الدينا» Aldina نسبة إلى اسمه، تلك التي صبها له خصيصا السباك المعروف فرانشكو غريفو من بولونيا. وعلى الرغم من معارضة مانوسيو الشديدة فقد أخذ رجال الطباعة يستعملون هذه الحروف إذ أنه كان يريد أن يحتكرها لنفسه فقط. وهكذا فقد طلب وحصل من مجلس فينيسيا على امتياز يخص به استعمال هذه الحروف فقط. إلا أن هذا لم يمنع رجال الطباعة في إيطاليا وأوربا من تقليد حروف وكتبه المطبوعة. وقد تميز في هذا المجال رجال الطباعة في ليون بحيث أن مانوسيو اضطر إلى أن ينشر 1553م ملاحظاته بعنوان «ملاحظات ألدو إلى رجال الطباعة في ليون»، حيث يذكر فيها أسماء رجال الطباعة الذين زوروا كتبه التي أصدرها من مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين. إلا أن هذه الملاحظات والامتيازات الجديدة التي حصل عليها من بابوات روما لم تمنع حروف «الدينا» من أن تنتشر وتصبح حروف أوربا في عصر الإحياء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مانوسيو قد أدخل تجديدا آخرا يتعلق بحجم الكتاب. فقد كان رجال الطباعة قبله يطبعون مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين بالحجم الكبير (Folio) بينما أخذ مانوسيو بطبع هذه المؤلفات بحجم أصغر (المثمن). وقد انتشر هذا الحجم لاحقا باعتباره مناسبا للحمل والقراءة وبشكل عام لاستعمال الكتاب، بينما كان الثمن الرخيص نسبيا للمطبوعات في هذا الحجم يضمن تغلغل الكتاب في كل الأسواق الأوربية. وقد كانت الشارة الطباعية التي نجدها في كل مطبوعاته، وهي تمثل مرساة يلتف حولها دلفين، أفضل ضمانة للنوعية الممتازة في كل أوربا.

لقد كان مانوسيو لا ينافس كناشر في ذلك الوقت. فبذوقه الرفيع وثقافته الواسعة كان يعرف اختيار الكتب التي يجب أن يطبعها، وكان يعرف اختيار المثقفين لإعداد المخطوطات وكان يعرف أخيرا كيف يصدر الكتاب بمستوى رائع من الناحية التقنية بحيث لم يكن هناك في كل أوربا من ينافسه في هذا المجال.

توفي مانوسيو سنة 1515م تاركا العمل في يد ابنه باولوس الذي تابع بنجاح هذه المسؤولية. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت وفاة مانوسيو مؤشرا

إلى نهاية مرحلة عظيمة، مرحلة مانوسيو، في تاريخ الطباعة.

وفي بداية القرن السادس عشر كان في فينيسيا فرع لأسرة جونتا المعروفة التي كانت تتعاطى أمور الطبع والنشر. وكان العضو الأول في هذه الأسرة، فيليبو جونتا، قد نشر سنة 1503م أول كتاب له وهو يتضمن قصائد للشعراء الرومانيين كاتول وبرويرس وتيبول. ومع هذا الكتاب الذي صدر بالحجم الصغير (المثمن) بدأ فيليبو نشاطه الواسع في نشر مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين التي لم تكن من حيث الجمال ودقة الطبع في مستوى أدنى من مطبوعات مانوسيو. وقد عمد فيليبو أيضا إلى جذب أولئك الذين يعرفون التراث الكلاسيكي بشكل ممتاز لكي يعدوا له طبعات محققة من هذا التراث. وفي الواقع لقد كان فيليبو يقلد مانوسيو فيما يتعلق بالحروف وحجم الكتاب وتجليده أيضا. أما الأخ الآخر لفيليبو، لوكانتونيو، فقد عمل لفترة من الوقت في فيرنسا ثم انتقل سنة 1489م إلى فينيسيا حيث عمل فترة في نشر الكتب ثم أسس مطبعته الخاصة التي نافس بها أشهر رجال الطباعة في فينيسيا. وفي فينيسيا أيضا بدأ نشاطه العضو الثالث من هذه الأسرة، جاكومو جونتا، ثم انتقل إلى ليون حيث بقي هناك 27 سنة (حتى 1547م) يمارس مهنة النشر. ففي هذه المدينة قام بنشاط واسع وبقي فترة من الزمن على رأس «شركة ليون للكتب» التي كانت مشهورة في ذلك الوقت، بينما كان له الكثير من العملاء والمخازن في مدن أوربية كثيرة. وكان أعضاء هذه الأسرة الكبيرة يتمتعون بصلات تجارية قوية حتى يمكن أن يقال أنهم قد تمكنوا من خلق شبكة للطبع والنشر والتوزيع تعتبر من أكثر الشبكات فعالية في أوربا خلال ذلك الوقت.

أما في باريس وفي فرنسا بشكل عام فقد تغلغلت الطباعة بعد سنة 1470م. ويعتقد بحق أن تأخر تأسيس المطابع هنا كان نتيجة للمعارضة القوية لنقابة باعة الكتب والنساخ التي كانت تحتكر في باريس إنتاج الكتاب لحاجات الجامعات وللمهتمين بشكل عام بالكتاب. إلا أن استيراد الكتاب المطبوع من إيطاليا وألمانيا أخذ يضعف هذه النقابة، ثم قام أستاذان من السوربون باستدعاء ثلاثة من الألمان العاملين في الطباعة (ميكائيل فريبورغر وأولريخ غرينغ ومارتين كرانس) لكي يؤسسوا في هذه الجامعة وتحت حمايتهم أول مطبعة في فرنسا.

كانت هذه مجرد بداية متواضعة للتطور الكبير للطباعة في باريس. فخلال فترة قصيرة أصبحت باريس من أهم مراكز الطباعة في أوربا. فقد وجد رجال الطباعة، كالنساخ من قبل، زبائن كثيرين في طلاب وأساتذة الجامعة هناك. ومن ناحية أخرى فقد كان هواة الكتب الأغنياء، وخاصة أعضاء الأسرة الملكية والكثيرون من أفراد الأرستقراطية الفرنسية، يشجعون الناشرين والطابعين على إصدار مطبوعات فخمة بالإضافة إلى الطبعات الموجهة إلى الجمهور العريض من القراء، حتى أن باريس أصبحت تشتهر في أوربا بمثل هذه الطبعات الفخمة.

لقد طبع هؤلاء الألمان الثلاثة خلال ثلاث سنوات عشرين كتابا كانت كلها دون استثناء بمضمون غير ديني: مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين ومؤلفات كتاب عصر الإحياء. أما فيما بعد فقد أخذ هؤلاء بطبع الكتب الدينية وغيرها من الكتب لأسباب مادية. ومن المثير أنه خلال السنوات الأولى كانت كل الكتب تطبع باللغة اللاتينية بينما لم يصدر أول كتاب في اللغة الفرنسية إلا في سنة 1477م. وقد أصدر هذا الكتاب حينئذ الناشر باسكيه بونهوم في ثلاثة مجلدات بعنوان «وقائع فرنسا الكبرى».

في نهاية القرن الخامس عشر كان عدد رجال الطباعة قد وصل إلى 35 مما وضع باريس، من حيث عدد العاملين في هذه المهنة وعدد الكتب المطبوعة، في جانب فينيسيا على رأس مراكز الطباعة في أوربا.

أما المدينة الفرنسية الأخرى التي تمركز فيها الإنتاج الطباعي فكانت ليون، المدينة-الميناء الغنية التي كان يجتمع فيها التجار ورجال الأعمال من بلدان كثيرة، والتي بسبب موقعها الجغرافي المناسب أصبحت في وقت مبكر مركزا مهما لإنتاج الكتاب. وقد أسست أول مطبعة في المدينة سنة 1473م، وفي تلك السنة طبع كتاب «المجموعة المختصرة» لانيوكنت الثالث. وفي هذه المدينة أيضا بدأ رجال الطباعة نشاطهم في اللغة اللاتينية، إلا أن هذا سيكون من الاستثناءات النادرة لاحقا لأنهم غيروا اهتمامهم بسرعة وأصبحوا يطبعون الكتب في لغة الشعب، في الفرنسية.

وقد وصل عدد رجال الطباعة في ليون حتى نهاية القرن الخامس عشر إلى حوالي الخمسين بحيث إن ليون أصبحت من حيث إنتاج الكتاب تأتي مباشرة بعد فينيسيا وباريس. وفي الواقع إن التطور الكبير للطباعة

في ليون يعود إلى الرخاء الاقتصادي وإلى بعد الناشرين والطابعين هنا عن اللاهوتيين المحافظين للسوربون الذين كانوا يثيرون الكثير من المتاعب لرجال الطباعة في باريس.

وبالمقارنة مع الكثيرين من الناشرين-الطابعين في إيطاليا، حيث كان هؤلاء يصدرون أكثر الكتب تلبية لحاجات مثقفي عصر الإحياء وهواة الكتب النفيسة ولأجل الحاجات الدينية، نجد أن هؤلاء في فرنسا كانوا أكثر انفتاحا إزاء جمهور عريض من القراء بحيث إن اختيار الكتب كانت تتناسب مع هذا الجمهور من القراء. وباستثناء باريس حيث كانت حاجة الطلاب والأساتذة تفرض طبع عدد أكبر من مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين من اليونانيين والرومانيين، نجد أنه من المدن الفرنسية-وخاصة في ليون- كانت تسود الكتب الموجهة إلى الجماهير. وهكذا نجد هنا كثيرا روايات فروسية ومؤلفات تاريخية وكتب التواريخ (الوقائع) وكتب دينية (كتب السواعي). وقد كانت هذه الكتب تحظى سابقا بشعبية كبيرة ولذلك كانت تنسخ كثيرا وتزين بالرسوم. وقد تخصص حينئذ في إصدار هذه الكتب في باريس الناشر أنطوان فيرار إذ أنه قد نشر حتى موته سنة 1512م 200 كتاب من هذا النوع، إلا أنه لم يكن الوحيد في هذا الميدان إذ أن الطلب على هذه الكتب كان كبيرا جدا.

إن هذا النوع من إنتاج الكتب في فرنسا كان يعكس من ناحية ويتابع من ناحية أخرى ثقافة الجماهير في نهاية العصر الوسيط. ولكن في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر سيؤدي التأثير القوي للنهضة الإيطالية إلى تغييرات في تركيب إنتاج الكتب في فرنسا.

وكانت الكتب في فرنسا حتى نهاية القرن الخامس عشر تطبع في حوالي أربعين مدينة. وبإنتاجها الذي يمثل 15 بالمائة من كل الكتب المطبوعة في أوربا فقد كانت فرنسا تحتل المركز الثالث بعد إيطاليا (42 بالمائة) وألمانيا (حوالي 30 بالمائة). وقد سجل الإنتاج الطباعي في فرنسا قفزة كبيرة خلال القرن السادس عشر، حين أصبح رجال الطباعة يتمتعون بحماية خاصة ومساعدة مالية من حكام فرنسا، وخاصة من الملك فرانسوا الأول، بحيث إن فرنسا أصبحت في عدة جوانب تملك الدور القائد في مجال الطباعة بأوربا.

أما فيما يتعلق بالبلدان الأوربية الأخرى فلم يطل كثيرا انتظار وصول هذه المهارة الجديدة لطبع الكتب بواسطة الحروف المتحركة. وهكذا فقد بدأ طبع الكتب في هولندا منذ 1473م وذلك في أولرهت وألوست. وفي السنة اللاحقة أخذ يوهان فلدنر بطبع الكتب في لوفن، في بلجيكا اليوم، المدينة الجامعية المعروفة حيث سيؤدي وجود عدد كبير من الطلاب والأساتذة إلى تشجيع إنتاج الكتاب هنا. وفي السنوات اللاحقة ظهرت المطابع في عدة مدن أخرى خلال القرن 15 كما في بريغ (1473م) وبروكسل (1475م) وهارلم (1483م) وغيرها. ومن هذه المدن اشتهرت بشكل خاص انتفربن خلال القرن السادس عشر حيث أصبحت من أقوى مراكز الطباعة في أوربا.

وقد نقل الألمان مهنة الطباعة إلى أسبانيا أيضا خلال العقد السابع من القرن الخامس عشر. وقد سارع رجال الطباعة الألمان إلى الذهاب لإسبانيا حيث طبعوا الكثير من الكتب الدينية في اللاتينية لأجل الكنيسة، التي كانوا يعملون تحت حمايتها وينشرون أكثر الكتاب تلبية لحاجاتها. ويبدو أن أول مطبعة قد دارت في برشلونة، بينما ظهرت في نهاية القرن المطابع في المدن الأخرى كفالنسيا وسرغسطة وأشبيلية وسالامانكا وغيرها التي أصبحت مراكز قوية لإنتاج الكتاب.

وفي إنكلترا كان الإنكليزي وليم كاكستون، التاجر السابق في الصوف، أول من اشتغل في هذه المهنة في بلاده بعد أن بقي حوالي ثلاثين سنة يعيش ويتاجر في بريغ، في بلجيكا اليوم، حيث كان يجد الوقت أيضا لترجمة رواية فروسية من الألمانية إلى لغته الإنكليزية. وقد أراد أن يطبع بنفسه هذه الرواية ولذلك فقد أقام خلال (1471- 1472م) في مدينة كلن ليتعلم مهنة الطباعة هناك. وبعد سنة (1473م) أسس مطبعة في بريغ حيث طبع في السنة اللاحقة كتاب «مجموعة تواريخ طروادة» الذي كان قد ترجمه بنفسه في وقت سابق. وفي هذه المطبعة طبع عدة كتب أخرى قبل أن يعود سنة 1476م إلى إنكلترا حاملا معه هذه المطبعة. وقد وضع هذه المطبعة حينئذ في دير وستمنستر في لندن وطبع هناك سنة 1477م أول كتاب في إنكلترا «الأقوال المأثورة أو أقوال الفلاسفة». وتحت رعاية القصر الملكي طور كاكستون بسرعة نشاطه الطباعي ولكنه اهتم أيضا بتطوير

شبكة توزيع الكتاب، التي لم تكن متطورة في إنكلترا حينئذ، وذلك لتصريف كتبه وكتب الناشرين الآخرين من فرنسا وألمانيا وغيرها من البلدان التي كانت تصدر الكتب. وبعد فترة قصيرة أخذ كاكستون في إنجاز مشاريع طباعية طموحة كطباعة «حكايات كانتربري» لـ «تشاوسر» 1478م وغيره من الكتب.

وسرعان ما انتشرت الطباعة في المدن الإنكليزية الأخرى وذلك بفضل الرواد الألمان أحيانا الذين كانوا لا يتقاعسون في نشر هذه المهارة. وهكذا فقد أسس الألماني تيودور رود القادم من كلن أول مطبعة في مدينة أوكسفورد الجامعية سنة 1478م.

ومن المراكز الطباعية المهمة أصبحت براغ، التي كانت من أولى المدن الأوربية التي أسست فيها جامعة (1348م). وحتى نهاية القرن الخامس عشر كان قد طبع 35 كتابا في بلاد التشيك.

أما في بولونيا فقد طبع أول كتاب في كراكوف التي كانت في ذلك الوقت ملتقى التجار والمثقفين من البلاد المجاورة. وقد كان هذا الكتاب عبارة عن تقويم سنة 1474م، ويبدو أنه قد طبع في نهاية 1473م من قبل الألماني كاسبر ستراوبة. وقد تطورت وازدهرت الطباعة في كراكوف أيضا بفضل وجود آلاف الطلاب والأساتذة في الجامعة المعروفة لهذه المدينة.

وقد بدأ أيضا السلاف الجنوبيون بطبع كتبهم الأولى قبل نهاية القرن الخامس عشر وقد طبع أول كتاب في اللغة الكرواتية سنة 1483م بعنوان «كتاب القداس حسب قانون البلاط الروماني». وللأسف فإن الكتاب لا يشير إلى مكان الطبع، ولذلك برزت وجهات نظر مختلفة منذ القرن الماضي حين بدأت الأبحاث تدور حول هذا الكتاب النادر. وهكذا فإن رجل الدين البولوني ميخائيل ك. بوبروفسكي قد أدلى برأيه منذ سنة 1820 بأنه من المحتمل أن يكون هذا الكتاب قد طبع في فينيسيا. وقد قبل كثير من الباحثين هذا الرأي دون أن يمحصوه حتى وقت متأخر، بينما قاد التحليل المفصل للكتاب وللحقائق الأخرى مؤخرا إلى الرأي القائل بأن هذا الكتاب قد طبع في كرواتيا. وحسب. كولونجيتش فإن هذا الكتاب قد طبع في كوسيني، وهي اليوم بلدة صغيرة في كرواتيا بينما كانت في القرن الخامس عشر مركزا ثقافيا مهما. ومن المعروف بالفعل أن كوسيني قد احتضنت

أول مطبعة في بلاد السلاف الجنوبيين، إذ أنه قد طبع في هذه المطبعة سنة 1491م «كتاب الصلوات» في الحروف الغلاغولية. ولكن لا تزال الأدلة القوية تنقصنا للتأكيد على أن «كتاب القداس» أيضا قد طبع في هذه المطبعة بالذات.

أما المطبعة الأخرى لطبع الكتب الغلاغولية فقد وجدت في سني، حيث طبعت فيها سنة 1494م الطبعة الثانية لـ«كتاب القداس» بينما صدرت سنة 1496م ترجمة كرواتية للكتاب المعروف «كتاب الاعتراف العام» للراهب الفرنسيسكاني الإيطالي م. كاركانو. وبينما لا نعرف شيئا عن الكتب الأولى التي طبعت في كوسيني فإن معلوماتنا عن الكتب التي طبعت في سني أكثر من الأخرى. وهكذا نعرف أن هذه الكتب التي صدرت في سني قد طبعها بلاج باروميتش، من جزيرة كرك، الكاهن القانوني لسني. وحول هذه الشخصية المثيرة نعرف أنه قد عمل فترة من الزمن في مطبعة أندريا تورساني في فينيسيا، حيث شارك في طبع «كتاب الصلوات» الغلاغولية سنة 1493م. وقد سبك باروميتش في هذه المطبعة الحروف الغلاغولية التي عاد بها إلى وطنه وبدأ بها في السنة اللاحقة في طبع الكتب. وهكذا فقد طبع في سني خلال 1494م «كتاب القداس» الغلاغولي للمرة الثانية حيث يرد في نهايته أنه قد شارك في طبعه بالإضافة إلى باروميتش رئيس الشمامسة سيلفستر بدريتشيتش والشماس غاشبار ترتشيتش. أما الكتاب الآخر فقد طبعه في سني باروميتش لوحده. أما فيما يتعلق بمساعديه في طبع الكتاب الأول فلا تتوفر لدينا الكثير من المعلومات. ويبدو أن ترتشيتش قد تخلى عن هذا العمل بينما سيبرز بدرتيشتيش لاحقا باعتباره الشخصية الأولى في هذه المطبعة خلال سنوات (1507- 1508م)، أي في الوقت التي أصبحت فيها المطبعة في بيته، حين أصدر خمسة كتب غلاغولية أخرى.

ومن المرحلة الأولى لتطور الطباعة الغلاغولية تعتبر أيضا مطبعة رييكا وكان قد أسس هذه المطبعة أسقف مودروشا شيمون بيغنار-كوزتيشتيش من زادار، وهو شخصية معروفة في الحياة الاجتماعية وأحد الكتاب الذي كان يصدر كتبه في اللاتينية والكرواتية. وقد طبعت في مطبعته هذه خلال (1530- 1531م) خمسة كتب غلالولية من بينها «كتاب سير الأساقفة الرومانيين».

إلا أن هذه الكتب الغلاغولية لم تكن هي الوحيدة التي طبعت في هذه المرحلة المبكرة لتطور الطباعة، إذ أن بعض الكتب الكرواتية طبعت في فينيسيا. ففي هذه المدينة أخذ رجال الطباعة من أمثال برغدينوس دي باسكوليبوس وأندريا تورساني وداميانو دي غورغونزولا في طبع الكتب بالحروف الغلاغولية لصالح رجال الدين الكرواتيين.

ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك مطبعة مهمة أخرى في أطراف بلاد السلاف الجنوبيين قبل نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. وفي الواقع لقد كانت هذه المطبعة في تسيتينيه عاصمة الجبل الأسود، حيث طبعت هناك خلال 1493- 1496م عدة كتب بالحروف الكيريلية[*1]. وقد كان على رأس هذه المطبعة الراهب ماكاريه الذي كان قد أتقن تماما هذه المهنة في فينيسيا، حيث أوصى هناك بل سبك الحروف الخاصة بالمطبعة التي حملها معه. وقد بدأ سنة 1493م في طبع «كتاب الثمانيات» أحد أهم إنجازات هذه المطبعة، الذي صدر أخيرا في السنة اللاحقة. ونظرا لأن هذا الكتاب لا يشير في أي موضع إلى مكان الطبع فقد رأى بعض الباحثين أن هذا الكتاب قد طبع في فينيسيا ومن هنا نقلت نسخة إلى الجبل الأسود. إلا أن الأقرب إلى الصحة هو الرأي القائل بأن هذا الكتاب قد طبع في تسيتينه بالذات. ففي واحد فقط من الكتب الستة التي طبعها ماكاريه بالحروف الكيريلية يرد ذكر اسم تسيتينية بشكل صريح. ولذلك يعتقد بحق أن كل الكتب الأخرى التي صدرت باسم ماكاريه، بما في ذلك «كتاب الثمانيات» قد طبعت في مطبعة تسيتينيه. وحول هذه المطبعة هناك فرضية تقول إنها عملت فترة من الزمن في مدينة أوبود. إلا أنه لا توجد بعد أدلة كافية لدعم هذه الفرضية. وعلى كل حال فقد توقفت هذه المطبعة عن العمل حين اضطر مؤسسها وراعيها الأمير جورج تسرنويفيتش أن يغادر الجبل الأسود أمام تقدم الأتراك العثمانيين وأن يلتجئ إلى البندقية سنة 1496م. وليس من المعروف هنا إن كان الراهب ماكاريه قد هاجر معه أيضا أم لا.

لقد كانت المطبعة الأولى والثانية الغلاغولية في كرواتيا الغربية والثالثة

(*1) الحروف الكيريلية، نسبة إلى المبعوث البيزنطي كيريل Ciril هي التي بدأت تستعمل للغات السلافية منذ القرن التاسع الميلادي-إلى جانب الحروف الغلاغولية-وهي لا تزال تستعمل إلى اليوم لكتابة بعض اللغات السلافية (الروسية، البلغارية، الصربية إلخ) بينما تكتب بعض اللغات السلافية الأخرى بالحروف اللاتينية. (المترجم).

في تسيتينية قد بدأت عملها في لحظة صعبة للغاية في تاريخ الشعوب السلافية الجنوبية (اليوغسلافية)، وبالتحديد في الوقت الذي كان فيه الأتراك العثمانيون قد فتحوا معظم بلاد السلاف الجنوبيين وأصبحوا على مقربة من المدن التي كانت تعمل فيها تلك المطابع. وفي تلك الظروف فقد كان من المستغرب فعلا كيف أن تلك المطابع بقيت تعمل وكيف تمكنت من طبع بعض الكتب. وفي الواقع لقد كان العمل بالنسبة لأصحاب هذه المطابع يعني مسؤولية كبيرة بينما كان للعاملين في هذه المطابع في تلك الظروف يعني مشروعا مهما جدا لحياة الشعب الذي ينتمون إليه، أي أنهم لم يكونوا يعملون في ظروف طبيعية كما كان يعمل زملاؤهم في فينيسيا وفي بقية المدن الأوربية.

وهكذا حتى نهاية القرن الخامس عشر كانت المطابع قد أسست في كافة المراكز الثقافية الرئيسية في أوربا. فخلال أقل من خمسين سنة كانت المطابع قد غطت 260 مدينة حيث وجدت فيها 1100 ورشة للطباعة.

غ-موقف الكنيسة والمجتمع من اختراع غوتنبرغ

لقد استقبل معاصرو غوتنبرغ اختراعه بحماس عظيم. فقد أراد الجميع حينئذ، رجال الإحياء والأمراء والكنيسة والمواطنون والجامعات، الاستفادة من خيرات هذه المهارة الجديدة. وفي الواقع أن هذا الحماس العظيم لاختراع غوتنبرغ يفسر في حد ذاته سرعة انتشار الطباعة في كل أرجاء أوربا. وكما لا يحدث إلا نادرا في تاريخ الإنسانية فقد حظي اختراع غوتنبرغ بالمساعدة الواسعة ولقي حسن التفهم لأن الجميع في ذلك الوقت كانوا واعين إلى الأهمية الكبيرة لهذا الاختراع. ولذلك كثيرا ما نجد في العقود الأولى لتطور الطباعة الرأي المدون بأن هذا الاختراع من الله وأنه عمل خارق جاء من السماء لخير الإنسان.

في الواقع أن هذه ليست المرة الأولى التي تنسب فيها الكتابة والكتاب إلى قوة خارقة. فالمصريون القدماء كانوا يعتقدون أن الإله توت هو الذي وهب الناس الكتابة، بينما كان اليونانيون يعتقدون أنهم أخذوا الكتابة من بروميثيوس، على حين أن اليهود يؤمنون بأن يهوه هو الذي سلم الكتابة إلى موسى.

وكان أحد رجال الدين من زيوريخ، تيودور بيبليانـدر، هـو الـذي بلـور بشكل واضح الرأي القائل بأن الله قد ألهم غـوتنبـرغ لاختـراعـه المطبعـة الأولـى. ففي كتابه «مرآة تاريخ العالـم» (1558م) يذكر بيبليانـدر أن اللـه قـد فعل هذا لينشر بسهولة أكثر تعاليم المسيـح وليـحد مـن ضـربـات الكفـار، ولكي يتمكن بابوات روما على اعتبـارهـم ممثلـي المسيـح علـى الأرض أن يقاوموا بنجاح أكبر التعاليم المزيفة.

إن أمثال هذه الآراء نجدها حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وهكذا نجد مثلا أن رجال الطباعة الأوائل في إيطاليا (سفاينهايم وبانارتز) يتحدثان في الإهداء الذي زينا به أحد كتبها المطبوعة سنـة 1468م عن هذا «الفن الجديد» كهدية من السماء. أما الفيلسوف المعروف بيقولا كوزانسكي، الذي شجع الطباعة بحماس كبير، فقد أطلق علـى هـذه المهارة الجـديـدة اسم «المهارة المقدسة». وحوالي سنة 1488م كتب الراهب الدومينيكاني فيليكس فابري في كتابه «تاريخ السويف» Historia Suevorum أنه لا يوجد بعد الطباعة «ما هو أكثر عظمة في العالم وما هو أكثر قيمة للمديح وما هو أكثر فائدة، وأكثر ربانية وأكثر قداسة».

وفي هذا الاتجاه أيضا تحدث عن الطباعة مارتن لوثر في كتابه «خطابات المائدة» (1532م). وهكذا فالطباعة بالنسبة له هي أعظم منحة إلهية لأن كل العالم سيعرف بفضلها الدين الصحيح في كل اللغات. وبهذا لا يتميز لوثر عن عدد كبير من أولئك الذين يمجدون الطباعة بهذه الكلمات أو بكلمات مشابهة، إلا أنه فهم أفضل من الكثيرين من معاصـريـه المغـزى الحقيـقـي للاختراع الجديد. وفي الواقع أن هذه الكلمات التي يمجد بها الطباعة كان قد كتبها بعد أن فشل بابوات روما في منع انتشار كتبه وبعد أن منعت كتبه سنة 1521م بمرسوم إمبراطوري. وبالفعل فإن لوثر كان لا يستطيع دون هذه «المنحة الإلهية» أن ينشر أفكاره بسرعة بمثـل ذلك النـجاح. وهـكـذا فـقـد أصبح الكتاب المطبوع سلاحا قويا في يد لوثر ومؤيديه وفي أيدي الكثيـر من الحاملين للأفكار الجديدة.

إلا أن الطباعة، على الرغم من توقعات الكثيرين، أصبحت تمثل خطرا كبيرا على الدين وعلى المؤسسات الاجتماعية آنذاك، وعلى المفاهيم المحافظة العلمية والفلسفية. وهكذا بعد عشرين سنة تقريبا من طبع غوتنبرغ للتوراة

بدأ يبرز قلق البعض من احتمال إساءة استخدام الطباعة وخاصة في حالة ممارسة الأفراد «غير المخولي» لهذه المهنة. ولكن ما حدث هو أن هؤلاء الأفراد «غير المخولين» كانوا يتزايدون بالسرعة التي كانت تنشر فيها الطباعة لأن ما يجري في المطابع كان يخرج غالبا عن رقابة السلطات المدنية والدينية. وحول هذا الخطر النابع من إساءة استخدام الطباعة لدينا ملاحظات لمؤلف مجهول من القرن الخامس عشر نشرها في كراس بعنوان «التوجيه المفيد لممارسة مهنة الطباعة». وبعد أن يشرح المؤلف هنا فوائد الطباعة لنشر تعاليم المسيح يلفت النظر إلى النتائج غير المرغوبة لهذه المهنة. وكان أكثر ما يقلق المؤلف هنا هو صدور عدد متزايد من ترجمات الكتاب المقدس إلى اللغات الشعبية، ويصل الحال بالمؤلف إلى أن يسوق أحد عشر دليلا ضد طبع ونشر مثل هذه الترجمات. أما الرأي الأساسي للمؤلف فينسجم مع مرسوم تطبيق الرقابة الذي أصدره رئيس الأساقفة برتولد هنبرغ سنة 1485م، أي أن فهم الكتب المقدسة يحتاج إلى معرفة مسبقة وهو ما ينقص الجماهير الأمية التي لا تستطيع لأجل ذلك أن تفهم ما يوجد في تلك الكتب.

لقد صدر هذا الكراس والذي يعتقد بأنه طبع خلال سنوات 1480-1490م، في الوقت الذي طبعت فيه عدة ترجمات ألمانية للتوراة. وفي ذلك الوقت بالذات صدرت ترجمة ألمانية لهذا الكراس لدى الطابع المعروف أنطون كوبرغ في نورنبرغ. ويبدو أن صدور هذه الطبعة دفع بدوره إلى إصدار «التنبيه» Avisamentum.

وفي الواقع أن القلق من سوء استخدام الطباعة لم يسيطر فقط على مؤلف هذا الكراس ورئيس الأساقفة هنبرغ إذ سرعان ما شمل القلق أيضا السلطات المدنية والدينية ولكن ليس فقط لأجل ترجمات الكتب المقدسة إلى اللغات الشعبية. وهكذا لن نجد من الآن فصاعدا إلا في لحظات نادرة العبارات التي تمدح مهنة الطباعة بينما سنواجه أكثر المراسيم والفرمانات البابوية[*2] وقوائم الكتب الممنوعة. أما رجال الطباعة فقد أخذوا يواجهون بدورهم وبشكل متزايد لجان الرقابة والمحاكم، وقد وجدوا أنفسهم في هذا الوضع أيضا الكتاب وأصحاب المكتبات والناشرون وأولئك الذين كانوا

(2*) bulla فرمان بابوي كان يتميز بختم رصاصي. (المترجم).

يمولون أو يساعدون بأية طريقة الكتب غير المرغوبة والخطرة.

وهكذا فقد شهدت السبعينات، وبالتحديد سنة 1479م، أول تدخل من بابوات روما ضد الكتب غير المرغوبة. ففي تلك السنة بادر البابا سكيستو الرابع، ذلك الذي كان يرعى العلماء والفنانين والذي أمر ببناء وتزيين الكنيسة البابوية في الفاتيكان، إلى تفويض جامعة كلن بأن تتخذ إجراءات ضد الذين يطبعون ويشترون الكتب الهرطقية وحتى الذين يقرءونها. وقد أرسل البابا حينئذ هذه «الفتوى» بناء على طلب الجامعة لأنه في تلك المدينة، كما في غيرها من المدن، كانت قد برزت مشكلة كيفية الحد من زخم الكتب غير المرغوبة والهرطقية وما شابه ذلك. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في كلن بالذات، وقبل سنة من إرسال البابا لتلك «الفتوى»، كان قد منع بواسطة المحكمة كتاب «حوار حول حرية الكنيسة»، الذي يمكن أن نعتبره أول تدخل للسلطات المدنية ضد كتاب مطبوع. وهكذا فإن رسالة البابا سيكستو الرابع كان عليها أن تبرر فقط ما كانت السلطات المحلية قد اتخذته وما سوف تتخذه حتى دون موافقة البابا.

أما أول مرسوم لتطبيق الرقابة فقد اتخذ في سنة 1485م فيماينس بالذات، أي بالضبط في المدينة التي ولد فيها «الفن الأسود». وقد أصدر هذا المرسوم حينئذ رئيس الأساقفة هنبرغ وورد فيه أن بعض الناس «يسيئون استخدام هذه المهنة رغبة في الشهرة أو طمعا في الكسب». ولأجل هذا ينتقد صاحب المرسوم بعنف خاصة ترجمات الكتب الدينية والقانونية وغيرها من اللاتينية واليونانية إلى اللغات الشعبية. فهنبرغ لا يرى أية فائدة في هذه الترجمات لأن الشعب لا يفهمها ولا يجب أن يفهمها، ولذلك فإن بعض الأفراد يستغلون هذه الترجمات إذ أنهم لا يتورعون عن تحريف النصوص وتزييف المضمون واختلاف عناوين الكتب وأسماء الكتاب لأجل الربح السريع فقط. ولقطع الطريق على هذه الأمور فقد أمر رئيس الأساقفة حينئذ بأن تعرض جميع الترجمات قبل أن تطبع على لجنة للرقابة. وفي ماينس مثلا كانت لجنة الرقابة تتألف من خمسة أعضاء وكانت تبحث بعناية قبل أن تقرر مصير أية ترجمة. وفي الواقع لقد كان هذا أول حالة للرقابة الوقائية وهي السابقة التي ستلجأ إليها كثيرا فيما بعد السلطات الدينية والمدنية.

وبالإضافة إلى هذا فقد أمر رئيس الأساقفة أن تؤلف لجنة مشابهة في جامعة أرفورت، وأن تشكل لجنة للرقابة من ثلاثة أعضاء لكي تراقب الكتب المطبوعة التي كانت ستعرض وستباع في معرض فرانكفورت للكتب. وبهذا الإجراء الأخير اتسعت كثيرا سلطة لجنة الرقابة لأنه أصبح بيدها قرار مصير كل كتاب يعرض للمعرض بغض النظر عن مصدره. أما بالنسبة لأولئك الذين يتحدون هذه الإجراءات فقد حدد لهم رئيس الأساقفة عقوبات قاسية جدا: الحرمان، وحرق الكتب بالإضافة إلى غرامة نقدية تبلغ مائة غولدن ذهبي.

إلا أن الأمر لم ينته عند هذا الحد لأن سلطة هنبرغ كانت لا تتخطى حدودها المكانية، ولذلك فقد أخذت تصدر مراسيم مشابهة في بقية المدن. وفي هذا الاتجاه كان لفرمانات البابوات في روما أهمية كبيرة.

وقبل حركة الإصلاح التي قادها لوثر كان بابوات روما قد أصدروا ثلاثة فرمانات ضد كتب غير مرغوبة. فقد أصدر البابا أينوشنت الثامن الفرمان الأول بعنوان Inter multiplices سنة 1487م. إلا أنه لم ينص إلا على ممارسة الرقابة على المطابع المسيحية. وقد أصدر البابا ألكسندر السادس الفرمان الثاني بالعنوان ذاته سنة 1501م دون أن يتضمن أية إضافات جوهرية باستثناء ذكر المدن التي لا بد فيها من ممارسة الرقابة على رجال الطباعة: كلن، ماينس، ترير وماغدلبرغ.

أما الفرمان الثالث الذي أصدره البابا ليو العاشر سنة 1515م بعنوان «فرمان حول طبع الكتب» وأقره المجمع الكنيسي الخامس في لاتيران، فقد وسع كثيرا الإجراءات التي يمكن أن تتخذ ضد الطابعين غير المناسبين في كل العالم المسيحي وحدد أيضا غرامات قاسية ضد هؤلاء. وفي هذا الفرمان نجد أن البابا ليو العاشر يمدح أولا اختراع الطباعة كمنحة من الله إلى الناس في الأرض، ويعدد الفوائد التي تجنيها الكنيسة من هذا الاختراع، إلا أنه يقرر بعد ذلك أن الكثير من الطابعين يسيئون استخدام هذا الاختراع بطبعهم للكتب التي تسيء دون احترام للشرف، والإيمان، والأخلاق السائدة والأفراد. ولأجل هذا فإن البابا، بتأييد من المجمع الكنيسي المذكور، قد هدد بعقوبة الحرمان ومنع طبع أي كتاب دون موافقة الأسقف أو المحقق في محكمة التفتيش. وبالاستناد إلى هذا فقد أصبح مصير كل كتاب لا

ينال الموافقة هو الحرق.

وقد حدد هذا الفرمان الكتب التي يشملها المنع: الترجمات من اليونانية والعبرية والعربية والكلدية والترجمات إلى اللغات الشعبية بالإضافة إلى الكتب الشائعة حينئذ، التي يتم فيها التهجم على مختلف الأفراد. ومن الطريف أن هذا الفرمان قد حدد للمخالفين غرامة نقدية قدرها مائة دوقية ذهبية على أن تصرف المبالغ المتجمعة هنا لبناء كنيسة القديس بطرس في روما.

ولكن يلاحظ هنا أن الفرمان الثالث لم يذكر واجب السلطات المدنية في تنفيذ أوامر البابا، وهذا يدل على أن الكنيسة قد أدركت منذ ذلك الحين أنها عاجزة عن كبح ومراقبة الطابعين الذين يتزايد عددهم باستمرار، وخاصة في تلك البلدان التي لم تكن فيها سلطة البابوات مطلقة. ومن الصعب هنا تحديد أثر هذه الفرمانات في منع الطابعين والناشرين من طبع أو إصدار الكتب التي لا تناسب الكنيسة. ففي الحقيقة لقد كانت هذه الكتب تتزايد بسرعة على الرغم من الفرمانات البابوية والإجراءات الزجرية وقد أدى هذا لاحقا إلى أن يصدر بابوات روما مزيدا من الأوامر ضد حرية الطباعة، إلا أن هذا الأسلوب أيضا لم يحرز نجاحا كبيرا.

ومما يثير الاستغراب هنا أن هذه الفرمانات البابوية الثلاثة لم تنشر بشكل مناسب حتى أن الكثير من الطابعين والناشرين لم يروها أبدا ولم يعرفوا مضمونها. وهكذا فإن فرمان سنة 1487م، على سبيل المثال، لم ينشر إلا مرة واحدة في المجموعة التي ضمت الدستور والوثائق الأخرى لمدينة كلن، وهذا لا يكفي على الإطلاق لإيصال مضمون الفرمان إلى من يهمهم الأمر. أما الفرمان الثاني (1551م) فلم ينشر أبدا بينما لم ينشر الفرمان الثالث (1515م)أيضا بأسلوب يضمن وصول مضمونه إلى من يهمهم الأمر. ومن الواضح هنا أنه حتى أولئك الذين أصدروا هذه الفرمانات لم يكونوا مقتنعين بفعاليتها.

إلا أن الإجراءات التي اتخذتها الكنيسة لاحقا، بعد الحركة الإصلاحية للوثر، كانت فعالة أكثر وناجحة إلى حد ما في البلدان التي بقيت خارج هذه الحركة الإصلاحية. وفي هذه المرة شاركت السلطات المدنية أيضا بإجراءات فعالة جدا في مقاومة الكتب الخطرة. وهكذا وجدت منذ القرن

السادس عشر أنظمة متقدمة للإجراءات ضد طبع وتوزيع الكتب غير المرغوبة. ولكن نظرا لكون سلطة الكنيسة والحكام لم تكن تشمل أطراف البلدان المسيحية فقد كان المؤلفون والطابعون يجدون المجال الكافي للمناورة، وبالتحديد للتأليف ولطبع ونشر الكتب التي لم تكن تعجب هذه الكنيسة أو ذلك الحاكم.

د- الكتاب المخطوط بعد اختراع غوتنبرغ

قد يبدو هذا غريبا للوهلة الأولى إلا أن الكتاب المطبوع لم يستطع بالفعل أن يزيح جانبا الكتاب المخطوط على الفور. ومع أن الكتاب المطبوع بثمنه الرخيص وضمانته وخروجه الواسع للسوق بشكل خاص، قد جعل نسخ المؤلفات باليد مسألة زائدة عن الحاجة إلا أن الكتاب المخطوط قد استمر بدوره لفترة طويلة من الزمن بعد اختراع غوتنبرغ. وكان مما ساهم في استمرار الكتاب المخطوط قانون قوة الاستمرار والتقليد، والتباهي بين هواة جمع الكتب النفيسة، أو الحاجة الفعلية لتأمين بعض النصوص التي لا يمكن أن تطبع أبدا في المطابع أو التي تطبع بنسخ قليلة.

وكان النساخ المحترفون، الذين كان عددهم كبيرا في كل البلدان الأوربية خلال ذلك الوقت، قد وجدوا أنفسهم في وضع صعب بعد اختراع غوتنبرغ مع الفارق طبعا في الزمان والمكان، أي أن وضعهم قد ساء بالتدريج واختلف من بلد لآخر. وفي الواقع لقد ساعد هواة جمع الكتب لأغنياء هذه المهنة على الاستمرار حتى بعد أن أصبح كل شخص قادرا على شراء الكتاب المطبوع، بل ربما يكون هذا السبب وراء إصرارهم على طلب الكتاب المخطوط. وهكذا فقد حدث ما لم يكن يتوقعه أحد إذ أنه في النصف الثاني للقرن الخامس عشر، أي الوقت الذي كانت فيه المطابع تصدر آلاف النسخ من الكتب المختلفة، ولدت مجلدات رائعة كتبت بخط اليد وزينت من قبل أشهر الرسامين. وفي الواقع لقد كانت هذه المجلدات الثمينة كما كانت عليه حتى ذلك الحين، أي تعبيرا عن المكانة الاجتماعية والترف لدائرة معينة من الناس. إلا أن النساخ في ذلك الحين لم يقتصروا في عملهم على هذا الإنتاج الأرستقراطي للتباهي الاجتماعي. فالطلب الكبير على الكتاب العادي وليس الفخم الذي يحتاج إليه العالم والأديب والطالب في الجامعة

والتاجر والطبيب وحتى ربة المنزل، بالإضافة إلى كل أولئك الذين تعلموا في المدن القراءة والكتابة، كان قد وصل إلى ذلك الحد حتى أن عدد النساخ غير المحترفين-الذين ينسخون لأنفسهم ما يحتاجون إليه-قد زاد كثيرا. ويقدر هنا أن النساخ من محترفين وغير محترفين قد أنتجوا في النصف الثاني للقرن الخامس عشر الميلادي، أي في الوقت الذي كانت تدور فيه مطابع كثيرة في أوربا، كمية من المخطوطات تساوي ما أنتج خلال النصف الأول لذلك القرن، أي حين كان النسخ باليد الوسيلة الوحيدة للإكثار من الكتاب.

وعلى الرغم من هذا لم يمض عقدان أو ثلاثة بعد طباعة غوتنبرغ للتوراة حتى بدأ عدد النساخ المحترفين يتناقص بسرعة. ويكفي أن نذكر هنا أن إحدى التقديرات تدل على أنه في فرنسا فقط خلال 1470م كان لا يزال يعمل ستة آلاف ناسخ، بينما انخفض عددهم إلى النصف بعد عشر سنوات فقط. ويمكن أن نتتبع مثل هذا الانخفاض في عدد النساخ المحترفين في بقية البلدان الأوربية أيضا حتى أنه بدأت تسمع حينئذ الأصوات التي تشكو من نقص النساخ الجيدين.

وإذا وضعنا جانبا المخطوطات الفخمة، التي كان يوصي عليها الحكام وهواة جمع الكتب النفيسة، نجد أن أكثر المخطوطات في القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر قد ولدت على الأغلب لتلبية الحاجة للكتب وخاصة لتلك الكتب التي لم تكن تطبع أبدا أو لم تكن تطبع بنسخ كافية. وفي هذا الإطار يمكن أن نذكر أولا الكتب في اللغة اليونانية التي أصبح ألدو مانوسيو يطبعها في المستوى المطلوب بعد 1490م. وبالإضافة إلى النساخ المحترفين فقد كان يقوم بنسخ الكتب اليونانية كثير من رجال الإحياء لحاجتهم الخاصة كارازمو روتردام وفيسينو وبوديه وغيرهم. وإلى جانب هذه فقد كانت تنسخ أيضا الكتب المدونة في اللغات الأخرى التي لم تكن تطبع أبدا أو لم تكن تطبع بنسخ كافية. ومن هذه مثلا كانت الكتب التي كان ينسخها لحاجات الكنيسة القساوسة الغلاغوليون في كرواتيا الساحلية، لأن عدد الكتب المطبوعة كان قليلا جدا بحيث لا يكفي لتلبية كافة الحاجات. أما في اللغة اللاتينية فقد كانت تنسخ تلك الكتب التي لم تعد تطبع في العقود الأولى بعد اختراع غوتنبرغ، ولكن كان يحدث أحيانا

أن تنسخ الكتب الكثيرة التي طبعت سابقا والتي بيعت بثمن رخيص نسبيا. ومن هذه الحالات غير النادرة يمكن أن نذكر حالة الفيلسوف بيكو ديلا ميراندولا الذي أوصى سنة 1481م بأن ينسخ له كتاب بلين الضخم «التاريخ الطبيعي». وقد حفظت مخطوطات كثيرة لمؤلفات أرسطو وشيشرون وغيرهم من النصف الثاني للقرن الخامس عشر، أي في الوقت الذي كانت فيه هذه المؤلفات قد طبعت عدة مرات. ولدينا حالات كثيرة كانت تنسخ فيها المؤلفات بالاستناد إلى النصوص المطبوعة مما يدل على أن الأغلبية حينئذ كانت تعتقد بأنه من الأرخص أن تنسخ الكتاب بنفسها أو توصي على نسخة من أن تشتري النسخة المطبوعة. وفي حالات أخرى كان بعض الأفراد يوصي على نسخ الكتب بدافع من الرغبة لامتلاك كتب على شكل مخطوطات ثمينة. ومن المثير أن بعض رجال الدين استمروا برفض استعمال الكتاب المطبوع في الطقوس الكنسية حتى نهاية القرن السادس عشر.

وعلى الرغم من هذا فإن عصر الكتاب المخطوط انقضى بشكل نهائي، وأصبح عدد الكتب المخطوطة منذ نهاية القرن الخامس عشر يقتصر على ما يطلبه هواة الكتب النفيسة لدى النساخ الذين كانوا يتناقصون باستمرار، وعلى الكتب التي لم تعد تطبع.

ذ- كمية الكتب المطبوعة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

إن أفضل مؤشر للثورة التي أحدثتها المطبعة في مجال الثقافة الروحية هو كمية الكتب التي طبعت في العقود الأولى التي أعقبت اختراع غوتنبرغ. فقد غطت كافة أرجاء أوربا أعداد كبيرة من الكتب بحيث أن الكتاب أصبح في متناول كل من يعرف القراءة وكل من يرغب في تكوين مكتبة خاصة. وهكذا فإن الكتب التي كانت تحفظ بحرص في الزوايا المخفية لمكتبات الأديرة والكنائس والقصور وغيرها من مكتبات العصر الوسيط، والتي رأت النور بعد التنقيب المتواصل عنها من قبل رجال الإحياء، قد أصبحت الآن قريبة لأوسع شرائح المجتمع.

وعلى الرغم من أن الكتب التي طبعت حتى نهاية القرن الخامس عشر تحولت إلى هدف لأبحاث كثيرة وذلك نظرا لأهميتها الكبيرة لدراسة ثقافة مختلف الشعوب الأوربية بشكل عام، فإنه ليس من السهل تجميع المعطيات

المتعلقة سواء بعدد الكتب التي صدرت أو بعدد النسخ التي طبعت في ذلك الوقت. وبعد فشل المحاولات الفردية في إحصاء الكتب التي طبعت في تلك الفترة فقد اتخذت مبادرة دولية سنة 1904م لإحصاء كل الكتب المطبوعة في القرن الخامس عشر. ومع أن هذا المشروع لم ينجز حتى اليوم بسبب المصاعب المختلفة فإن ما تجمع من معطيات حتى الآن يساعد بشكل تقريبي كل معرفة ما طبع في تلك الفترة. وكانت التقديرات القديمة للخبراء تقول بأن عدد العناوين التي طبعت يصل إلى 40 ألف بتيراج إجمالي قدره عشرة ملايين نسخة. أما التقديرات الحديثة فتشير إلى 30- 35 ألف عنوان، ولكنها ترفع من حجم التيراج(*3) الإجمالي ليصل إلى 15- 20 مليون نسخة.

ر - الكتاب المطبوع - الأداة الجديدة لنشر المعلومات

لقد أدت هذه الكميات الكبيرة من الكتب التي طرحت إلى نتائج كبيرة وبعيدة المدى بالنسبة للعلم والثقافة، وليس من السهل هنا تحديد وتحليل هذه النتائج بكل تفاصيلها. إن قائمة هذه النتائج طويلة جدا ويكفي هنا أن نقول إن الكتاب المطبوع قد أثر بشكل جوهري في انتشار القراءة والكتابة، وخاصة بين سكان المدن وانتشار استعمال اللغات الشعبية كلغات للأدب والعلم، كما مكن من خلق تواصل علمي وعالمي يستطيع أن يواجه مشكلات كثيرة لم تمس حتى ذلك الحين، وأصبح أخيرا دافعا قويا للتصور العلمي وللتغيرات الاجتماعية وغير ذلك.

ولعل من أهم نتائج الكتاب المطبوع تسريع التواصل في المعلومات بين الشرائح المختلفة للمجتمع وبين البلدان المختلفة لأوربا. ففي القرون السابقة كان من الصعب جدا لأكثرية السكان أن تصل إلى الكتاب لأن مكتبات الأديرة وبقية مكتبات العصر الوسيط كانت مفتوحة فقط لبعض الأفراد النادرين من ذوي الامتيازات. وقد تحسن الوضع خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد نتيجة لتزايد ورش النسخ المدنية إذ أن المتعلمين أصبحوا يجدون الكتاب بسهولة أكثر من السابق. أما في فجر النهضة الأوربية فقد احتل الكتاب مكانه الثابت في التعليم المدني وفي الثقافة وأصبح ينتقل بسرعة أكبر نتيجة لتجديد الطرق التجارية ووصل المدن

(*4) التيراج: Tirage تعني عملية سحب الطباعية - أي إمرار الأوراق على المطبعة لطبعها. (المحرر).

البعيدة بعضها ببعض.

وعلى الرغم من هذا فقد كان على أولئك الذين يبحثون عن كتاب ما، في المرحلة السابقة للطباعة، أن ينفقوا الكثير من المال وأن يصرفوا الكثير من الوقت لأجل ذلك. وبالإضافة إلى هذا لا بد أن نذكر أن الكثير من كتب الثقافة القديمة كانت لا تتوفر في الأصل لأن النسخ النادرة من هذه الكتب، وأحيانا الوحيدة، كانت تبقى مجهولة في مكتبة أحد الأديرة أو في مكتبة إحدى الكنائس.

ولكن مع ظهور الكميات الكبيرة من الكتب بعد اختراع غوتنبرغ فقد أصبح من السهل نسبيا أن يجد الإنسان الكتاب الذي يريده. فقد أصبحت الكتب الآن، مع ما تتضمنه من أفكار ومعارف علمية جديدة، تنتقل بسرعة من مدينة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر.

وهكذا فإن المهتمين بالفلك في ألمانيا مثلا كانوا يجدون بسهولة الكتب المتعلقة بالفلك التي تطبع في إيطاليا.

ويمكن هنا أن نذكر كمثل آخر مدينة دوبروفنيك (راغوصة)، التي كانت مدينة تجارية غنية في ذلك الحين تصل سفنها إلى كل موانئ المتوسط وحتى خارجه أيضا. ففي هذه المدينة نجد في القرن الخامس عشر عددا كبيرا من الكتب المطبوعة في فينيسيا والمدن الإيطالية الأخرى (روما، بريشا وميلانو) بالإضافة إلى الكتب المطبوعة في بازل ونورنبرغ وباريس الخ.

ويلاحظ هنا أن الكتب المطبوعة في اللغات الشعبية، التي كان عددها كبيرا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، كانت تنتقل ببطء من بلد إلى آخر بالمقارنة مع الكتب المطبوعة في اللغة اللاتينية. فقد بقيت اللغة اللاتينية حتى ذلك الحين لغة العلم والطقوس الكنسية، وحتى لغة الأدب، على الرغم من الانتشار المتزايد للغات الشعبية. ومع ذلك فقد أخذت تكتب في هذه اللغات الأعمال العلمية مما أدى بشكل ما إلى انهيار وحدة السوق الدولي للكتاب إذ أن هذه الكتب المطبوعة في اللغات الشعبية كانت تباع على الأكثر في البلدان التي تطبع فيها.

لقد ساعدت الشبكة المنظمة للكتاب أي شخص في أية جهة من جهات أوربا على أن يجد بسرعة نسبيا الكتاب الذي يريده. وبشكل خاص كانت

الكتب المطبوعة لدى الطابعين-الناشرين الكبار في فينيسيا وليون وبازل تصل بسرعة إلى القراء. فقد كان لهؤلاء أحيانا شبكاتهم الخاصة لتصريف الكتاب كما كانت كتبهم تعرض في معارض الكتب الكبيرة وحيث يأتي إلى هناك كل من يهتم بشراء الكتب. وتساعدنا الكثير من الرسائل والوثائق، بالإضافة إلى الكتب نفسها، على إعادة تصور الطرق التي كانت تنتقل عبرها الكتب، وهذا يعني المعلومات التي تحملها، في الفترة المبكرة لمرحلة غوتنبرغ.

ز-استخدام الكتاب للأغراض الدعائية

يبدو أن العمل في طبع التوراة في مطبعة غوتنبرغ قد توقف قليلا إلى أن طبع حينئذ كراس سياسي دعائي. ويعتقد البعض أن هذا الكراس مع غيره من المطبوعات ربما طبع في مطبعة أخرى، لغوتنبرغ أيضا. كانت تعمل إلى جانب الأولى التي كانت تطبع التوراة. إلا أن وجود مطبعة أخرى في ماينس في تلك الفترة المبكرة لم يتأكد بعد بالاستناد إلى المصادر التاريخية. ولذلك يعتقد أن هذا الكراس طبع في مطبعة غوتنبرغ بالذات التي كانت تطبع التوراة حينئذ. وفي الواقع أن توقيف طباعة التوراة ومنح أفضلية الطباعة لكراس من هذا النوع يدل أن المجتمع في ذلك الوقت قد أدرك تماما الأهمية التي ستكون لهذه التقنية الجديدة في تطوير جديد وهو التواصل بالكتابة.

أما الكراس الذي اضطر غوتنبرغ بسببه إلى توقيف العمل في طبع التوراة فقد صدر في نهاية سنة 1454م تحت عنوان «تنبيه المسيحيين ضد المضطهدين». وفي الواقع لقد صدر هذا الكراس حينئذ بمناسبة حدث تاريخي كبير، ألا وهو فتح القسطنطينية سنة 1453م على يد الأتراك العثمانيين الذي هز أوربا في ذلك الوقت وأدخل الخوف إلى قلوب الكثيرين من الحكام الأوربيين. وقد كان على رأس الحملة الدعائية، التي انطلقت حينئذ ضد العثمانيين، بابوات روما الذين كانوا يريدون تحريض الحكام الأوربيين على المشاركة في حرب مقدسة لحماية أوربا من الخطر الذي يقترب منها. وهكذا فقد سارع البابا نيقولا الخامس فور سقوط القسطنطينية إلى إصدار فرمان بابوي في أيلول سنة 1453م يدعو فيه

الحكام الأوربيين إلى المشاركة في حرب صليبية. وهكذا في الوقت الذي كان فيه الجيش العثماني يتقدم في عمق صربيا ويعلن بعض الحكام عن استعدادهم لإيقاف هذا التغلغل العثماني، وتسمع فيه الخطب النارية لسكرتير الإمبراطور الجرماني فريدريك الثالث، أ. بيكولومين، الذي أصبح لاحقا البابا بيو الثاني، صدر الكراس الذي طبعه غوتنبرغ والذي يبدو أنه استلهم أحد نصوص بيكولومين.

وليس من المعروف هنا عدد النسخ التي طبع بها هذا الكراس إذ أنه كان كغيره من المطبوعات المشابهة التي تقرأ عندما يكون موضوعها راهنا ثم تهمل بعد ذلك. وهكذا لم يتبق من هذا الكراس إلا نسخة واحدة اكتشفت سنة 1806م في مكتبة اليسوعيين في أوغسبرغ، وهي اليوم تحفظ في مكتبة بافاريا الرسمية في ميونيخ.

وقد أصبحت الكراسات والبيانات بسرعة أداة مهمة للتواصل خاصة في أوساط المدن. وقد كانت هذه المطبوعات مزينة بالصور في أحيان كثيرة وموجهة في الدرجة الأولى إلى أفراد الطبقة الوسطى في المدن، التي كانت قادرة على قراءة هذه المطبوعات وعاجزة عن فهم اللغة اللاتينية. ومن هنا فقد كانت الكراسات والبيانات تكتب في اللغات الشعبية لكي يفهمها الجميع. وهكذا فإن كراس غوتنبرغ أيضا كتب حينئذ باللغة الشعبية لأنه كان موجها إلى الجمهور وليس إلى النخبة الاجتماعية المتعلمة.

لقد كانت الدعاية بواسطة الملصقات والبيانات تملك منذ البداية كل الخصائص التي ستشتهر فيما بعد:

1- لغة الكراسات والبيانات مفهومة من قبل أولئك الذين توجه إليهم هذه الكراسات والبيانات.

2- المضمون قصير ومصاغ بشكل جيد.

3- التيراج الكبير لكي يقرأها أكبر عدد ممكن من الناس.

لقد كانت هذه مجرد بداية، إذ أن الاعتماد على الملصقات والبيانات لنقل الأفكار قد ازداد بسرعة كبيرة. وهكذا يبدو من القائمة التي أعدتها «لجنة إعداد الفهرس العام للكتب القديمة» في هالة سنة 1914م إن أكثر من ألف ملصق وبيان طبعت خلال القرن الخامس عشر. وفي الواقع أن هذه القائمة لم تتضمن إلا تلك البيانات والملصقات التي حفظت إلى اليوم،

وهذا لا يشكل بالتأكيد إلا نسبة صغيرة جدا مما طبع في ذلك الحين. ومن بين هذه البيانات والملصقات لدينا عدد كبير منها يتعلق بالدعوة إلى الحرب ضد الأتراك العثمانيين.

س- الكتب المطبوعة للشعب

مع ظهور الطباعة ازدهرت كثيرا الأدبيات الدينية والتعليمية والمسلية وما شابه ذلك التي كانت توجه للشعب. وفي الحقيقة فقد كانت هذه الأدبيات موجودة قبل غوتنبرغ، ولكن لم يكن في الإمكان أن تتطور بهذا الشكل لتلبي الحاجات لمحدودية انتشار الكتاب المخطوط ولاقتصار معرفة القراءة على الشرائح الاجتماعية العليا فقد كانت روايات الفروسية الرائجة وكتب التواريخ وما شابه ذلك تنسخ باهتمام في العصر الوسيط،إلا أن الجماهير الأمية كانت تعرف مضمونها على الأغلب من خلال التناقل الشفوي.

أما في النصف الثاني للقرن الخامس عشر، وخاصة منذ القرن السادس عشر فقد زاد بسرعة كبيرة عدد أولئك الذين يعرفون القراءة. ونظرا لأن معظم هؤلاء في المدن (التجار والحرفيون والمواطنون العاديون) كانوا لا يهتمون كثيرا بالكتب المطبوعة في اليونانية واللاتينية فقد أخذ رجال الطباعة يطبعون لهم عددا كبيرا من المؤلفات الأدبية في اللغات الشعبية والتقاويم المختلفة والبيانات، بالإضافة إلى الكتب ذات الطابع العلمي التي تحتاجها هذه الشرائح من القراء. فقد صدر مثلا في أوغسبرغ بألمانيا سنة 1478م كتاب حول كيفية إنتاج العرق الجيد وصدر في أولم سنة 98 14م كتاب آخر حول كيفية معالجة الحصان المريض الخ.

وهكذا فقد أخذ المؤلفون من ناحية والناشرون من ناحية أخرى يحاولون إرضاء حاجات هذا الجمهور من القراء الذي كان يتضخم باستمرار، ولذلك فقد كانوا يؤلفون له الكتب المفهومة والمفيدة والمسلية والرخيصة. فقد تخلى المؤلفون عن الأسلوب المزين بالذكريات الميثولوجيا وبالاستشهادات المعرفية للكتاب الكلاسيكيين، وأخذوا يحاولون الكتابة بأسلوب أوضح ولغة أبسط أقرب ما تكون إلى اللغة المحكية للقراء. ولتقريب المؤلفات الأدبية وغيرها من التجار والحرفيين وربات البيوت وغيرهم من سكان المدن فقد

ترجمت كتب كثيرة من اللاتينية إلى اللغات الشعبية، ونشرت بعض الأعمال الشعرية المعروفة (كـ«تريستاني وأزولدا» مثلا) نظرا لأن النثر كان يفهمه الجميع. وهكذا نجد أن مترجم الطبعة الألمانية التي صدرت سنة 1498م في أوغسبرغ لهذه القصة المشهورة من قصص الحب القروسطية يكتب في مقدمته: «نشرت هذه القصة لأجل الذين لا يريدون كتبا كهذه في الشعر ولأجل أولئك الذين لا يستطيعون قراءة الشعر والتمتع به».

وقد حملت الطباعة في طياتها شيئا جديدا ومهما بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون إلا لغتهم الخاصة: التوراة في اللغات الشعبية. فقد صدرت في ألمانيا الترجمة الألمانية للتوراة منذ 1466م لدى الطابع يوهانس منتلين. وقد استند لوثر وأتباعه فيما بعد على لغة الشعب بالذات لمجابهة روما. ومن هنا فإن التوراة في اللغة الألمانية أصبحت سلاحا قويا في يد لوثر وحركته الإصلاحية. وقد عبر حينئذ الكاتب فالنتين إيكلسامر بشكل دقيق عن موقف البروتستانت في كتابه الذي صدر سنة 1534م: «لم يكن التعليم أبدا بهذه الأهمية كما هو اليوم إذ أنه يمكن أن يقرأ كتاب الله وبقية الكتب الدينية كل من يرغب بذلك بحيث أنه يمكن له أن يستنتج بنفسه ما يريد».

لقد أخذ رجال الطباعة الآن في إيطاليا وفرنسا وغيرها من البلدان الأوربية في تنسيق خططهم الطباعية مع حاجات الجماهير. إلا أن هذا لم يتم فورا في بداية تطور الطباعة لأنه في ذلك الحين كانت تطبع الكتب على الغالب لحاجات رجال الإحياء، وبشكل عام للنخبة الاجتماعية المتعلمة ثم بشكل خاص للكنيسة. إلا أن طلب الشرائح المتعلمة في المدن على الكتب سرعان ما دفع رجال الطباعة إلى طبع الكتب التي يرغبونها. ومنذ البداية كانت هذه الكتب الموجهة للشعب تتميز عن تلك الكتب الموجهة للنخبة المتعلمة من الأغنياء. ففي أغلب الأحيان كانت هذه الكتب تصدر في حجم صغير لكي تحمل في اليد بسهولة. وفي هذه الناحية لم تكن هذه تتميز عن الكتب المخطوطة من عصر ما قبل غوتنبرغ. فحتى في ذلك الوقت كانت الكتب الموجهة للشعب تتميز عن المجلدات الضخمة والفخمة سواء من حيث مظهرها المتواضع وحروفها الكبيرة أو من حيث حجمها الصغير وتدوينها على الورق الرخيص عوضا عن «الورق الثمين». وحتى بعد غوتنبرغ فقد حافظ رجال الطباعة على هذه المزايا بحيث أنه أدى إلى إنتاج كبير

للكتاب بالاستناد إلى تلك النماذج للكتاب المخطوط. وهكذا فقد كانت الكتب المطبوعة للشعب تتميز أيضا، بالإضافة إلى الأمور الأخرى، بالرسوم المتواضعة، وحتى الساذجة أحيانا، التي كانت تعد بالاستناد إلى المعايير الجمالية للفن الشعبي.

ويلاحظ هنا ازدياد الصلات بين هذا الإنتاج من الكتاب والثقافة الشعبية بشكل عام وبين ثقافة النخبة في المجال الأدبي بشكل خاص. ولكن لا بد هنا من القول أن التواصل والتداخل بين هاتين الثقافتين لم يبدأ مع بداية الطباعة. فكتاب بوكاشيو «ديكاميرون» Dekameron أفضل نموذج لتغلغل الفن الشعبي الشفوي في الأدب المكتوب في الوقت الذي سبق غوتنبرغ، بينما يجسد كتاب رابليه «غازغانتوا وبانتا غرويل» بأفضل شكل العالم الخيالي للفن الشعبي بعد اختراع الطباعة.

ش- تيراج الكتاب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

إذا استثنينا الافتراض بأن توراة غوتنبرغ طبعت في 180-200 نسخة فإنه لا توجد لدينا معطيات أخرى عن حجم التيراج لكتب كثيرة طبعت خلال القرنين الخامس عشر-السادس عشر للميلاد. ولكن من ناحية أخرى لا تنقصنا هذه المعطيات المتعلقة بعدد كبير من الكتب التي طبعت في العقود الأولى لتطور الطباعة، وخاصة في الفترات اللاحقة، بحيث لا يعد من الصعوبة أن نتابع تطور تيراج الكتب في الأوقات المختلفة. وسنستشهد هنا ببعض المعطيات التي توضح هذه النقطة المهمة في تاريخ الكتاب. وهكذا فقد كان ك. شفانهايم وأ. بانارتز يطبعان الكتب في سوبياك وروما في (275) نسخة وفي حالات نادرة (أربع حالات فقط) في (300) نسخة. وفي 1490م طبع يوهانس آي سبيرا رسائل شيشرون في (300) نسخة، بينما لم يتجرأ على طباعة كتاب بلين «التاريخ الطبيعي» في أكثر من (100) نسخة نظرا لتكاليفه الكبيرة وتصريفه غير المؤكد. وحوالي سنة 1470م طبع نوسيماستر في فولينيو كتابا في (200) نسخة الخ.

وفي العقد السادس والسابع من القرن الخامس عشر كانت الكتب التي طبعت في تيراج أكبر من هذا نادرة جدا. ومن هذه الحالات النادرة ما حدث في فينسيا سنة 1478م حين طبعت التوراة في (930) نسخة.

أما في العقد الثامن لذلك القرن فقد كانت الكتب تطبع وسطيا في (400-500) نسخة، بينما كان هذا الرقم يتضخم في بعض الحالات. وهكذا فقد خاطر أحد رجال الطباعة في فيرنسا خلال الثمانينات حتى طبع أعمال أفلاطون في (1025) نسخة. وفي الواقع أن هذه الحالات لم تعد نادرة في فيرنسا بشكل خاص في نهاية القرن الخامس عشر، أي في الوقت الذي رفع فيه الطابعون الناشرون تيراج كتبهم إلى حوالي (1000) نسخة. ولدينا حالة نادرة جدا حين قام أحد رجال الطباعة في برشلونة، ل. لوسكر، بطباعة (18) ألف نسخة من صكوك الغفران لصالح إحدى الكنائس البنيديكتية. ولكن من الواضح أن الأمر هنا لا يتعلق بكتاب للسوق.

وقد ارتفع تيراج الكتب منذ بداية القرن السادس عشر ليتوقف عند حدود (1000-1500) نسخة، حيث بقي في هذا المستوى فترة طويلة من الزمن. إلا أن هذا بالطبع لن يحد من تزايد إنتاج الكتاب بشكل عام لأن عدد المطابع الجديدة كان يزداد بسرعة وكان يزداد معه عدد الكتب الجديدة التي تطبع في هذه المطابع.

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان الطابعون-الناشرون نادرا ما ينشرون الكتب في تيراج كبير إذا لم يكونوا متأكدين من بيع الكتب بسرعة. وقد أصبحت معروفة حالة بعض الطابعين الذين لم يحترموا قوانين السوق ولذلك فقد تورطوا في مشاكل مالية كبيرة. وقد حدث هذا مثلا سنة 1471م مع فيندلينوري سبيرو من فينسيا الذي طبع كتاب «مجموعة الرسائل» في (1000) نسخة، ولكنه تورط في مشاكل مالية كبيرة نظرا لأنه لم يتمكن من توزيع الكتاب خلال وقت محدد. ولأجل هذا كان الطابعون-الناشرون يصدرون في كل طبعة ذلك العدد من النسخ الذي يتأكدون من بيعه خلال وقت قصير نسبيا، وفي حالة استمرار الطلب على الكتاب يعمدون إلى إصدار طبعة ثانية وثالثة. ولدينا هنا الكثير من الأمثلة التي توضح هذه الطريقة التي كان يتبعها الطابعون-الناشرون. فخلال سنوات (1465م-1525م) أصدر الطابعون-الناشرون (331) طبعة من الأناجيل المرفقة بالتعليقات وذلك في تيراج إجمالي يصل إلى (213500) نسخة، ثم (153) طبعة من كتاب المزامير في تيراج إجمالي يصل إلى (70) ألف نسخة، و(88) طبعة من المزامير المختارة (وخاصة تلك التي ترجمها سافونارولا في تيراج

إجمالي يبلغ (57) ألف نسخة الخ. وكانت كل طبعة من هذه قد صدرت في تيراج محدود ولكن استمرار الطلب على الكتاب كان يدفع دائما إلى إصدار طبعات جديدة لتلبية الحاجات.

لقد كان هذا يشمل أيضا الكتب غير الدينية التي كانت تثير اهتمام الجمهور لعدة أسباب. ومن المعروف هنا حالة الكتاب المهم «تمجيد الجنون» لـأرازمو روتردام الذي صدرت طبعته الأولى في أذار 1515م من 1800 نسخة وبعد شهر فقط لم يبق لدى الناشر إلا (60) نسخة ولذلك فقد أصدر فورا الطبعة الثانية. وخلال حياة أرازمو فقد صدر من كتابه هذا (27) طبعة. أما كتابه «الأمثال» فقد كان مطلوبا إلى حد أنه صدرت منه عدة طبعات في عدة بلدان في وقت واحد، فقد صدرت الطبعة الأولى سنة (1500م) والثانية (1502م) وأصدر منه ألدومانوسيو ثماني طبعات في فينسيا في (8000) نسخة (كل طبعة في 1000 نسخة)، بينما أصدر بروين في بازل عشر طبعات خلال سنوات (1513- 1539م) وكل طبعة في ألف نسخة، على حين أن م. شور أصدر في ستراسبورغ خلال (1509- 1520م) أحد عشر طبعة وكل طبعة في ألف نسخة الخ. وهكذا فقد صدرت من هذا الكتاب خلال حياة مؤلفه (34) طبعة في تيراج إجمالي قدره (34) ألف نسخة. أما كتب مارتن لوثر، التي كانت تطبع كثيرا وفي تيراج مرتفع، فهي من الحالات الاستثنائية. وفي الواقع أن كتب لوثر كانت تنتشر بسرعة في البلدان الأوربية الأخرى، وليس في ألمانيا فقط، كما يبدو في رسالة رجال الطباعة المعروف في بازل جون فروبن إلى لوثر خلال 1515م. ففي هذه الرسالة يذكر فروبن أنه أرسل (600) نسخة من كتبه إلى فرنسا وإسبانيا وأن كتبه تقرأ في باريس حتى من قبل أساتذة السوربون، وأن أحد أصحاب المكتبات في بافيا قد اشترى كمية كبيرة من نسخ كتبه وباعها في مختلف المدن الإيطالية. وبالإضافة إلى هذا فقد أخبر فروين لوثر في هذه الرسالة أنه أرسل كتبه إلى إنكلترا أيضا. وقد وصل الأمر سنة 1519م إلى حد أن ثلث الكتب المطبوعة في ألمانيا كانت تحمل اسم لوثر ومن تلك السنة لدينا رسالة من أحد القراء من بازل يذكر فيها أنه بحث في كل المدينة دون جدوى عن كتب لوثر إذ أنها كلها بيعت منذ زمن.

وفي الواقع أن المعطيات التي تتحدث عن سرعة انتشار كتب لوثر في

ذلك الوقت تبدو غير قابلة للتصديق. وهكذا فإن كتابه «الأمة الألمانية» طبع في (18) آب 1520م في أربعة آلاف نسخة وبعد خمسة أيام فقط بدأ العمل لإصدار الطبعة الثانية التي رأت النور في (23) آب. وقد بيعت (1400) نسخة من كتاب له في معرض فرانكفورت للكتاب، بينما صدرت أهم أعماله (ترجمة التوراة) في طبعات كثيرة. وكانت الطبعة الأولى للعهد الجديد قد صدرت سنة 1522م في ثلاثة آلاف نسخة وحتى نهاية حياته (1546م) كانت ترجمته للتوراة، بشكل كامل أو على شكل مختارات، قد صدرت في طبعات كثيرة في نصف مليون نسخة. ويكفي هنا أن نذكر للتدليل على دور الطباعة في ترويج أفكار لوثر أنه خلال حياته فقد صدرت (3753) طبعة من أعماله في (77) مدينة ألمانية وأوربية (فرنسا، إيطاليا، إنكلترا)، بمشاركة من (227) طابع وناشر.

ص. توزيع الكتاب، معارض الكتاب، المؤلفات المرجعية

كان إنتاج الكتاب وبيعه قد وصل إلى هذا المستوى نظرا لأن الطابعين-الناشرين عرفوا كيف يخلقون صلات فعالة مع جمهور القراء بعد اختراع غوتنبرغ. فقد كان الطابع-الناشر قبل أن يقرر طبع الكتاب وقبل أن يحدد عدد النسخ التي يصدرها من الكتاب يحاول أن يقدر مدى الطلب على ذلك الكتاب في السوق. وكان يقوم بهذا العمل العملاء التجاريون (factores) الذين يحاولون أن يعرفوا بشتى الأشكال مدى الاهتمام بالكتاب الذي يريد أن يصدره الناشر. ولهذا السبب فقد كان هؤلاء يزورون المدن وخاصة خلال انعقاد المعارض المحلية فيها، أي في الوقت الذي يتوافد فيه الناس كثيرا على هذه المدن من المناطق المجاورة.

وفي هذه الحالة كان العميل التجاري يتحدث مع الناس ويوزع عليهم الملصقات الإعلانية ويعرض عليهم المطبوعة كما يحدث الآن، ويرسل للناشر أخيرا كل المعطيات المتوفرة لديه. ومن المعروف لدينا أن هؤلاء العملاء التجاريين كانوا منذ العقد السادس للقرن الخامس عشر يتنقلون من إيطاليا إلى ألمانيا، ومن ألمانيا إلى فرنسا. وهكذا فإن شافر نفسه، تلميذ غوتنبرغ وصاحب المطبعة بعد وفاة حميه فوست، سافر إلى باريس لتنظيم بيع كتبه التي يطبعها وترك هناك عميلا تجاريا دائما له (هـ. شتاتين). وقد كان

لبقية الطابعين-الناشرين عملاء تجاريون في المدن والبلدان المختلفة، بحيث أنه يمكن الحديث عن الأشكال الأولى للتنظيم الدولي لشبكة الكتاب منذ العقود الأولى التي أعقبت اختراع غوتنبرغ. وهكذا فقد أصبح بيع الكتب من أهم العوامل لصناعة الطباعة ولذلك يجب ألا نستغرب اهتمام كل رجال الطباعة في ذلك الوقت بهذه القضية. وقد انتهى الأمر ببعضهم، كما مع رجل الطباعة المعروف ن. ينسون الذي كان يعمل في طباعة الكتب في فينسيا، إلى أن يتركوا مهنة الطباعة ويمارسوا فقط مهنة التوزيع. وهكذا فقد أصبحت لشركة ينسون الكثير من الممثلين في المدن الإيطالية. ولم يمض وقت قصير حتى أصبحت التجارة بالكتاب مهنة قائمة في حد ذاتها ومنفصلة عن الطباعة ونشاط النشر. وبهذا فقد أصبح تجار الكتب يشاركون بدور مهم في صناعة الطباعة الضخمة وفي نشاط النشر وفي إقامة صلة الوصل بين الطابعين-الناشرين وبين جمهور القراء. إلا أن هذا لم يتم بسرعة لأن الكثير من الطابعين-الناشرين استمروا لعدة قرون بعد اختراع غوتنبرغ يبيعون بأنفسهم مطبوعاتهم. وعلى كل حال فقد قد تبلورت منذ القرن الخامس عشر مهنة الكتبي كحلقة خاصة في استمرار إنتاج الكتاب وتوزيعه.

ومن ناحية أخرى فقد ظهرت منذ القرن الخامس عشر في أوربا مؤسسة مهمة كنتيجة مباشرة لثورة غوتنبرغ معارض الكتب. فكانت هذه المعارض صلة طبيعية وفعالة بين هؤلاء الذين ينتجون البضاعة وأولئك الذين يبحثون عنها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المعارض التي كانت تباع فيها الحيوانات والأقمشة الواردة من البلدان البعيدة والتوابل ومختلف البضائع الأخرى كانت عبارة عن أماكن عادية للتجارة، ولذلك فقد كان من الطبيعي أن يظهر فيها باعة الكتب أيضا ثم يتحول البعض منها إلى معارض خاصة بالكتب. وفي هذه المعارض كان يلتقي البائعون والمشترون للكتب بالإضافة إلى الناشرين الذين كانوا يأتون للاتصال بشكل مباشر مع القراء والناشرين الآخرين ليعرفوا ماذا يوجد في المطابع، وما هي الكتب التي يمكن أن تطبع، ومن هم الكتاب الذين يشدون القراء إليهم. وبعبارة أخرى فقد كانت معارض الكتب فرصة رائعة للناشرين كي ينسقوا فيما بينهم نشاطهم. وهنا كان يمكن لهؤلاء أن يتعرفوا على الجديد في التقنية الطباعية وعلى الناشرين الجدد والمنافسين. ولكل هذه الأسباب فقد أصبحت معارض الكتب بسرعة

عاملا شديد الأهمية في تطور نشاط النشر وأصبحت ذات أهمية كبيرة أيضا لإقامة الصلة مع جمهور القراء. وهكذا فقد تطور بسرعة معرض الكتاب في فرانكفورت، على نهر ماين، أي بالقرب من مهد الطباعة-ماينس، حيث سيأتي شافر بنفسه وغيره من الطابعين-الناشرين المعروفين. وإلى هذا المعرض سيأتي بكتبه أيضا رجل الطباعة المعروف أنطون كوبرغر من نوزنبرغ، الذي كان له منذ (1506م) محلا «خاصا» يترك فيه الكتب التي لا تباع خلال المعرض إلى السنة الأخرى.

الناشر هنريش كبنر يصف الكتب في البرميل لإرسالها إلى أحد الزبائن. اللوحة رسمت في نورمبرغ حوالي 1543.

في هذه المدينة، وفي الشارع الذي أصبح يسمى باسم الكتب (شارع الكتب Buchgasse) حتى الآن، كان يصل مع كتبهم الطابعون-الناشرون من بازل وفيرتمبرغ وهايدلبرغ وبقية المدن الألمانية ومن مختلف المدن الأوربية. ففي سنة 1569م مثلا كان يشارك في معرض فرانكفورت[17] من باعة الكتب في فرانكفورت و(3) من فينيسيا و(4) من ليون و(5) من جنيف. وكان هذا الطابع الدولي يميز أيضا معارض الكتب الأخرى الكبيرة كما في ليون ولايبزغ وغيرها. وتصور لنا النصوص المحفوظة، التي تصف جو هذه المعارض، على نحو حيوي ما كان يدور هناك. فقد كان الباعة ينادون بصوت مرتفع على عناوين الكتب التي يعرضونها أمامهم على الطاولات، بينما كان الناشرون يتناقشون فيما بينهم بحيوية حول الكتب التي يفكرون بإصدارها، على حين أن الشارين كانوا يساومون البائعين على الكتب التي يريدونها. لقد كانت هذه الصورة تتكرر في المعارض الأخرى أيضا التي تبيع مختلف البضائع.

في هذه المعارض للكتب كان يحدث شيء غير مألوف حتى ذلك الحين، أو على الأقل ليس بهذا المستوى الجديد. فقد كان القارئ يشتري الكتاب دون أن يعرف شيئا عن الناشر كما أن الناشر لم يكن يعرف بدوره من سيشتري كتابه. وبعبارة أخرى فقد انقطعت الصلة المباشرة بين المنتج والمشتري، تلك الصلة التي كانت قوية للغاية في القرون السابقة. وقد كان لانقطاع هذه الصلة نتائج إيجابية إذ أن الكتاب أصبح في وسعه أن ينتقل بحرية أكبر عن العصور السابقة، حين كان الطريق بين منتج الكتاب وطالبه محدودا، فقد كان الحصول على الكتاب صعبا أو مستحيلا لكل أولئك الذين لم يكونوا في هذه الطريق.

ومن النتائج الإيجابية لاختراع غوتنبرغ كان تحطيم الاحتكار الذي فرضته العلاقة السابقة بين الذين ينسخون الكتاب والذين يوصون على الكتاب، وفتح الطرق أمام تنقل الكتاب بشكل حر بين كل الشرائح الاجتماعية.

إلا أن معارض الكتب لم تكن في وسعها أن تحل كل المشاكل لكي يجد الكتاب طريقه إلى القارئ. فقد كان لا بد من البحث عن طرق أخرى لكي يتمكن القراء من التعرف على الإصدارات الجديدة، وخاصة أولئك القراء الذين لا يقطنون المدن التي تنعقد فيها معارض الكتب. وقد وجد أخيرا

الناشرون وباعة الكتب وسيلة لكي يتعرف حتى هؤلاء القراء على ما لديهم، وبالتحديد قوائم مختلفة للكتب تبين الكتب التي رهن البيع أو الكتب التي أصدروها. وقد كانت هذه القوائم تطبع على شكل ملصقات وترسل للأفراد والمؤسسات.

وعلى ما هو معروف حتى اليوم فإن أول من فكر أن يعلن بالملصقات عن كتبه التي سيطبعها كان هاينريخ إيفستاين من ستراسبورغ وذلك خلال 1466م. وسرعان ما قلده في العمل الآخرون أيضا ففي 1470م أصدر ب. شافر في مانيس قائمة للكتب الجاهزة للبيع تتضمن (21) عنوانا، بينما نشر سنة 1472م إعلانا عن الكتب التي يفكر في طبعها. ومع الطابعين-الناشرين الجدد فقد ازدادت هذه الإعلانات مما كان يدل على أن المنافسة بينهم قد حميت وأصبح عليهم بالتالي أن يحرصوا على أن يصدروا إنتاجهم في الوقت الملائم والتيراج المناسب. وهكذا فقد أصبح هذا الإعلان عن الكتب مألوفا منذ العقد السابع للقرن الخامس عشر. ففي (1470م) و(1472م) قام شفانهايم وبانارتز بطبع قوائم الكتب التي يعرضونها للقراء مع بعض التجديد الذي سيأخذ به الآخرون فورا. فإلى جانب العناوين أضافا هنا ثمن الكتب وعدد النسخ التي تتوفر لديهما للبيع.

وكان لفهارس الكتب التي يصدرها الناشرون دور مشابه. وقد طبع ألدو مانوسيو سنة (1498م) أول فهرس من هذا النوع يضم الكتب التي أصدرها. وفي هذا الفهرس وردت عناوين (15) كتابا في اللغة اليونانية مع أثمانها. وقد طبع هذا الناشر فهرسين آخرين من هذا النوع في (1503م) و(1513م). وفي سنة (1541م) قام حفيده ألدو مانوسيو الشاب بطبع فهرس لإصداراته، بينما طبع الناشر الهولندي المعروف بلانتيني في النصف الثاني للقرن السادس عشر عدة فهارس من هذا النوع. وقد قلده في هذا الكثير من الناشرين الآخرين. وكان هؤلاء الطابعون-الناشرون يرسلون إلى كل أولئك الذين يعتقدون بأنهم مهتمون بكتبهم أو بالكتب التي تتوفر لديهم للبيع. وهكذا فقد أرسل أنطون كوبرغر من نورنبرغ فهرسه الذي طبعه سنة (1480م) إلى دير الدومينيكان في دوبروفنيك (راغوصة) لأنه كان يعتقد بأنه سيجد بين الرهبان المتعلمين هناك من يهتم بالكتب التي يعرضها للبيع. وقد حفظت هذه النسخة من الفهرس إلى يومنا هذا في الدير

المذكور. وقد طرأ تجديد آخر على الفهارس ألا وهو إصدار فهرس مشترك لعدة ناشرين كما فعل الكتبي ألبرخت من ميمنغن سنة (1500م). فقد ورد في هذا الفهرس (200) عنوان من الكتب التي أصدرها عدة ناشرين والتي هي متوفرة للبيع لديه.

وللأسف فإن عددا كبيرا من هذه القوائم والفهارس قد فقدت للأبد. إلا أن النسخ النادرة التي بقيت إلى اليوم تكفي لكي نستنتج أن هذه القوائم كان لها دور هام في الوقت الذي كان فيه من الصعب الحصول على معلومات عن الكتب الجديدة التي تصدر من المطابع.

ومع هذا فإن الناشرين كانوا بواسطة الملصقات والفهارس وبشبكة العملاء التجاريين والمشاركة في معارض الكتاب لا يستطيعون إلا أن يعلموا عددا من المشترين بكتبهم الجديدة. وهكذا فإنه لم يكن من السهولة بالنسبة للمهتمين بتتبع ما هو جديد في سوق الكتاب أن يلاحقوا إنتاج الكتب. فقد كانت تصدر كتب كثيرة في الكثير من المدن والبلدان المختلفة، كما كان يحدث أحيانا أن يصدر الكتاب الواحد لدى أكثر من ناشر. ومن هنا فقد كانت الحاجة ماسة لإصدار مؤلفات مرجعية أكبر من تلك التي أصدرها رجال المطابع والناشرون وأصحاب المكتبات لأهداف تجارية. كان لا بد أن توجد وسيلة أكثر فاعلية لنشر المعلومات، لأغراض غير تجارية، لكي تخدم في الدرجة الأولى العلماء والمكتبات الخ، أي أولئك الذين يهتمون بالكتاب باعتباره ثروة روحية.

وهكذا فقد صدرت منذ نهاية القرن الخامس عشر المؤلفات المرجعية الكبيرة. وكان صاحب المبادرة هنا الألماني يوهانس تريتهايم أباتي دير سبانهايم البنيديكتي قرب مانيس، الذي أصدر مؤلفات ببليوغرافية مهمة جعلت منه مؤسس الأدب المرجعي في العصر الحديث. وقد صدرت في ذلك الوقت أنواع أخرى من الأدب المرجعي (فهارس معارض الكتب-قواميس أعلام الخ). إلا أن هذا لم يكن إلا بداية متواضعة للتطور الضخم الذي لحق المؤلفات المرجعية ابتداء من القرن السادس عشر.

ض - ثمن الكتاب المطبوع

في البداية لم يكن ثمن الكتاب المطبوع محددا أي كما كان الأمر بالنسبة

للكتاب المخطوط في السابق. فقد كان الكتاب يباع في البلدان المختلفة حسب قانون العرض والطلب وحسب الوضع، أي أن الثمن كان يختلف من حالة إلى أخرى. فقد كان يحدث أن يتضاعف مثلا ثمن الكتاب من مدينة إلى أخرى. ولذلك فإن المعطيات عن ثمن هذا أو ذلك الكتاب هي مؤشرات تقريبية يمكن أن تساعد على تصور ثمن الكتاب في فترات مختلفة ومدن مختلفة. وهكذا يمكن القول، بالاستناد إلى المعطيات المتوفرة، أن ثمن الكتاب أخذ ينخفض بسرعة كبيرة بعد اختراع غوتنبرغ. فقد كانت توراة غوتنبرغ، كما يعتقد تباع بربع الثمن الذي كانت تباع به التوراة المخطوطة. أما في النصف الثاني من الستينات، أي بعد حوالي عشر سنوات من طبع التوراة، أصبح ثمن الكتاب المطبوع يقدر في المتوسط بخمس ثمن الكتاب نفسه المكتوب بخط اليد.

وقد انخفض سعر الكتاب أكثر مع ارتفاع تيراج الكتب ومع صدور أكثر من طبعة للكتاب الواحد. وهكذا فقد اشترى أحد هواة الكتب في ميونيخ نسخة من الطبعة الأولى للتوراة في اللغة الألمانية، والتي طبعها مينتلين في ستراسبورغ سنة 1466م، بثمن قدره (12) غولدن، بينما أصبحت توراة لوثر (العهد الجديد) في اللغة الألمانية أيضا، التي صدرت سنة 1522م، تباع بغولدن واحد فقط.

إن تحليل التكاليف التي كان يتحملها رجال الطباعة لطبع كتاب تبين أن تكاليف الورق، كانت أكثر بكثير من تكاليف اليد العاملة وهي التي كانت تساهم بشكل جوهري في تحديد ثمن الكتاب. فالكتاب المطبوع على الرق كان يبلغ ثمنه ثلاثة أضعاف وحتى أربعة أضعاف الكتاب المطبوع على الورق.

ومع هذا فإن استمرار انخفاض ثمن الكتاب حتى نهاية القرن الخامس عشر لم يجعل منه ثمنا مناسبا لكل من يرغب باقتناء كتاب وفي الحقيقة فإن الكتاب حينئذ كان يمكن أن يقتنيه أفراد الطبقة المتوسطة في المدن والطلاب ورجال الدين وغيرهم الذين كانوا يشترون معظم ما تنتجه الصناعة الطباعية. ولكن بالنسبة إلى الشرائح الفقيرة في المجتمع فقد بقي الكتاب غاليا، إلى أن أخذ الناشرون الجدد يصدرون طبعات رخيصة لأولئك الذين لا يستطيعون شراء الكتب الغالية نسبيا.

ط. تشكيل وتزيين وتجليد الكتاب

في بداية تطور الطباعة يكاد يبدو أن رجال الطباعة لم يتجرأوا بما فيه الكفاية للاستفادة من المزايا التي توفرها التقنية الجديدة في تشكيل وتزيين الكتب. فقد كان رجال الطباعة في السنوات والعقود التي أعقبت اختراع غوتنبرغ يحاولون أن يبقوا الكتاب المطبوع في كل الجوانب مشابها للكتاب المخطوط. أما السبب في عدم الاستفادة من مزايا التقنية الطباعية في تشكيل وتزيين الكتاب فيكمن في عدم رغبة هؤلاء بإثارة نوع من المعارضة أو الشك لدى المشترين المعتادين على الكتاب المخطوط، ولكي يتجنبوا بالتالي خطر كساد كتبهم.

كان رجال الطباعة يحرصون على أن يكون حجم الكتاب المطبوع مشابها تماما لحجم الكتاب المخطوط. وهكذا نجد أن توراة غوتنبرغ وغيرها من الكتب التي صدرت لاحقا كانت بحجم كبير غير مناسب كتلك المجلدات الكبيرة من الرق التي كانت شائعة في العصر الوسيط. ومن ناحية أخرى فقد كان رجال الطباعة يحرصون على ألا تتميز كتبهم المطبوعة حتى بشكل الحروف من الكتب المخطوطة. وهكذا فقد كانوا يسبكون الحروف بالشكل الذي تبدو فيه تماما في الكتب المخطوطة بحيث من الصعب التمييز للوهلة الأولى بين الكتب المطبوعة والكتب المخطوطة. ومن المعروف هنا أن غوتنبرغ قد وجد أشكال الحروف التي استعملها لطباعة التوراة في مخطوطات إقليم الراين-وقد بقي تلميذه شافر وبقية رجال الطباعة في ألمانيا يعتمدون على الحروف القوطية، بينما سيأخذ رجال الطباعة في إيطاليا وبقية البلدان بالحروف الجديدة (الإحيائية) ولكن الأمر لم يقتصر على الحروف بل نجد أن رجال الطباعة قد اعتمدوا في كتبهم المطبوعة الحروف المزدوجة والاختصارات كما هي في الكتب المخطوطة. ولأجل هذا فإن النص في الكتب المطبوعة الأولى مكثف وغير واضح كما في المجلدات المخطوطة.

ومن ناحية أخرى فقد أخذ رجال الطباعة أيضا من الكتب المخطوطة عادة إضافة التعليقات الواسعة إلى جانب النص. ففي مخطوطات العصر الوسيط كانت هذه التعليقات والملاحظات وغيرها على جانب النص من الأمور الشائعة، بل إن بعض المخطوطات كانت مشهورة أحيانا بسبب هذه

التعليقات المصاحبة للنص أكثر من أن تكون مشهورة بسبب النص ذاته. وفي الكتب المطبوعة الأولى كانت التعليقات أحيانا أطول من النص الأساسي ذاته بحيث إن صفحات هذه الكتب كانت مثقلة بهذه التعليقات. ولتميز النص الأساسي من التعليق فقد لجأ رجال الطباعة إلى طباعة النص بحروف أكبر والتعليق بحروف أصغر. ومع مرور الزمن اختصرت هذه التعليقات ولكنها بقيت تطبع إلى جانب النص الأساسي. وقد عرفت هذه الملاحظات باسم مانشيت (في الفرنسية Manchettes). وهي لا تزال توجد إلى اليوم في بعض الكتب وخاصة في بداية الفصول أو أقسام الفصول، بينما نجد في بعض الإصدارات الفخمة ملاحظات على الجوانب. وبغض النظر عن بعض الاستثناءات يمكن القول إن هذه التعليقات والملاحظات قد انتقلت في القرن الثامن عشر إلى أسفل النص، في نهاية الصفحة حيث لا تزال توجد إلى اليوم في معظم الحالات.

وكان الكتاب المطبوع يشبه الكتاب المخطوط في ناحية مهمة أخرى. فغلاف الكتاب المطبوع لم يكن يتضمن أيضا المعطيات الأساسية مثل اسم المؤلف وعنوان الكتاب الخ. بل كانت هذه ترد في الجملة الأولى من النص التي يطلق عليها (Incipit)ففي هذه الجملة يقال إنه يبدأ هنا كتاب فلان من الكتاب بعنوان كذا وفي بعض الأحيان كانت هذه المعطيات ترد في الجملة الأخيرة من النص التي يطلق عليها (explicit). ولكن فيما بعد أصبح كل رجال الطباعة يجملون هذه المعطيات في ملاحظة ترد في نهاية النص، أي على نمط النساخ في العصر الوسيط الذين كانوا يدونون المعلومات عن أنفسهم وعن المؤلفين وعن مكان وزمان النسخ وغير ذلك من المعطيات كالفترة التي استغرقها نسخ الكتاب الخ. وقد أصبح هذا الموضع في نهاية الكتاب يسمى (colophon)، ويتضمن اسم المؤلف وعنوان الكتاب واسم الطابع ومكان الطبع والتاريخ-الدقيق لإنجاز الطبع (اليوم والشهر والسنة). وإلى جانب الـ(كولوفون) فقد أخذت تظهر بسرعة شارة الطابع. وكان شافر وفوست أول من استخدما الشارة الطباعية التي كانت تمثل درعين معلقين على فرع شجرة.

ولكن مع مرور الزمن انتقلت هذه المعطيات إلى صفحة الغلاف التي أصبحت توضع في البداية لتحمى كتلة الكتاب. وفي البداية كان يرد فيها

أولا العنوان المختصر للكتاب ثم بقية المعطيات عن المؤلف ثم الشارة الطباعية (وفي وقت لاحق إشارة الناشر) مع بعض الرسوم.

أما أول من فكر بطباعة صفحة خاصة للغلاف فقد كان ب. شافر لكتاب «فرمان الحملة الصليبية ضد الأتراك»، الذي أصدره سنة 1463م. إلا أن شافر لم يعرف أن يستفيد من كل المزايا لهذا التجديد، ولذلك يعتبر أرنولد ترهورنن أول من طبع كتابا بغلاف حقيقي سنة 1470م في كلن. ومع هذا فقد جاء الطابع الألماني رهارد راتولد ليطبع في فينسيا سنة 1476م أول غلاف كامل لـ«كتاب التقويم».

ولكن بقية الناشرين لم يأخذوا فورا بهذا التجديد بحيث إن الغلاف لم يصبح شائعا إلا في نهاية القرن الخامس عشر، بينما بقيت بعض الكتب تصدر دون أغلفة حتى في مطلع القرن السادس عشر.

وحتى نهاية القرن الخامس عشر، استمر الكتاب المطبوع بالابتعاد عن ملامح الكتاب المخطوط، إلى أن أخذ يكتسب ملامحه الخاصة بالاستفادة من الإمكانيات الكبيرة التي توفرها التقنية الطباعية التي كانت تتطور باستمرار وفي هذه الحالة أصبحت الفروق بين الكتاب المطبوع والكتاب المخطوط تبدو بشكل كبير في الرسوم.

وكان الطابعون الرواد، بالاستناد إلى التقاليد الشائعة لنساخ العصر الوسيط، يقومون بطبع النصوص فقط بينما يتركون الفراغات المناسبة للرسوم والأحرف الأولى لكي يمليها الفنانون لاحقا بالأشكال المناسبة والأحرف الأولى. وقد بقي الكثير من الطابعين يحافظون على هذا التقليد حتى بداية القرن السادس عشر، مع أن البعض أخذ في غضون ذلك بطبع الرسوم.

ويعتبر أ. فيستر من بامبرغ أول من طبع الكتب المزينة بالرسوم وذلك في العقد السادس من القرن الخامس عشر. وفي الواقع فقد لجأ فيستر إلى ما كان يفعله سابقا الحرفيون الذين يطبعون الكتب بواسطة القوالب الخشبية، أي أنه كان يضع تحت المطبعة النص مع القالب الخشبي ويطبعهما معا. فحوالي 1461م طبع فيستر أول كتاب له، وهو مجموعة حكايات لـأولريخ بوش بعنوان «الحجر الثمين»، وهو أول كتاب مطبوع في اللغة الألمانية وفي الواقع كان هذا الكتاب سواء من حيث لغته أو من حيث رسومه موجها إلى

الجمهور العريض من القراء، أي إلى الجمهور الذي كانت توجه له الكتب المطبوعة بواسطة القوالب الخشبية. وقد قلد الناشرون الآخرون فيستر، أي أنهم كانوا يطبعون أولا الكتب المزينة بالرسوم التي كانت توجه للشعب. وكانت للرسوم في هذه الكتب أهمية كبيرة إذ أنها كانت تقدم للناس، الذين لا يستطيعون القراءة، مضمون الكتاب بمساعدة الرسوم.

إلا أن الرسوم سرعان ما أخذت تظهر في الكتب الأخرى كما في التوراة والمؤلفات العلمية وكتب الهندسة المعمارية وغيرها. وفي هذا الإطار لا بد أن نذكر من حيث الأهمية في تطور الكتب المزينة بالرسوم سنة 1486 حين طبع ب. شافر في مانيس كتاب «رحلة حج إلى الأرض المقدسة». وكان قد ألف هذا الكتاب برنارد فون بريدنباخ الذي سافر إلى فلسطين بصحبة الفنان إرهارد أوفيك. وخلال رحلته قام هذا بإنجاز بعض الرسوم التخطيطية للأشياء التي كان يراها كما رسم خريطة جغرافية لفلسطين. وبعد عودته من الرحلة قام روفيك نفسه بحفر القوالب الخشبية بالاستناد إلى رسومه واعتنى بطبعها. وقد سجل الكتاب حينئذ نجاحا كبيرا لدى القراء المتعطشين للمعلومات عن البلدان البعيدة، ولذلك فقد صدرت لاحقا ترجمات له إلى الألمانية والفرنسية والإسبانية والهولندية.

ومع مرور السنوات وصل طبع الرسوم بواسطة القوالب الخشبية في ألمانيا إلى درجة كبيرة من الكمال. ففي سنة 1493م نشر الطابع-الناشر أنطون كوبرغر من نورنبرغ أفخم كتاب للرسوم بواسطة القوالب الخشبية ألا وهو كتاب الوقائع لـ هارتمان شيدل الذي تضمن 1809م رسما بواسطة القوالب الخشبية. وفي هذا الكتاب يبدو بوضوح التقليد الشائع في ذلك الوقت ألا وهو التعبير بنفس الرسوم عن أشخاص مختلفين ومدن مختلفة. وهكذا فإن هذه الرسوم الـ 1809 في كتاب شيدل المذكور قد صنعت بواسطة 645 قالبا خشبيا فقط، أي أن القالب الواحد كان يستخدم لإبراز شخصين أو أكثر كما أن اللوحة الواحدة تمثل في مواضيع مختلفة من الكتاب ثماني شخصيات، بينما يشير الرسم الواحد إلى عدة مدن مختلفة وفي الواقع لم يكن هذا عبارة عن استثناء بالنسبة لذلك الوقت لأن الطابعين الآخرين كانوا يستعملون القالب الخشبي الواحد للإشارة إلى أشخاص مختلفين أو مدن مختلفة وذلك لتوفير بعض النفقات.

ولم يكد ينته القرن الخامس عشر ويبدأ القرن السادس عشر حتى أصبح يمارس بالحفر على القوالب الخشبية فنانون معروفون كـ«ألبرخت ديرر» و«هانس بالدونغ» و«هانس هولباين» وغيرهم. وفي الواقع لقد كانت تلك الفترة التي برزت فيها أهم الأعمال في القوالب الخشبية كـ«سفر الرؤيا» في 1498م و «آلام المسيح» في 1511م لـ ديرر. ومع هذا فإن فن حفر القوالب الخشبية شهد أعظم ازدهار له في إيطاليا. وكان رجال الطباعة الألمان، الذين كانوا يعملون بعدد كبير في فينسيا وبقية المدن الإيطالية، قد أدخلوا إلى إيطاليا تقليد طبع الكتب المزينة بالرسوم. ومن هؤلاء كان أولريخ هاين أول من بادر إلى طبع مثل هذه الكتب حين أصدر في روما سنة 1467م كتاب «تأملات» لـ يوهانس دي توركريمات. ولكن الطابع إرهارد رات أولد حقق لنفسه شهرة بالحروف الكبيرة الرائعة التي تبدأ بها النصوص والتزيينات الكثيرة بأسلوب عصر النهضة. وكان رات أولد قد عمل عدة سنوات بشكل متواصل في فينيسيا (حتى 1486م)، قبل أن يعود ثانية إلى ألمانيا. وخلال عمله في فينيسيا كان يقوم بحفر قوالب الخشب له مواطنه برنارد مالر.

وفي البداية كان العاملون في حفر قوالب الخشب من الألمان قد فرضوا أسلوبهم الجامد والساذج إلى حد ما، إلا أن هذا الفن سرعان ما تطور في البلدان الأخرى من حيث البواعث أو من حيث الأسلوب بالاستناد إلى التقاليد الفنية المحلية. وهكذا فقد تطورت في إيطاليا مدرسة خاصة لحفر القوالب الخشبية، وهي امتداد للمنبع الرئيسي للفن الرائع للنهضة الإيطالية، حتى أن الفنانين الألمان تقبلوا بسرعة هذا الأسلوب الجديد. إلا أن قمة التطور لفن الكتاب في إيطاليا تجسدت مع نشاط ألدو مانو سيو الذي كان قد عمل لديه فنانون معروفون في حفر القوالب الخشبية. ولدينا من إصداراته نموذج لم يتجاوزه أحد للتزيين بالرسوم بواسطة القوالب الخشبية، ألا وهي الرواية المجازية «حلم بوليفيل»، للكاتب الإيطالي فرانسيسكو كولونا التي صدرت سنة 1499م. فالرسوم الرائعة، التي هي بمعظمها بأسلوب عصر النهضة تمثل القمة التي وصل إليها في الكتاب بشكل عام. وفي الواقع لا يعرف بالضبط من الذي حفر القوالب الخشبية لهذا الكتاب ولكن يفترض أن يكون أحد أعظم الفنانين لعصر النهضة، وقد

يكون أندريا مانتنيا.

وفي فرنسا بلغ فن حفر القوالب الخشبية درجة عالية من الكمال حيث يتصل بشكل مباشر من حيث الأسلوب أو من حيث الفخامة بزخرفة المخطوطات. وفي الغالب كانت تزين هنا بالرسوم الكتب الدينية الرائجة لـ«كتاب الساعات» التي كان يصدرها أنطون فيرارد وغيره. وحتى نهاية القرن بدا بوضوح في فرنسا وألمانيا وغيرها التأثير القوي لفن عصر النهضة الإيطالية في تزيين الكتب بالرسوم.

وبالإضافة إلى حفر القوالب الخشبية فقد أخذ رجال الطباعة منذ القرن الخامس عشر يعتمدون على حفر الألواح النحاسية لإعداد الرسوم للكتب، وهي الطريقة التي كانت معروفة سابقا في الصين (منذ القرن العاشر الميلادي) وفي أوربا (منذ القرن الثالث عشر).

أما فيما يتعلق بتجليد الكتب المطبوعة وتزيين الأغلفة فيلاحظ أنه حتى سنة 1480م لم تتميز الكتب المطبوعة بشكل جوهري عن الكتب المخطوطة في هذه الناحية. إلا أن الإنتاج الكبير من الكتب التي كانت تصدرها المطابع المتزايدة دفع المجلدين إلى تبسيط طريقة التجليد واتباع طريقة الإنتاج المتسلسل. وبالطبع فقد تدنى مستوى التجليد في هذه الحالة إلا أنه بقي يرضي طلبات القراء من الطبقة الوسطى أما هواة جمع الكتب النفيسة فقد كانوا يوصون المجلدين على استعمال الجلد الثمين لهم وعلى تزيين الكتب المجلدة حسب ذوقهم.

وقد لجأ بعض الطباعين إلى استخدام بعض المجلدين في ورشهم، إلا أن هؤلاء كانوا على الأغلب يجلدون ويزينون الكتب لنوع خاص من الزبائن، أي لسوق معروف ومضمون. ومن هؤلاء الذين اتبعوا هذا الأسلوب كان مثلا أنطون كوبرغر نورنبرغ ثم ألدو مانوسيو في فينيسيا وغيرهم. ومع هذا فإن معظم الكتب كانت تجلد في ورش خاصة للتجليد أو في ورش تابعة للأديرة والجامعات.

وفي الواقع لقد كان الطابعون-الناشرون لا يهتمون كثيرا بتجليد الكتاب في العقود الأولى لتطور الطباعة. ففي معظم الأحيان كانوا يبيعون الكتب دون تجليد، وخاصة إذا كانت الكتب معدة للنقل إلى بلد بعيد كي تباع هناك. فقد كان أصحاب المكتبات يستلمون الكتب في براميل من الطابعين-

الناشرين ثم كانوا يجلدونها قبل أن يبيعوها مباشرة. وكان الكثير من الزبائن يفضلون شراء الكتب دون تجليد لكي يجلدونها بأنفسهم وحسب ذوقهم.

وكان تزيين الأغلفة المصنوعة من الجلد متطورا جدا في العمر الوسيط، إلا أن هذه المهنة أيضا تعرضت إلى تغييرات مع ظهور الكتاب المطبوع وذلك انسجاما مع متطلبات العصر الحديث. وقد بدأ الهولنديون أولا في اعتماد ما يسمى «الطبع الأعلى» وذلك باستعمال لوح معدني محفور لتزيين كل الجلد بحركة واحدة. أما إذا كان اللوح المعدني لا يغطي مساحة الغلاف كله فقد كان هذا اللوح نفسه يطبع مرتين أو أربع مرات حسب الحاجة. وفي الواقع كانت طباعة التزيين بواسطة الألواح المحفورة أسرع بكثير من الطريقة القديمة التي تعتمد على الأختام.

وفي بداية القرن السادس عشر تمكن المجلدون من الإسراع في عملهم لتزيين الأغلفة وذلك باستعمال الأسطوانة المعدنية التي حفرت عليها بعض الرسوم للتزيين. وبواسطة هذه الأسطوانة كان يمكن أن تنقش على الجلد الرسوم ذاتها عدة مرات. بهذه الطريقة كانت تنقش الرسوم على طول جوانب الغلاف. وتحت تأثير فن العصر الوسيط، والفن المحلي والتقاليد المحلية، فقد تطورت عدة أساليب للتزيين في المدن المختلفة بينما كان الحرفيون أحيانا يبتكرون أساليب خاصة حسب رغبة الزبون.

وكان تأثير الأسلوب الشرقي، وبالتحديد الإسلامي، قد أخذ يتضح في فن التجليد في إيطاليا منذ نهاية القرن الخامس عشر. ففي ذلك الوقت كان فن التجليد الإسلامي، وخاصة الفارسي، متطورا للغاية بالمقارنة مع فن التجليد الأوربي في الناحية التقنية (كما في استعمال الطلاء بالذهب الذي لم يكن معروفا بعد في أوربا، واستعمال الكرتون الخفيف عوضا عن ألواح الخشب الخ)، وخاصة في الناحية المتعلقة بالتزيينات الدقيقة. وقد أثار الفن الإسلامي إعجاب الحرفيين في فينيسيا وهواة جمع الكتب النفيسة ولذلك فقد اتضح أولا في فينيسيا، وفي ورشة ألدو مانوسيو للتجليد بالذات، تأثير الفن الإسلامي بشكل قوي. وقد انتقل هذا التأثير لاحقا عن طريق إيطاليا إلى البلدان الأوربية الأخرى.

لقد حاول المجلدون أن يجلدوا ويزينوا بسرعة الكميات الهائلة من الكتب التي غطت السوق الأوربي في ذلك الحين، إلا أنهم كانوا يحرصون

مع ذلك على ألا يكون تجليد الكتب الموجهة للطبقة الوسطى أقل من المستوى اللائق. ولكن بعض الكتب بقيت تجلد بشكل مميز للأمراء والصيارفة وغيرهم من الأغنياء.

وفي هذه الحالة كان يستعمل للتجليد نوع خاص من الجلد، كالجلد المغربي الذي كان يستورد من قرطبة أو غيره من الأنواع الفاخرة التي زينوها بشكل فخم. وقد تميز بعض هواة جمع الكتب النفيسة بأسلوب خاص في تجليد كتبهم حتى أنه يمكننا اليوم أن نميز كتبهم بسهولة عن غيرها من الكتب. وهكذا كان الأمر، على سبيل المثال، مع الكتب الخاصة بمكتبة الملك الكرواتي-الهنغاري ماتياش كورفين، حتى أن هذه الطريقة الخاصة في التجليد أصبحت تدعى «كورفينا» نسبة إلى اسم الملك.

ظ- الكتب المطبوعة القديمة والعلم الذي يتناولها

أصبحت الكتب المطبوعة في العقود الأولى بعد اختراع غوتنبرغ هدفا للدراسات الواسعة والعميقة. وهكذا لدينا اليوم دراسات علمية كثيرة تشمل كل ما يتعلق بهذه الكتب من حيث الانتشار، والبيع، والحروف المستعملة في الطباعة، ورجال الطباعة، والرسوم، والتجليد، والثمن، والأمور الكثيرة المتعلقة بالتقنية الطباعية، والنتائج الثقافية وغيرها لظهور الكتب المطبوعة الخ. وفي الواقع أن أهمية هذه الدراسات كبيرة جدا للتعرف على ثقافة أحد الشعوب أو ثقافة أحد الأقاليم أو ثقافة إحدى المدن. فطباعة كتاب ما في وسط ما في ذلك الوقت في أحد الفروع العلمية إنما يدل على المستوى الذي وصل إليه ذلك العلم في ذلك الوسط، بينما يدل وجود كتاب كهذا في وسط آخر على اهتمام ذلك الوسط بالمسائل العلمية التي يتناولها هذا الكتاب. ومع تحليل مكان وتاريخ الطبع ومع تحليل انتشار الكتب، وبالتحديد حضور تلك الكتب في أوساط معينة، يمكن لنا أن نتصور الجو العلمي والأدبي والثقافي بشكل عام لوسط ما، وأن نتعرف على تأثير بعض المراكز الثقافية على المراكز الأخرى وما شابه ذلك. ولا يجب هنا أن ننسى حقيقة هامة ألا وهي أنه في ذلك الوقت كان الكتاب لا يزال غاليا نسبيا للمواطن العادي أو للعالم أو لأديب في الوضع المتوسط، أي أن الكتاب كان يشترى للقراءة وليس للزينة في المكتبات الخاصة. ومن هنا فإن وجود كتاب في

أحد البيوت يعتبر دليلا قويا عل اهتمام صاحبه بمضمون هذا الكتاب. وبعبارة أخرى يمكن القول إن محتويات المكتبات لوسط ما (مكتبة البيت، مكتبة الدير، مكتبة المدينة، مكتبة الجامعة الخ) تدل بالتأكيد على الاهتمامات الثقافية لذلك الوسط في ذلك الوقت أكثر مما كانت تسمح به الأوقات اللاحقة، أي حين أصبح الكتاب منتشرا للغاية بسبب ثمنه الرخيص حتى أن الكثيرين أصبحوا يشترونه كقطعة للزينة أو لمجرد هواية جمع الكتب وما شابه ذلك دون أن تكون لديهم حاجة ملحة لعمل علمي أو ثقافي.

ولأجل هذا كله أدرك الخبراء منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر الأهمية الكبيرة للكتب المطبوعة الأولى وأخذوا يدرسونها بشكل مكثف.

لقد أصبحت هذه الكتب المطبوعة القديمة تتميز باسم خاص الانكابولات (Incunabula)وكان الألماني برنارد فون مالينكورد أول من استعمل هذا الاسم للكتب المطبوعة القديمة، بينما استعمله الفرنسي فيليب لأبيه سنة 1653م للدلالة على الكتب المطبوعة حتى سنة 1500م. وقد أخذت هذه التسمية حينئذ من اللاتينية وتعني المهد. بالإضافة إلى هذه تستعمل تسميات أخرى لدى بقية الشعوب. فالألمان يطلقون عليها (Wiegendruch) والإنكليز يسمونها ببساطة(Early printed book) بينما تستعمل في الكرواتية أيضا تسمية (prvotisak) (الكتب المطبوعة الأولى).

ومنذ فيليب لأبيه إلى اليوم يقصد بهذه التسمية على الأغلب الكتب المطبوعة حتى سنة 1500م. إلا أن هذا التحديد لم يقبل دون تحفظ إذ يعتبر أنه من الأفضل أن تشمل هذه التسمية تلك الكتب التي لا تختلف بمظهرها العتيق بشكل جوهري عن نماذج المخطوطات. فالكتاب المطبوع كان يحتاج إلى فترة من الوقت، يختلف من بلد إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى حتى يأخذ الشكل الذي استمر عليه حتى اليوم. ففي فينيسيا ونورنبرغ وغيرها من مراكز الطباعة انفصل الكتاب المطبوع عن نماذج الكتاب المخطوط منذ سنة 1480م، بينما لم يحدث هذا الشيء في المدن الأخرى إلا في العقد الثاني للقرن السادس عشر.

وكما أصبحت لهذه الكتب المطبوعة القديمة تسمية خاصة (incunabula) فإن العلم الذي يتناولها أصبح يسمى (incunabulistica) وهو يشمل الدراسات التي تتناول كل القضايا المتعلقة بطبع وانتشار هذه الكتب والأهمية الثقافية

لها، وتطور التقنية الطباعية وتطور الحروف المستعملة الخ. ولكن في الدرجة الأولى فإن هذه الدراسات تناولت الكتب المطبوعة ذاتها.

إن أهم وظيفة لهذا العلم تتمثل في وضع قوائم للكتب المطبوعة القديمة التي تحفظ في مكتبة ما أو مدينة ما أو دولة ما، ووضع قوائم عامة لكل الكتب المطبوعة القديمة التي صدرت في أوربا وكان أول من بادر في هذا الاتجاه، أي في وضع قوائم عامة للكتب المطبوعة القديمة، هو كورنليوس فون بيوغم في كتابه «الكتب المطبوعة القديمة» (أمستردام 1688م). وقد ظهرت بعد ذلك أعمال ببليوغرافية كثيرة منها ما أكمل القوائم التي نشرها فإن بيوغم ومنها ما وضع قوائم للكتب المطبوعة القديمة لإحدى المكتبات أو لإحدى المدن. ومن هذه الأعمال لا بد أن نذكر بشكل خاص «حوليات الطباعة» (نورنبرغ 1793- 1803م)، التي أصدرها جورج ف. بانسر في أحد عشر مجلدا كبيرا تتضمن وصفا لأربعة آلاف كتاب من هذا النوع. ويلاحظ هنا أن بونسر قد أدخل في مجلداته (5- 11) كل الكتب المطبوعة القديمة التي صدرت حتى (1536م).

وفي هذا العلم الخاص بالكتب المطبوعة القديمة يحتل مكانة خاصة لودفيغ ماين بكتابه «المرجع الببليوغرافي» الذي صدر في أربعة مجلدات في شتوتغارت خلال (1825- 1838م)، حيث يطرح مبادئ الوصف الببليوغرافي للكتب المطبوعة القديمة وبهذا كان يضع الأسس الحديثة لهذا العلم. وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف أتى في كتابه هذا على وصف (16300) كتاب من هذا النوع. ولكن سرعان ما اتضح أن كتاب ماين ليس كاملا وأن بعض المعطيات فيه ليست دقيقة على الدوام. ومع أنه صدرت إضافات لاحقة لهذا الكتاب إلا أنه حتى هذه الإضافات لم تشمل كل الكتب المطبوعة القديمة التي تحفظ في مكتبات كثيرة عبر أوربا وأمريكا. وهكذا فقد اتضح أن هذه المحاولات الفردية لا يمكن أن تكمل عملا من هذا النوع، ولذلك فقد تشكلت سنة 1904 لجنة خاصة في إطار مكتبة بروسيا في برلين برئاسة العالم المعروف كونراد هيلر لإصدار فهرس عام للكتب المطبوعة القديمة. وقد شارك في هذا العمل عدد كبير من العلماء في ألمانيا ولم تأت سنة1925 حتى صدر المجلد الأول من العمل الضخم «الفهرس العام للكتب المطبوعة القديمة». وقد بقيت المجلدات الأخرى تصدر تباعا حتى

سنة 1940، حين صدر الجزء الأول من المجلد الثامن (حتى اسم / Federicis)، إلا أن الحرب العالمية الثانية أوقفت العمل في هذا المشروع الذي عادت إليه الحياة ثانية في السنوات الأخيرة.

لقد كانت المصاعب كبيرة جدا أثناء العمل في هذا الفهرس لأن الأمر كان يتعلق هنا بأبحاث علمية واسعة تتناول نشاط رجال الطباعة وإنتاج معامل الورق وإصدارات الناشرين الخ. وبالإضافة إلى هذا كان على العلماء أن يتعرفوا أحيانا على بعض الكتب التي تضررت كثيرا، وأن يتوصلوا إلى الكتب التي فقدت ولكن وصفت في كتب أخرى، وأن ينقبوا في المكتبات القديمة في الأديرة وغيرها من الأماكن. وكان هؤلاء العلماء قد وضعوا طرقا فعالة للغاية لأجل دراسة القضايا المختلفة. ويكفي أن نذكر طريقة التعرف على المطبعة وذلك بالاستناد إلى شكل الحروف التي طبع بها الكتاب. ومن المعروف هنا أن الطابعين كانوا يسبكون بأنفسهم وفي ورشهم الحروف التي يحتاجونها، وكان كل طابع يسبك الحروف كما كان يرغب حتى أن كل طابع كانت له حروفه الخاصة بحيث يمكن اليوم تمييز الكتب التي طبعها. وقد توصل العالم المعروف كونراد هيلر في كتابه (حروف الكتب المطبوعة القديمة) الذي صدر في خمسة مجلدات خلال (1905-1922) في هاله ولايبزغ، إلى تحديد الحروف الخاصة اللاتينية والقوطية التي كان يستعملها رجال الطباعة. وبهذا فقد ابتكر هيلر أداة تتيح تحديد المطبعة التي طبع فيها أي كتاب، والوقت الذي طبع فيه أي كتاب من هذه الكتب المطبوعة القديمة. وبهذه الطريقة فقد تم حل الكثير من القضايا المتعلقة بتحديد ورش الطباعة، وخاصة تحديد اسم الطابع ومكان وتاريخ الطبع للكتب المطبوعة القديمة التي تفتقد هذه المعطيات.

أما فيما يتعلق ببيوغسلافيا فإن دراسة الكتب المطبوعة القديمة بدأت منذ القرن التاسع عشر. فقد اهتم أي. ك ساكمسينسكي وف. ياغيش وأي. ميلتشتيش، وفي الفترة الأخيرة ي. باداليتش وش. يورتيش. كولونجيتش. وف. شتليفانيتش وغيرهم بالكتب المطبوعة في الحروف الغلاغولية في كرواتيا وفينيسيا أيضا. وقد اهتم البعض الآخر بالكتب القديمة المطبوعة بالحروف الكيريلية في الجبل الأسود نظرا لأهميتها الكبيرة بالنسبة للتاريخ الثقافي لسكان الجبل الأسود.

المراجع

حول إنتاج الكتاب في أوربا انظر بشكل موسع:

L. Le Clert, Le Papier, Recherches et notes pour servir a l'histoire du papier, Vol. I-II, Paris 1927; D. hunter Papermaking, The history, and technique of an ancient craf, New york 1978; H.H. Bockwitz Zur Kulturgeschichte des Papiers, Stettin 1935

وحول الشارات المائية لا بد أن نذكر أولا:

Ch. M. Briquetit, Les filigranes, Dictionnaire historique des marques du papier des leur apparittion vers 1282 jusqu'en 1600, I-IV. Geneve 1907

ولدينا مرآة جيدة جدا للشارات المائية من القرنين 13- 14 لدى:

Vladimir A. Mohsin-Seid Trali'c, Vodeni znakovi XIII i XIV vijeka I-II, Zagreb 1957

ولأحد هذين المؤلفين، أ. مزهن، دراسة ممتازة عن هذا الموضوع:

V. A. Mohsin, Filigranologija Kao pomocna historijska nauka Zbornik historijskog institua Jugoslovenske Akademijie, 1, 1954, p. 25-93.

فيما يتعلق بظهور الكتاب المطبوع في أوربا والنتائج الثقافية والاجتماعية للكتاب المطبوع في العقود الأولى لتطور الطباعة انظر:

L. Febvre J.J. Martin, L'Apparition du livre, Paris, 1971.

وفي هذا الكتاب يتحدث المؤلفان أيضا عن الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية. وحول غوتنبرغ لدينا دراسات كثيرة من أهمها:

D.C. McMurtrle, The life and work of Johann Gutenberg as recorded in contemporary documents, Chicago 1940; A. Ruppel, Johannes Gutenberg, Sein Leben und sein werl, 2 Aulf., Berlin 1947; Der gegenwartige Stand der Gutenberg-Forschung. Hrsg. von
Hans Widrmann. Stuttgart 1972; H. Presser, Gutenberg, Rowohlt 1977.

وانظر بشكل خاص حول معرفة غوتنبرغ الممكنة بالاكتشاف الصيني والكوري للطباعة بواسطة الأحرف المتحركة:

Th. F. Carter, The invention of printing in China and its spread westward, 2 ed., New York 1955

وانظر أيضا حول هذا:

A. Ruppel, haben die Chinesen und Koreaner die Druchkunst erfunden Mainz 1954;
A. Karp, marrginalien zur Gutenberg-Forschun. 2. Konnte Gutenberg bei seiner Erfindung von Druchen mit metallenen Einzelbuchstaben, in Korea Kenntnis gehabt haben?, Beitrage zur Inkunabelkunde III, F., 4 (1969), p.31- 33; H. Widmann, Der Koreanische Buchdruch und Gutenbergs Erfinddung, Gutenberg Jahrbuch, 1974, p. 32-34.

وحول المعطيات التي تشير إلى إمكانية الطباعة بواسطة الأحرف المتحركة لدى شيشرون وغيره من الكتاب الرومانيين القدماء انظر:

H. Widmann, Die beweglichen Lettern bei Cicero, Gutenberg Jahrbuch, 1964,p. 44-47.

وفيما يتعلق بمنافسي غوتنبرغ لم تتوقف الدراسات حول هذا حتى الآن. للتوسع حول هذا انظر:

A. Ruppel, Wer der wirkliche Erfinder der Buchrdrucherkunst Mains 1964.

حول انتشار الطباعة في ألمانيا والبلدان الأخرى انظر:

K. Haebler, Die deutschen Buchdrucher des XV. Jahrhunderts im Auslande, Munchen 1924;

H. Barge-G.A.E. Bogens, Geschichte der Buchdrucherkunst, I-II, Dresden 1939-1941;

S.H. Steinberg, Five hundred years of printing, Harmondsworth 1969;

C. Clair, A history of European Printing, London-New York-San Francisco†1976;

M. Lowry, The world of Aldus Manutius, Business and scholarship in Rennaissance Venice, Oxford 1979;

وحول المطابع الغلاغولية الكرواتية خلال القرنين 15- 16 انظر:

M. Bosnjak, Slavenska inkunabulistika, Zagreb 1970;

I, Kukuljevic Sakcinski, Tiskari Jugoslovenski XV i XVI veka, Archiv za povestnicu jugoslovensku, 1 (1851), p. 121-154;

Z. Kulundzic, Glagolska stamparija XV-XVI stoljeca (Kosinj. Senj-Rijeka), Senjski Zbornik, 2 (1966), p 167- 308;

A. Nazor, Osvert na povjest nasih najstarijih stamparija, Vjesnik. bibliotekara Hrvatske, 13 (1967), p 1- 22;

J. Badalic, Jugoslavica usque ad annum MDC. Bibliographie des sudslavischen Fruhdruche, 2. Aufl. Baden-Baden 1966

وحول المطابع في الجبل الأسود انظر:

R. J. Dragicevic, Crnogorske stamparije (1493- 1918), Istorijski zapisi 9 (1956), 12, p.1-41;

D.S. Radojicic, Zum standort und den Augusben Ausgaben der ersten serbischen Drucherei (Ende des 15. Jahrhunderst), Die Welt der Slawen, 8 (1963), 1, p. 59-63.

وفيما يتعلق بموقف الكنيسة والمجتمع من الطباعة انظر:

H. Widmann, Vom Nutzen und Nachteil der Erfindung des Buch druchs-aus der Sicht der Zeitgenossen des Erfinders, Mains 1973;

H. Widmann, Divino quodam numine. Das Buchdruch als Gottesgeschenk, Festschrift fur Karl herman schelke, Dusseldorf 1973 p.257-273.

وحول بداية رقابة الكنيسة انظر:

H. Freund, Die Bucher-und Pressezensur im Kufurstentum Mainz von 1486- 1797, Karlsruhe 1971;

R. Hirsch, Pre-reformation censorship of printed books, The Library chronicle, 21 (1955), p.100-105

وحول تيراج الكتب في القرنين 15- 16 لدينا معطيات لدى:

W. Krieg, Materialen zu einer Entwichlungsgeschichte der Bucher-Preise und des Autoren, Honorare vom 145, bis zum 20. Jahnhundert Wien 1053

وبشكل عام حول تجارة الكتب في عصر غوتنبرغ انظر:

H. Widmann, Geschichte des Buchhande, I, Wiesbaden 1975.

وحول معرض الكتاب في فرانكفورت انظر:

H. Eestienne, The Francfort book faire, Chicago 1911;

A. Dietz, zur Geshchte des Frankfurter Buchermesse 1462- 1792, Frankfurt a M. 1921.

وحول معرض ليون انظر:

H. Bresard, Les Foires de Lyon au XV et au XVI siecle, Lyon. 1914

وفيما يتعلق بالمؤلفات المرجعية في ذلك الوقت انظر:

L. N. Malcles, La bibliographie 4 ed. Paris 1977.

وانظر أيضا:

R. Blum, Vor-und Fruhgesehiechte der Nationalen Allgemein Bibliographie, Frankfurt a M. 1965.

فيما يتعلق بثمن الكتاب المطبوع انظر:

K. Hafbler, Handbuch der Inkunabelkunde, Leipzig 1925, P. 149-157;

R. Engelsing, Festpreise im europ, Buchhandel des 15, 16, und 17. Jahrhunders, Schmollers jahrbuch fur Wirtschafts und Sozialwissenschaften 91 (1971), p.21-35.

21- 35.ولدينا معطيات عن هذا في الكتاب الذي ذكرناه سابقا:

L. Febvre-J. Martin L'Appartion du livre,Paris 1971, P. 165-173.

وفيما يتعلق بتزيين الكتب لدينا دراسات كثيرة لا بد أن نذكر منها:

Bilderschmuch der Fruhdruche, Vol, 1- 23/ Laipzig 1920- 1943.

وانظر أيضا:

R. Muther, Die Deutsche Bucherilustration der Gotik und Fruh renaissance (1460- 1530), Munchen 1884;

W.L. Schrelber, Manuel de l'amateur de la gravure sur bois et sur metal au Xv siecle, Vol. I-V, Berlin 1891-1911;

A. Martin, Le Livre ilustre en France au XV siecle, paris†1931;

MÆ†Sander, L Livre a figures italien depuis 1467 jusqu'a 1530, Vol I-IV, Milano†1942Æ

Le livre ilustre en Occident du Haut Moyen Age a nos jours, Bruxelles 1977.

وفيما يتعلق بتجليد الكتب انظر:

E. Ph. Goldschmidt, Gothic and Renaissance bookbindings, Vol I-II, London-Boston-New York 1928;

T. De Marinis, La legatura artistica in Italia nei secoli Xv e XVI vol. I-II, Firenze 196.

وحول تجليد الكتب في المناطق السلافية الجنوبية انظر:

Povezi i okovi knjiga iz jugoslovenskih kolekcija, Katalog,Beograd 1973.

فيما يتعلق بالكتب المطبوعة القديمة (الأنكونابولات) انظر:

K. Haebler, Handbuch der Inkunabelkunde, Leipzig 1925;

D. Fava, Manuale degli incunaboli, Milano 1939.

وحول هذه الكتب التي لا تزال تحفظ في المكتبات اليوغسلافية:

J. Badalie, Inkunabule u NR Hrvatskoj, Zagreb 1952.

A. Gspan-J. Badalic Inkunabule u Slovenji,Ljubljana 1957.

وبشكل عام حول الكتب المطبوعة القديمة في كرواتيا انظر:

S. Juric, O inkunabulistici i njezinim zadacima u Hrvatskoj, Vjes

nik bibliotekara Hrvatske, 6 (1960), p.1- 37.

وحول الكتب المطبوعة القديمة في المناطق السلافية انظر:

M. Bosnjak, Slavenska inkunabulistika, Zagreb 1970.

وأخيرا لدينا دراسة شاملة حول نتائج اختراع الطباعة فيما يتعلق بانتشار المعلومات:

Elizabeth L. Eisenstein, The Printing press as an agent of change Communications and cultural tranformations in early-modern Europe, Vol I-II, Cambridge 1979.

١١ من النهضة إلى الثورة الفرنسية

في غضون مائة سنة تقريبا بعد اختراع غوتنبرغ انهمرت ملايين النسخ من الكتب على كل البلاد الأوربية، وبهذا أصبح الكتاب الوسيلة الأساسية لنشر المعلومات العلمية والتقنية وبالتالي العامل الرئيسي في تطور العلم والثقافة في أوربا الحديثة. فالسرعة التي انتشرت فيها المطابع، التي كانت تتزايد باستمرار وتخرج فيها الكتب الكثيرة والمتنوعة مما يدل على الدور الهام للكتاب في تغيير الحياة في ذلك الوقت الحاسم بالنسبة لأوربا ولكل العالم. وبهذا كانت تتأكد الصلة القوية في ذلك الوقت بين الكتاب والمكتبات من ناحية وبين التطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي من ناحية أخرى. فقد كانت هناك صلة وثيقة بين التطور الكبير لإنتاج الكتاب وتوسيع شبكة المكتبات العامة وبين النهوض الكبير الاقتصادي والسياسي والثقافي الذي عايشته أوربا في ذلك الوقت.

وفي الواقع لم يكن للكتاب أبدا ذلك المغزى الكبير بالنسبة للمجتمع الإنساني ولتقدمه كما كان الأمر في المرحلة التي أعقبت اختراع غوتنبرغ. فقد

كان كل جديد يطرأ على المجتمع والعلم والأدب يسجل ويحلل ويفسر في الكتب المطبوعة. وهكذا لم تبق هناك ظاهرة اجتماعية مهما كانت أهميتها، وخاصة ما يستجد في العالم، دون أن يكتب عنها في كتاب ما. وهكذا فقد أصبح الكتاب من منتصف القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن قوة لم يحلم بها لا غوتنبرغ ولا معاصروه.

أ- الطابعون والناشرون

ازدهرت الطباعة والنشر بشكل لم يتوقعه أحد خلال الفترة الممتدة منذ القرن

السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر. فقد تحولت الطباعة إلى صناعة مزدهرة ورابحة بينما كان يزداد باستمرار في أوربا عدد الناشرين المهمين الذين أصبح بعضهم يتمتع بالنفوذ والتقدير. وكانت الكتب التي يطبعها هؤلاء تؤثر بشكل قوي في المسارات الثقافية والعلمية والاجتماعية وحتى السياسية في البلدان المختلفة، ولذلك فقد أصبح عملهم شديد الأهمية بالنسبة للأوساط التي يعملون فيها.

وقد حدثت تغيرات كبيرة منذ القرن السادس عشر في كل ما يتعلق بإنتاج الكتاب وتوزيعه. ولا بد أن نذكر هنا أولا انفصال مهنة الناشر وبائع الكتب عن مهنة الطابع. فقد كانت هذه المهن الثلاثة حتى ذلك الحين مرتبطة على الغالب بشخص واحد هو الطابع. وكان الطابع هو الذي يشتري الورق من المصنع، ويختار من المخطوطات ما يريده للطبع ويتحدث مع المؤلفين ويشارك في إعداد المخطوطة للطبع ثم يحرص بنفسه أو عبر عملائه على توزيع الكتاب. ولكن مع مرور السنوات حدث فرز متزايد بين الأعمال التي يمارسها الطابع وبين الأعمال الأخرى للناشر والكتبي، مع أنه في بعض الحالات بقي التداخل بين هذه الأعمال مستمرا حتى اليوم. وعلى الرغم من هذا شهد القرن السادس عشر تحديدا أوضح للأعمال التابعة لهذه المهن، وبهذه التغييرات لم يعد الطابع هو الذي يمارس الدور الرئيسي بل أصبح الناشر الآن.

لقد بدأ هذا التغير مع كوبرغر في نورنبرغ، حيث كانت لديه 24 آلة طابعة يعمل عليها حوالي مائة عامل، حين أخذ يطبع بعض كتبه في المطابع

الأخرى. ومع هذا يبدو أن أول ناشر دون مطبعة كان الألماني يوهان ريغمام J. Rinman. فقد كان هذا يرسل الكتب التي يريد أن يصدرها إلى المطابع المختلفة في المدن الألمانية (نورنبرغ، أوغسبرغ، بازل الخ)، وحتى خارج ألمانيا (فينيسيا). وقد أصدر رنيمان حتى وفاته (1522م) حوالي 200 كتاب، وبهذا يكون أول ناشر في أوربا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة.

إلا أن هذه الحالة في بداية القرن السادس عشر، أي في الوقت الذي كان ينشط فيه رينمان، كانت تعبر عن استثناء أكثر مما تعبر عن قاعدة. ففي ذلك الوقت، وحتى في السنوات اللاحقة، كان الطابع والناشر لا يزالان في شخص واحد، إلا أن سمات الناشر ستطغى بالتدريج على أولئك الطابعين الذين أخذوا يمارسون النشر أكثر مما يمارسون الطبع. وهكذا فقد أصبح الناشر يتولى المسؤولية عما تتضمنه المخطوطات ودقة المطبوعات لديه، وأصبح الناشر أيضا يتولى الاتفاق مع الرسامين والمجلدين وتسليم الكتاب لشبكة التوزيع. ونتيجة لهذا فقد أصبحت المطابع في خدمة الناشر وأخذت أعمالها تتناقص لتصبح محصورة في الناحية التقنية فقط لإنتاج الكتاب. وفي الحقيقة أن تحول الطابع إلى رجل تقني، يطلب منه أن ينجز عمله على أفضل وجه، استمرت فترة طويلة وخاصة في البلدان الغي لم يتطور فيها كثيرا إنتاج الكتاب.

لقد أبرز الإنتاج الكبير للكتاب في الفترة الممتدة من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر عدة ناشرين كبار، وبالتحديد ناشرين-طابعين تركوا أثرا كبيرا على الزمان والمكان اللذين عاشوا فيه. ومن هؤلاء سنذكر هنا بعض الأسماء المهمة فقط.

في ألمانيا كان إنتاج الكتاب قد ازدهر كثيرا مع حركة الإصلاح التي قادها لوثر. فقد استمرت المراكز الطباعية القديمة (ماينس، كلن، نورنبرغ الخ) في القيام بدورها، ولكن برزت الآن مراكز طباعية قوية تحت تأثير حركة الإصلاح ولتلبية حاجات هذه الحركة. وقد برزت حينئذ هذه المراكز بشكل خاص في المناطق التي كانت تعتمد عليها حركة الإصلاح كـ فيرتنبرغ. وكانت هذه المدينة، التي أسست جامعتها الخاصة بها سنة 1502م، قد أصبحت مهمة كمدينة وكمركز طباعي بعد أن بدأ فيها مارتن لوتر حربه المكشوفة ضد بابوات روما. وفي هذه المدينة قدر م. لوتر M. Loter أنه يمكن

أن يكسب الكثير إذا أصبح في خدمة لوثر ولذلك فقد أسس سنة 1519م مطبعة طبع فيها فورا سنة 1520 م كتاب لوثر المشهور «إلى النبلاء المسيحيين للأمة الألمانية». وفي 1522م أصدر هذا ترجمة لوثر للعهد الجديد مع رسومات الفنان ل. كراناخ. وبهذا النشاط الطباعي اغتنى لوتر بالفعل وأصبح من ذوي النفوذ في فيرتنبرغ. وفي هذه المدينة أيضا برز طابع آخر هو هانس لوفت يعمل لصالح حركة الإصلاح، حتى أصبح رئيس مجلس المدينة.

إلا أن حرب الثلاثين سنة (1618- 1648م) بين الكاثوليك والبروتستانت أدت إلى تجميد نشاط الطباعة وإلى اضطرابات كبيرة في توزيع الكتب. وعلى الرغم من ذلك فقد بوشر العمل في ألمانيا خلال القرنين 17- 18 للميلاد في مشاريع طباعية طموحة للغاية بحيث إن ألمانيا بقيت واحدة من أهم البلدان في العالم. ويكفي أن نذكر على سبيل المثال هنا العمل الضخم «المسرح الأوربي» الذي طبع في فرانكفورت خلال 1635- 1738م. وقد صدر من هذا الكتاب حينئذ 29 مجلدا ضخما حتى سنة 1672، بينما صدر لاحقا مجلدان مع رسوم مناسبة قام بإنجازها في البداية م. مريان. وفي الواقع يتضمن هذا الكتاب حوالي 1500 لوحة محفورة على النحاس وهي تمثل المدن والشخصيات والمعارك في تلك الفترة وهي لذلك وثيقة مهمة للتعرف على حوادث ذلك العصر. وبعد موت م. مريان قام تابعوه بنشر الكتب المصورة حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر.

أما في إيطاليا فقد فقدت الطباعة ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن عشر الأهمية التي كانت لها في السابق. ومع هذا فقد برز في إيطاليا بعض الطابعين الناشرين المهمين في القرن السادس عشر وفي القرون اللاحقة. ففي فينيسيا كان من الأهمية بمكان نشاط أسرة جوليتي دي فيراري، التي استمر نشاطها في فينيسيا وفي بقية المدن الإيطالية من سنة 1483م وحتى 1606م. وقد اشتهرت هذه الأسرة بإصداراتها الفخمة لأهم الكتاب في إيطاليا سواء من المعاصرين (أرتينو، بمبو، تاسو) أو من السابقين (بترارك، بوكاشو)، وقد أصدرت أيضا السلسلة المعروفة «سلسلة التاريخ اليوناني واللاتيني» التي نشرت فيها مجموعة كبيرة من المؤلفات المترجمة للمؤرخين الكلاسيكيين (اليونانيين والرومانيين) في اللغة الإيطالية،

بالإضافة إلى أعمال المؤرخين الإيطاليين.

وفي فيرنسا اشتهرت أيضا بإصداراتها أسرة جونتا في القرن السادس عشر، بينما برز حينئذ في روما الطابع جاكومو مازوكي. وفي روما أيضا قامت بدور مهم تلك المطبعة التي أسست سنة 1561م، والتي أدارها في البداية باولو مانوسيو أحد أبناء مانوسيو المعروف، وكان هذا قد ترك أعماله في فينيسيا لابنه الدور مانوسيو الصغير وانتقل بنفسه إلى روما حيث تولت مطبعته طبع الفرمانات البابوية والأعمال العائدة للبابوات وما شابه ذلك. وفي الواقع فإن مطبعته، التي اشتهرت باسم «مطبعة الشعب الروماني» كانت تعمل غالبا لصالح الفاتيكان إلا أنها لم تكن مطبعة رسمية للمقر المقدس. فقد تأسست مطبعة رسمية للفاتيكان (مطبعة الفاتيكان) في ذلك الوقت تقريبا، وبالتحديد في سنة 1559م. وبالإضافة إلى هذه المطابع في روما فقد اشتهرت أيضا المطبعة التي أسسها الكاردينال فرديناندو دي ميديشي باسم «مطبعة ميديتشي للغات الأجنبية» والتي تخصصت في طبع الكتب في اللغات الشرقية (العربية والفارسية الخ). وقد كان يدير هذه المطبعة المستشرق المعروف جوفاني ب. ريموند، الذي أقام فترة طويلة في آسيا حيث تعلم عدة لغات آسيوية. ولكن في القرن السابع عشر بدا بشكل أوضح الانحدار في مستوى الطباعة في إيطاليا، وكان الانحدار في نوعية الورق الذي تطبع به الكتب. وقد اتضح هذا الانحدار بشكل خاص في الجمود الذي لحق بتطور سبك الحروف. وهكذا لم تعد في إيطاليا إلا بعض المطابع النادرة التي كانت في مستوى المطابع الهولندية والفرنسية المجهزة بشكل أفضل.

ومن هذه المطابع التي بقيت في القمة «المطبعة المتعددة اللغات التابعة للمجمع المقدس لنشر الإيمان» في الفاتيكان التي أخذت مكان مطبعة دي مديشي المذكورة بعد أن توقفت عن العمل. وقد أسس هذه المطبعة سنة 1626م البابا أوربان الثامن لخدمة التجمع الجديد في الحرب ضد البروتستانت ولنشر المسيحية في البلدان البعيدة في آسيا وأفريقيا وأمريكا. وبعد فترة قصيرة أصبحت هذه المطبعة قادرة على طبع الكتب بـ23 نوعا من الأبجديات للغات غير الأوربية وللغات الأوربية التي لا تستعمل الحروف اللاتينية. وقد كان أول مدير لهذه المطبعة ستيفانو باولينو، الذي كان يعمل

في سبك الحروف، وقد أصدر جوفاني فيروزي سنة 1629م أول فهرس لأنواع الحروف التي كانت تستعملها هذه المطبعة بعنوان «مختارات الكتب والمطبوعات الصادرة عن المجمع المقدس لنشر الإيمان». وفي الواقع فقد كانت هذه المطبعة في ذلك الوقت تملك أكبر عدد من أنواع الحروف في العالم، حتى أنها في نهاية القرن الثامن عشر كان في حوزتها 44 نوعا من الحروف. وفي هذه المطبعة أيضا كانت تطبع الكثير من الكتب الموجهة إلى السلاف الجنوبيين بالحروف اللاتينية والغلاغولية والكيريلية.

إلا أن الاحتلال الفرنسي لإيطاليا في نهاية القرن الثامن عشر سبب ضررا لا يمكن إصلاحه لهذه المطبعة. وكانت قائمة المحتويات الخاصة بهذه المطبعة قد وجدت في باريس ضمن العدد الكبير من التماثيل واللوحات والكتب وغير ذلك من الكنوز التي نهبها نابليون وقواده العسكريون في إيطاليا. وقد أخذ الفرنسيون من هذه المطبعة سنة 1799م و 1812م الحروف والقوالب والمواد الأخرى ثم خربوها بشكل لم تستطع فيه أبدا أن تستعيد الأهمية التي كانت لها خلال القرنين 17- 18 للميلاد.

وفي هذه المطبعة بالذات كان قد تعلم مهنة الطباعة وسبك الحروف تيستا بودوني (1740- 1813م)، الذي أصبح في القرن الثامن عشر أشهر طابع وسابك للحروف في إيطاليا. وكان بودوني قد بدأ العمل في هذه المطبعة في الثامنة عشر من عمره وأخذ هناك برعاية المدير، الآباتي قسطنطين روجري، في سبك الحروف التي ستجعل منه رجلا مشهورا في كل أوربا. وقد انتقل بعد فترة قصيرة إلى بارما Parma (1768م) حيث أدار من هناك «المطبعة الملكية» حتى وفاته. وفي الواقع فقد أتيح لبودوني أن يعمل بهدوء بفضل تشجيع الدوق فرديناند الذي كان يحلم أن يجعل من بارما «أثينا الجديدة». وهكذا أخذ بودوني في طبع الكتب الفخمة لحاجات الأرستقراطية وبشكل عام لأجل أولئك الذين كانوا يملكون الكثير من المال لشراء الكتب. وكان بودوني قد سبك لمطبعته هذه أجمل الحروف التي عرفت حتى ذلك الحين في أوربا. كانت البساطة الكلاسيكية لهذه الحروف، ودقة الطبع، ونوعية الورق الجيدة، واللوحات المختارة بعناية تجعل كتبه من أعظم إنجازات الطباعة بشكل عام. ومن هنا لم يطلق عليه معاصروه لقب «فنان البساطة» دون سبب لأنه في كل عمله كان يستلهم البساطة والجمال،

الشيء الذي كان نادرا ما نراه في أوربا في ذلك الوقت. وكان بودني قد صاغ مفهومه عن سبك الحروف ومهنة الطباعة في كتابه المعروف «الوجيز في الطباعة» الذي أصدره سنة 1788م، ثم أصدرته زوجته في صيغته النهائية بعد وفاته في سنة 1818م. وكان هذا الكتاب قد أثار الإعجاب العام في أوربا وأمريكا في طبعته الأولى، وقد قدره كثيرا بنجامين فرانكلين. أما الصيغة النهائية للكتاب، التي بقي يعمل فيها بكل روحه حتى وفاته، فقد مارست تأثيرا كبيرا جدا على الطابعين في كل أوربا.

أما في فرنسا فقد احتلت أسرة أستيين مكانة مهمة بين الطابعين-الناشرين. وكان عميد الأسرة وأهم شخصية فيها هنري أستين قد طبع عددا قليلا من الكتب نسبيا (حوالي 120 كتابا) إلا أن إصداراته كانت تتميز بنوعيتها الجيدة وبالاختيار الدقيق للعناوين. وقد استلم ابنه روبير المطبعة من أبيه سنة 1525م وتابع طريقه. وهكذا فقد أصدر الابن طبعات رائعة من التوراة وأعمال الكتاب الكلاسيكيين مما جعله أفضل الطابعين-الناشرين في فرنسا. وقد كان هذا، كغيره من الطابعين-الناشرين في عصره، من المثقفين أيضا. فقد عمل بنجاح في مجال المعاجم وأصدر سنة 1531م القاموس الشهير للغة اللاتينية، الذي طبع لاحقا مرات عديدة.

وقد عينه الملك فرانسوا الأول، راعي العلم والفن، سنة 1539م طابعا ملكيا للكتب العبرية واللاتينية أولا ثم سنة 1545 للكتب اليونانية أيضا. وقد ساهم روبير مع الطابعين-الناشرين الآخرين في باريس (جوفروا، سيمون دي كولين، ميشيل أوجرو) في الازدهار الكبير للطباعة في فرنسا خلال عهد فرانسوا الأول، حتى أن هذا يعتبر عادة العهد الذهبي للطباعة الفرنسية.

ومع موت روبير أستين سنة (1559م) انتهت مرحلة الطابعين-الناشرين المثقفين الذي كان رائدهم ألدو مانوسيو. إلا أن أحد الاستثناءات التي بقيت في هذا المجال تتمثل في ابنه هنري الثاني (1531- 1589م). فقد تابع هذا طريق أبيه كطابع بينما تفوق عليه في مجال المعاجم بقاموسه «كنز اللغة اليونانية». وقد بقيت أسرة أستين إلى وفاة هنري الثاني (1674م)، العضو الأخير فيها، في مركز الأحداث بالنسبة للطباعة في فرنسا.

وبالمقارنة مع البلدان الأخرى الأوربية، فإن الطباعة في فرنسا كانت

تتمركز في مدينة واحدة (باريس). أما المدينة الأخرى التي حافظت خلال القرن السادس عشر على أهميتها كمركز لإنتاج الكتاب فكانت ليون. إلا أن السعي المتزايد نحو الحضارة والرقابة الشديدة في الملكية المطلقة أديا إلى صعوبة اختيار العناوين من المؤلفات الكلاسيكية والعلمية والتاريخية الفرنسية (وخاصة تلك التي تجمد الأسرة الملكية) والدينية وغيرها، مما أدى إلى أن تطبع الكتب التي تمثل أفكارا أخلاقية جديدة خارج فرنسا.

وهكذا فقد تطور الوضع خلال القرنين 17- 18 للميلاد إلى أن منع طبع وبيع أي كتاب دون موافقة الملك. وقد اشتدت الرقابة على عمل الطابعين بشكل خاص بعد أن صدر سنة 1686م «الأمر الملكي حول عمل الطابعين والناشرين في باريس»، الذي اعترف بوجود 36 طابعا وناشرا في باريس. وحسب هذا الأمر فقد أصبح كل الطابعين يتبعون من الناحية القضائية الحكومة عوضا عن الجامعة كما كان الأمر في السابق. وقد عين حينئذ لممارسة الرقابة على عمل الطابعين 79 رقيبا. وفي هذا الوضع أصبحت المطبعة الملكية، التي أسسها الملك لويس الثالث عشر سنة 1640م باقتراح من ريشيلو، أهم مطبعة في فرنسا. فقد أصبح يعمل فيها أفضل الطابعين وأشهر سباكي الحروف فكانت مطبوعاتها على مستوى عال من الجودة. وكانت تطبع كتبا فخمة بالفرنسية واليونانية واللاتينية والإيطالية. إلا أن الاهتمام الكبير للملوك الفرنسيين بهذه المطبعة أثار غضب بقية الطابعين، مما أدى إلى صدور كراس ساخر بعنوان «رسالة حول المشاكل التي يثيرها أصحاب المكتبات والطابعون الباريسيون»، ذلك الذي طبعه بلوندل بشكل سري سنة 1725م.

ومع أن موقف النظام الملكي إزاء الطابعين والناشرين لم يتغير بشكل جوهري خلال القرن الثامن عشر إلا أن تأثير الأفكار الجديدة، التي كان ينشرها الموسوعيون، في فرنسا وأوربا أدى إلى أن تطبع وتقرأ كتب كثيرة على الرغم من الإجراءات الزجرية التي كانت تتخذها السلطات الحكومية. وهكذا فقد بدأ في فرنسا سنة 1751م صدور موسوعة ديدور الشهيرة، بينما أخذ الكثير من الطابعين يصدرون كتبا مصورة كثيرة من بينها بعض المؤلفات الإيروتيكية أيضا.

أما في النصف الثاني للقرن الثامن عشر فقد برزت أسرة ديدو المعروفة

التي أخذت تشتغل بأعمال الطباعة والنشر. وقد كان على رأس هذه الأسرة فرانسوا أمبرواز سنة (1735- 1804م)، الذي ورثه ابنه بيير سنة 1789م. وقد تفوقت أسرة ديدو منذ ذلك الوقت بإصداراتها الممتازة للكتاب الكلاسيكيين والمعاصرين، وتميزت بحروفها الخاصة وكتبها الرخيصة التي غطت فرنسا وبعض البلدان الأوربية الأخرى. وعلى كل حال سنعود للحديث عن هذه الأسرة في الفصل اللاحق.

ففي هولندا أيضا ازدهر إنتاج الكتاب كثيرا. وكان النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن السابع عشر عهد تطور كبير في المجال الاقتصادي والثقافي لهولندا، البلد الأكثر ليبرالية إزاء الأفكار الجديدة في أوربا خلال ذلك الوقت. ففي هولندا كان يمكن أن تطبع الكتب التي تمنعها رقابة الدولة أو الكنيسة في البلدان المجاورة. وخلال القرن السابع عشر عرفت الطباعة وأعمال النشر عصرها الذهبي كالفن التشكيلي (رمبرانت، فرمس) والعلوم الطبيعية (هويغنز) وللقانون (غروتيوس) والفلسفة (سبينوزا) وغيرها. وكان مما ساعد كثيرا على إبراز أهمية هذا البلد الصغير كمنتج كبير للكتاب جودة الكتاب المطبوع، وتنظيم شبكة توزيع الكتاب ورخص الكتب التي يقبل على شرائها الطلاب القادمون من كافة أرجاء أوربا للدراسة في جامعة ليدن المعروفة، وفوق كل شيء جو التسامح وتساهل الرقابة إزاء الأفكار الجديدة التي كان يبثها في كتبهم الفلاسفة المحليون والقادمون ورجال القانون وغيرهم من المثقفين بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي للبلاد.

كان مركز إنتاج الكتاب في هولندا يقع في مدينة أنتفربن، إحدى أغنى وأكبر المدن في أوربا في ذلك الوقت. فخلال القرن السادس عشر صدر في هذه المدينة أكثر من نصف الكتب المطبوعة في كل هولندا، بينما كان يعمل في هذه المدينة وحدها خلال (1500-1540م) 66 من رجال الطباعة الذي كان يقدر عددهم حينئذ في كل هولندا 133 طابعا. وهناك، في ذلك الجو الحافل، كان يعمل أشهر طابع في أوربا خلال النصف الثاني للقرن السادس عشر هو كريستوف بلانتين (1520- 1589م).

جاء بلانتين، الفرنسي الأصل، إلى انتفربن سنة 1549م حيث بدأ يصعد بسرعة سلم المهنة، فقد شغل في مطبعته أفضل عمال الطباعة في المدينة

وأجود سباكي الحروف وأشهر الفنانين لتزيين الكتب بالرسوم. وقد كسب بلاتيني الشهرة بإصداره الفخم للتوراة في عدة لغات والتي صدرت في

سباك الحروف من كتاب: Jost Amman, Standebuch 1568

ثماني مجلدات ضخمة خلال (1569- 1573م). وقد خرجت من مطبعته المجهزة بشكل ممتاز كتب رائعة ذات مضمون ديني ومؤلفات الكتاب الكلاسيكيين اليونانيين والرومانيين وكتب طبية وقانونية وغيرها. وبالإضافة إلى هذا فقد طبعت في مطبعة الأطالس المعروفة لـ أ. أورتليوس وأعمال موسيقية وأعمال الكتاب المعاصرين وخاصة من الفرنسيين. وهكذا فقد نشر خلال 34 سنة من عمله كطابع وناشر حوالي 2000 كتاب، أي حوالي 59 كتابا في السنة. وكانت هذه الكتب التي أصدرها تتميز بفخامتها ورسومها الكثيرة وطباعتها الرائعة، ولذلك فقد كانت توجه على الأغلب إلى التجار والصيارفة وغيرهم من أغنياء المدينة في كل هولندا وحتى في البلدان الأوربية الأخرى التي كان يرسل إليها بلانتيني كتبه. وفي زمن نشاطه

الكبير (العقد الثامن للقرن السادس عشر) كان بلانتيني يملك في مطبعته 16 آلة طابعة على الأقل، وربما وصل عددها إلى 22، أي أكثر من أي طابع آخر في عصره. فقد كان معاصروه، كآل أستيين في باريس مثلا، يشغلون 4 آلات طابعة فقط، وهذا ينسحب أيضا على بقية الطابعين المعروفين في ذلك الوقت. توفي بلانتيني سنة 1589م وخلف خمس بنات، تزوجت ثلاث منهن من مساعديه في المطبعة وتزوجت واحدة أخرى منهن يان مرتتتورف، الذي عرف في تاريخ الطباعة والنشر بالصيغة اللاتينية لاسمه والذي ترك له بلانتيني المطبعة والمكتبة في أنتفربن. ومع هذا بدأ نشاط آل مورتوس، الذين استمروا يعملون في هذا المجال حتى 1876م. ومن هؤلاء لا بد أن نذكر ابنه بالتازار الأول الذي كان يصمم الأغلفة له وينجز اللوحات الخاصة بالكتب الرسام المشهور ب. روبنس. وقد قام العضو الأخير من هذه الأسرة ببيع المطبعة إلى المدينة (1876م)، حيث أقيم «متحف بلانتين-مورتوس» الذي يعتبر من أفضل المتاحف لتاريخ الطباعة في العالم.

وبالمقارنة مع كريستوف بلانتين، الذي بقي على كاثوليكيته، فإن أسرة الزفيير-التي تعتبر من الأسر الكبيرة التي اشتغلت بالطباعة والنشر، قد اعتنقت البروتستانتية. وقد مارست هذه الأسرة أعظم نشاط لها في القرن السابع عشر، أي حين فقدت مطبعة بلانتين الأهمية التي كانت لها في القرن السابق، وحين وصل إلى قمة الازدهار إنتاج الكتاب وتطور شبكة التوزيع في هولندا.

كان لودفيك سنة (1540- 1617م) مؤسس هذه الأسرة المهمة، التي عمل أفرادها في الطباعة والنشر وتوزيع الكتب، الذي جاء إلى ليون من مسقط رأسه لوفن. وقد عمل في تجليد الكتب وبيعها ثم أخذ يعمل في النشر بعد أن أصدر كتابه الأول سنة 1583م. ولم يمض وقت قصير حتى أصبح له ممثلون في لندن وباريس وبقية المدن، كما أصبح يمتلك مخزنا للكتب في فرانكفورت حيث كان يستخدمه لتزويد الكثير من المكتبات في المدن الألمانية. ويلاحظ هنا أن لودفيك نفسه لم يمارس الطباعة إلا في نهاية حياته.

بعد وفاة لودفيك أخذ ابنه الأكبر ماتيس حوالي (1556- 1640م) وابنه الأصغر بونافنتور (1583- 1652م) مطبعة أبيهما وأعمال بيع الكتب في ليدن، وأسس الابن الثالث لودفيك الثاني مطبعة خاصة به في لاهاي سنة 1590م،

بينما تولى الابن الرابع يوست توزيع الكتب في أوترخ. إلا أن كل هؤلاء كانوا يمارسون بيع الكتب أكثر مما يمارسون إنتاج الكتب بينما سيختلف الأمر مع أبناء ماتيس، اسحق وأبراهام، حيث ستشتهر هذه الأسرة في أعمال الطباعة والنشر حتى أنها ستصبح أهم شركة للطباعة والنشر في كل أوربا. وقد طبعت وأصدرت هذه الأسرة حينئذ عددا كبيرا من الكتب الرخيصة التي تتضمن مؤلفات الكتاب القدماء، والتي كان يقبل الطلاب على شرائها ويأخذونها معهم بعد انتهاء دراستهم في ليدن إلى بيوتهم في كل أنحاء أوربا. وقد كانت أثمان هذه الكتب نابتة، إذ أن ثمن الكتاب (500 صفحة) كان لا يتجاوز غولدن واحد. ولا شك هنا أن هذا الثمن بالذات، بالإضافة إلى النص الجيد والمضمون، كان أحد الأسباب المهمة لرواج وانتشار هذه الكتب في كل أرجاء أوربا. وإلى جانب ذلك فقد اشتهرت أيضا سلسلة الكتب التي كانت تصف مختلف بلدان العالم، التي تصدر سنة 1626م، ومؤلفات أهم الكتاب الهولنديين والأجانب (ديكارت، غاليلو، ميلتون وغيرهم).

وهكذا فقد أصدر فرع أمستردام لهذه الشركة سنة 1609م الطبعة الأولى من الكتاب الشهير حول حرية الإبحار في البحار «بحر الكتب» لمؤلفه هوغو غروتيوس. وقد كانت الكتب التي قامت بطباعتها مطبعة ليدن وأمستردام (التي أسسها وأدارها أحد أعضاء هذه الأسرة) تعتبر من حيث الجمال والدقة في قمة الطباعة الأوربية.

ولكن مع إبراهام الثاني انتهت سنة 1712م هذه الأسرة-الشركة. ويقدر هنا عدد الكتب التي طبعتها وأصدرتها هذه الأسرة بـ5000 كتاب. وقد كانت هذه الكتب مشهورة ومرغوبة كثيرا لقيمتها لدى هواة جمع الكتب.

ومن الأسر الأخرى التي اشتهرت في الطباعة والنشر لا بد أن نذكر أسرة بلو (Bleu)، التي تخصص أفرادها في نشر الخرائط. وقد كان مؤسس هذه الأسرة وليم يانسون بلو (1571- 1638م) قد تعرف على الفلكي المشهور تيهوبراهن واندفع بتأثيره إلى العمل في الخرائط. وقد كانت خرائطه الأولى عن هولندا تتميز بالجمال والدقة عن الخرائط الأخرى التي طبعت سابقا مما وفر له شهرة كبيرة حتى أنه عين رساما للخرائط الجغرافية للشركة الهولندية للهند الشرقية. وفي سنة 1637م أسس وليم بلو مطبعته الخاصة له في امستردام، تلك التي ورثها من بعده ابنه يوان Joan. وقد طور

هذا عمل والده وطبع لاحقا «الأطلس العام». في أحد عشر مجلدا خلال سنة (1650- 1662م). وقد كان هذا الأطلس أفضل عمل من نوعه طبع حتى ذلك الحين، بل أنه لم يتم تجاوزه في بعض الجوانب حتى هذا اليوم. وقد طبع هذا الأطلس لاحقا في الألمانية والفرنسية والإسبانية. وفي الواقع لم يكن من المصادفة أن يصدر في هولندا عمل ضخم من هذا النوع، فقد كانت هولندا في ذلك الوقت في ذروة قوتها البحرية وكانت سفنها تجوب في كل بحار العالم وتجلب معها المعطيات عن المناطق الجديدة وعن السكان الذين يعيشون فيها. ولذلك فإنه ليس غريبا أنه في هذا البلد بالذات كانت تعمل أسرة بلو التي أصدرت أفضل الخرائط الجغرافية ومجسمات الكرة الأرضية والأطالس.

آلة القراءة على شكل دولاب تخيلها ووصفها الإيطالي أوغستينو راماللي في كتابه المطبوع في باريس سنة 1588م Le diverse at artificiose machine. Pariz 1588

أما في إنكلترا المجاورة فإن الرقابة لم تكن تساعد على تطور الطباعة والنشر. وهكذا فقد كان الكثير من الكتب العائدة للناشرين الإنكليز ومؤلفات الليبراليين في إنكلترا تطبع في القارة الأوربية نظرا للقيود السائدة على حرية الطباعة في إنكلترا. فقد أعاقت هذه القيود رجال الطباعة في إنكلترا عن تطوير عملهم مما كان يؤدي أحيانا إلى أن تطبع بعض الكتب في إنكلترا بحروف ورسوم مستوردة من كلن وباريس وبقية المراكز الطباعية في القارة الأوربية.

لقد كانت السلطات تراقب بصرامة عمل الطابعين والناشرين، وبعد تأسيس نقابة الطابعين سنة 1557 لم يعد من حق أحد أن يطبع أو يصدر أي كتاب إذا لم يكن من أعضاء النقابة أو إذا لم يحظ بموافقة النقابة في ممارسة هذا العمل. وقد أصبح على كل الطابعين من ناحية أخرى أن يسلموا النقابة قوائم الكتب التي يفكرون في طبعها أو إصدارها.

وقد أدت هذه القيود المفروضة على الطابعين والناشرين إلى الحد من نشاط الطباعة والنشر في لندن وفي المدن الجامعية مثل كمبردج وأوكسفورد. وقد حظيت المدينة الرابعة في إنكلترا بحق طبع الكتب في سنة 1662م فقط. أما في لندن، حيث كانت الرقابة أقوى، فقد تم تحديد عدد الطابعين فيها. وهكذا فقد سمح سنة 1586م لـ25 طابعا بممارسة هذه المهنة في لندن، بينما انحدر هذا العدد إلى 20 خلال 1662- 1695م. ولم تلغ هذه القيود إلا في سنة 1695م، حين أصبح في الإمكان ممارسة هذه المهنة في المدن الأخرى أيضا. ومع هذا لا يمكن الحديث عن طباعة متطورة في إنكلترا حتى القرن الثامن عشر، وبالتالي لا يمكن الحديث عن الدقة التقنية في العمل أو عن جمال الكتب المطبوعة. وقد بقيت الطباعة الإنكليزية خاضعة للطباعة الأوربية، وخاصة الهولندية، حيث كانت تستورد منها الحروف والكليشات. أما في القرن الثامن عشر فقد أصبحت الطباعة الإنكليزية في مستوى الطباعة الأوربية وحتى أنها أصبحت تتفوق عليها في بعض التفاصيل. وكان مما ساهم في هذه النقلة ظهور أهم سباك للحروف حينئذ، ألا وهو وليم كسلون (1692- 1766م)، الذي صنع أجمل الحروف اللاتينية والشرقية لصالح الطابعين الذين كانوا يطبعون حينئذ الكتب باللغة العربية وغيرها. أما معاصره الأحدث جون باسكرفيل (1705-

1775م) فقد عمت شهرته إنكلترا وبقية البلدان الأوربية بحروفه الرائعة التي بقيت حتى هذا اليوم.

وقد أسس باسكرفيل سنة 1750م مطبعة خاصة به بالإضافة إلى مسبك للحروف ومعمل الورق. وقد أصدر إلى حين وفاته عددا من الكتب المطبوعة بعناية للمؤلفين القدماء والمعاصرين التي لم تكن تتخلف عن أجمل الكتب المطبوعة في القارة الأوربية.

إلا أن محتويات هذه المطبعة تعرضت إلى مصير غريب بالفعل. فقد اشتراها سنة 1779م الشاعر والكاتب المسرحي الفرنسي المعروف بومارشيه لشركته الأدبية-الطباعية (Societe Litteraire-typographique) لكي يصدر الأعمال المختارة لفولتير. ونظرا للرقابة القائمة في باريس التي أعاقته عن تنفيذ هذا المشروع فقد أسس بومارشيه مطبعة في قصر كهل، بالقرب من ستراسبورغ، حين تمكن هناك من إصدار الأعمال المختارة لفولتير في سبعين مجلدا خلال سنة (1780-1790م)، وهي الطبعة المشهورة بطبعة كهل. وقد شارك حينئذ في تنفيذ هذا المشروع الكبير 78 طابعا و14 سابكا للحروف. وبعد أن شارف هذا العمل على الانتهاء بيعت محتويات مطبعة باسكرفيل وانتشرت بين المطابع الفرنسية. وبجهد كبير تم لاحقا جمع ما تبقى من حروف باسكرفيل التي بقيت تحفظ إلى اليوم في كمبردج.

لقد وصل إنتاج الكتاب إلى مستوى لائق في بلدان أخرى من العالم وأخذت الكثير من البلدان، التي لم تكن تطبع الكتب فيها خلال القرن الخامس عشر، بتأسيس المطابع التي أصبحت تطبع فيها الكتب باللغات المحلية.

ففي سويسرا كانت الطباعة متطورة منذ القرن الخامس عشر، (بازل، لوران، الخ)، أما في القرن السادس عشر فقد أصبحت بازل من أهم مراكز الطباعة والنشر بفضل الطابعين-الناشرين المشهورين الذين كان من أهمهم يوهان فروبن. وقد تخصص هذا في طبع النصوص اليونانية، إلا أنه اشتهر أيضا بطبع كتب أرازمو روتردام الذي كان صديقا له. وكما كان الأمر مع ألدو مانوسيو في فينيسيا فقد كان فروبن أيضا يحيط به رجال الإحياء ولذلك أصبح من المدافعين المتحمسين عن أفكارهم.

وخلال حركة الإصلاح أصبحت جنيف مركزا مهما للطباعة نظرا لالتجاء

دعاة الإصلاح إليها من فرنسا (هنري أستيين، توماس مورتو وغيرهم). وقد اشتهر في زيوريخ الطابع-الناشر كريستوف فروشر الذي أصدر خلال سنة 1521- 1564م) حوالي 600 كتاب من بينها مؤلفات غسنر العلمية والببليوغرافية.

وفي إسبانيا أيضا كانت للطباعة تقاليد كبيرة منذ القرن الخامس عشر. ففي ذلك الوقت كانت المطابع تنتشر في 25 مدينة إسبانية. إلا أن تطور الطباعة هنا لم يكن في مستوى البلدان الأوربية بحيث إن الكتب المطبوعة في إسبانيا بقيت حتى منتصف القرن السادس عشر تحفظ سمات الكتب المطبوعة القديمة (الانكابولات). ولكن هذا لم يمنع رجال المطابع من أن يعملوا وأن ينتجوا عددا كبيرا من الكتب الدينية والعلمية الخ. وفي هذا المجال كانت الريادة لمدن سالامانكة وسرغسطة وفالاتوليدا الخ. بينما أسست أول مطبعة في مدريد سنة 1566م، أي بعد أن اختارها الملك فيليب الثاني عاصمة له بخمس سنوات. ومن المثير هنا أن الكتب كانت غالبا ما تطبع بالحروف القوطية الثقيلة في هذه الدولة الصارمة والمحافظة.

وفي تطور الطباعة الإسبانية هناك حدث مهم يتمثل في تأسيس أول مطبعة للجالية الإسبانية في المكسيك. وكان خوان كرومبرغر الذي كانت له مطبعة في المدينة التجارية والغنية إشبيلية، التي كانت ترسل السفن إلى العالم الجديد لتعود وهي محملة بالذهب والبضائع الأخرى، هو الذي حصل على امتياز بطبع الكتب في المكسيك. ولأجل هذا فقد أرسل إلى هناك الطابع خوان بابلوس، الذي طبع في عاصمة الجالية الإسبانية سنة 1539م أول كتاب في العالم الجديد «العقيدة المسيحية في اللغتين المكسيكية والقتلانية». وقد كان الهدف من هذا الكتاب وغيره من الكتب، واضحا جدا. فقد كانت السلطات الدينية تحتاج إلى كتب من هذا النوع لنشر المسيحية في وسط الهنود الخاضعين. وقد كان الطلب على هذه الكتب الدينية كبيرا بحيث إنه أسست مطبعة أخرى في المكسيك سنة 1559م، تلك التي أسسها سباك الحروف الإشبيلي أنتونيو دي أسبينوزا. وحتى نهاية القرن طبع في المكسيك 116 كتابا، بينما طبع خلال القرن السابع عشر 1228 كتابا.

لقد عرفت الطباعة وأعمال النشر في أسبانيا نوعا من الازدهار خلال القرن السادس عشر. إلا أن الحروب الداخلية في المملكة سببت تراجع إنتاج الكتب منذ نهاية القرن، وخاصة في جودة الكتب، بحيث إن أعمال أفضل الكتاب الإسبانيين كانت تطبع على ورق سيئ وتصدر النصوص دون أية عناية. وقد استمرت هذه الحالة حتى خلال القرن السابع عشر حين طبعت مؤلفات أعظم الكتاب الإسبانيين بما فيهم رواية «دون كيشوت» لسرفانتس (الجزء الأول سنة 1605م والجزء الثاني سنة 1615م). ولكن في القرن الثامن عشر أخذ إنتاج الكتاب يتحسن. وقد ساهم بشكل رئيسي في هذا الانبعاث الطابع-الناشر هواكين أبارا سنة (1725- 1785م)، الذي أصدر فيما أصدره أول طبعة دقيقة لرواية سرفانتس. وقد صدرت حينئذ هذه الطبعة في أربعة مجلدات وضمت لوحات جميلة قام بإنجازها الفنانون الأسبان.

وفي البلدان الإسكندنافية أيضا برز تأثير حركة الإصلاح في تطوير الطباعة بسرعة، أي كما حدث في ألمانيا. وكانت هذه البلدان منذ القرن الخامس عشر تحت تأثير ألمانيا الشمالية فيما يتعلق بصناعة الطباعة أيضا لأنها كانت مرتبطة بالمجالات الأخرى مع المدن الألمانية الشمالية وخاصة لوبك ومن هذه المدينة بالذات جاء إلى استوكهولم أول طابع ألماني، هو يوهان سنيل.

وطبع هناك سنة 1483م أول كتاب في السويد «حوار المخلوقات» لمؤلفه ماينوس ماينرس. وفيما بعد طلب ملك السويد غوستاف الأول من رجل الطباعة جورج ريشولف الأصغر أن يؤسس له مطبعة ملكية في أوبسالا Upsala. وقد حمل معه هذا من لوبك مسبك الحروف الخاص به والقوالب الجاهزة وطبع في أوبسالا أول ترجمة سويدية للعهد الجديد. وفيما بعد، في سنة 1541م، طبع لأول مرة التوراة الكاملة في لغة الشعب، التي عرفت باسم توراة غوستاف فاسا.

وفي الدانمارك أيضا تطورت الطباعة تحت تأثير مدينة لوبك وغيرها من المدن الألمانية الشمالية. وكان ي. سنيل، الذي أسس أول مطبعة في السويد، قد طبع أول كتاب في الدانمارك. وقد قام هذا الطابع الألماني المتجول قبل سنة من طبع كتابه الأول في استوكهولم بالذهاب إلى مدينة

أودنسة Odense حيث طبع أول كتاب في الدانمارك، ألا وهو «الحصار وردوس الجميلة» لغوليموس كاورسين.

وفي مطلع القرن السادس عشر أسست في الدانمارك عدة مطابع، ثم جاء انتشار حركة الإصلاح ليعطي هذه الصناعة دفعة قوية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن العالم الفلكي المشهور تيهو براخ T. Brahe سنة (1546- 1601م) كانت له مطبعة خاصة به. وكان هذا العالم قد أسس في قصر أوانينبورغ بجزيرة هفن، حيث بني مرصدين هناك، معملا صغيرا للورق ومطبعة بالإضافة إلى ورشة لتجليد الكتب. وقد طبع هنا عدة كتب فخمة مزينة بالرسوم كامن بينها بعض مؤلفاته أيضا. إلا أن هذا العالم لم يلق التشجيع في بلاده لأبحاثه العلمية ولذلك فقد قبل دعوة الكونت رانشاو وهاجر سنة 1597م إلى فاندسبك بالقرب من هامبورغ، حيث أخذ معه مطبعته أيضا. وقد طبع هنا حينئذ مؤلفه العلمي «ميكانيك تركيب الآلات الفلكية».

وفيما يتعلق بفنلندا فقد طبعت الكتب الأولى باللغة الفنلندية في السويد لأن فنلندا كانت تخضع للسويد منذ القرن الثاني عشر. وقد كان الفضل الأكبر في طبع الكتب بهذه اللغة يعود إلى ميكايل أغريكولا، أحد دعاة الإصلاح الفنلنديين الذي كان قد درس لفترة من الزمن اللاهوت في جامعة فرتنبرغ حيث استمع هناك إلى محاضرات لوثر وميلانهترن. وهكذا بتأثير حركة الإصلاح طبع أول كتاب في لغة الشعب (أبكيريا) في أستوكهولم بالذات. وقد طبع في هذه المدينة عدة مؤلفات له بينما أصدر سنة 1548م العهد الجديد باللغة الفنلندية والأدب الفنلندي. أما في فنلندا نفسها فقد أسست أول مطبعة سنة 1642م في جامعة مدينة أبو (Abo) التي افتتحت حينئذ.

أما بلدان أوربا الوسطى والشرقية، التي لم تؤسس فيها مطابع خلال القرن الخامس عشر، فقد ظهرت فيها المطابع في القرن السادس عشر. ففي بلاد التشيك، وبعد المحاولات الأولى في القرن الخامس عشر، ظهرت المطابع في مدن كثيرة وأخذت تطبع الكتب باللاتينية والعبرية واليونانية وغيرها من اللغات. وفي بولونيا كان مركز إنتاج الكتاب في القرن (16) يقع في المدينة القديمة كراكوف، ولكن في النصف الثاني من ذلك القرن أخذت الكتب تطبع في عدة مدن أخرى. وهكذا فقد صدرت سنة 1563م في بلدة

بريست ليتوفسك أول ترجمة بولونية للتوراة. إلا أن إنتاج الكتاب سرعان ما تراجع في بولونيا خلال القرنين السابع عشر نتيجة للحروب مع روسيا والبلدان المجاورة.

وقد طبع أول كتاب في روسيا سنة 1564م، وفي أوكرانيا سنة 1574م. وقد كانت أكثرية الكتب التي تطبع هنا ذات طابع ديني. ومن الصعب هنا الحديث عن الطباعة كصناعة مزدهرة في هذه البلدان لأن رجال الطباعة اقتصروا في عملهم على طبع ما تطلبه الكنيسة ورجال الدين. ومن بين الكتب الكثيرة التي طبعها أو. م. راديشفسكي في مطبعته لا نجد إلا كتابا واحدا لا يتعلق بالدين. ولكن مع تولي بطرس الكبير للعرش الإمبراطوري انفتحت أبواب روسيا أمام التأشيرات القادمة من أوربا الغربية مما أدى إلى ظهور عدد كبير من الكتب غير الدينية. وقد أدت إصلاحات بطرس الكبير أيضا إلى ظهور ما يسمى بالحروف الكيريلية المدنية، حتى أن سباك الحروف ميخائيل أفريموف سبك سنة 1717م ثلاثة أنواع من هذه الحروف. ومنذ ذلك الحين أخذ إنتاج الكتاب يستقل عن الكنيسة. وهكذا قام العالم والكاتب المعروف م. ف. لومونسوف سنة 1756م بتأسيس مطبعة مهمة في جامعة بطرسبرغ، التي كان قد أسسها بدوره.

وقد تابعت الشعوب السلافية الجنوبية (اليوغسلافية)، بعد أن طبعت كتبها الأولى في القرن الخامس عشر، تطوير إنتاج الكتاب إلا أن معظم الكتب خلال القرون الثلاثة 16- 18 طبعت في البلدان المجاورة (إيطاليا، ألمانيا الخ) نظرا للظروف الصعبة التي سادت هنا بعد اقتراب الأتراك وفتحهم لأطراف البلدان السلافية الجنوبية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة فقد وجدت الإمكانيات لطبع الكتب التي تحتاجها الكنيسة، بينما كان الكتاب الذين يؤلفون في المواضيع غير الدينية يقومون بطبع كتبهم في الخارج وخاصة في فينيسيا . وفي بعض الأحيان كانت الكتب الدينية تطبع في الخارج إذ أن عدد المطابع في الداخل كان لا يكفي كما أن المصاعب المختلفة منعت أحيانا من طبع الكتب.

وهكذا بالإضافة إلى مطبعة رييكا المذكورة في السابق، التي أسسها ش. كوجيتشيتش وطبع فيها أربعة كتب في الحروف الغلاغولية خلال

سنتين فقط (1530- 1531م)، فقد كانت هناك مطابع أخرى في كرواتيا خلال القرن السادس عشر، وبالتحديد في ندليشتشه بالقرب من تشاكوفاتس وفي فراجدين. وكان الطابع المتجول رودلف هوفهالتر قد قدم إلى ندليشتشه، بدعوة من الأرستقراطي الكرواتي المؤيد للبروتستانتية يوراي زرينسكي، حيث طبع هناك ترجمة كتاب «مجموعة القوانين الممنوحة من ملك هنغاريا في 3 أجزاء» للقانوني والسياسي الهنغاري ايشتفان فربو. وقد ترجم هذا الكتاب وأعاد صياغته باللغة الكرواتية الكاتب إيفانوس برغوشيتش. أما في فراجدين فقد أسس المطبعة هناك هانس مانل الذي يعتبر رائد الطباعة في سلوفينيا أيضا. فقد طبع خلال سنوات (1575-1582م) في لوبليانا عدة كتب في السلوفينية واللاتينية والألمانية، بينما طبع سنة 1578م «الوقائع» للكاتب الكرواتي أنطون فرامس. ولكن نظرا للمصاعب التي واجهته في لوبليانا فقد نقل مطبعته إلى فراجدين حيث طبع عدة كتب لم يبق منها إلى اليوم إلا القليل.

وفي صربيا كانت الكتب، التي تكاد تكون دينية بكاملها، تطبع خلال القرن السادس عشر في عدة أديرة (غراتشانيسا، ميلشيفا الخ) بينما طبع مع الراغوصي تروبان غوندوليتش في بلغراد سنة 1552م الكتاب الديني «عيد البشارة». وكانت الكتب الدينية تطبع أيضا في ذلك الوقت في البوسنة (دير غوراجده) وألبانيا (شكودرا) وفي رومانيا (ريمنيك) خلال سنوات (1726- 1761م) في مطبعة الأسقفية.

أما في أطراف البلاد السلافية الجنوبية فلم يحدث ما يلفت النظر في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فقد طبعت هنا وهناك بعض الكتب النادرة، التي كانت دينية في غالبيتها وهكذا بعد مطبعة مانيل أسست في سلوفينيا مطبعة أخرى سنة 1678م. أما في كرواتيا فقد كان أهم حدث يتمثل هناك في المشروع المهم للمؤرخ والكاتب بافلة ريترفينروفيتش، الذي طبع خلال (1695- 1716م) حوالي خمسين كتابا من بينها بعض مؤلفاته. وقد بقيت المطبعة التي أسسها بعد وفاته، ثم أسست في زغرب عدة مطابع أخرى فيها المعاجم المختلفة والمؤلفات الطبية والأعمال الأدبية والمجلات الفصلية الخ.

وعلى الرغم من هذا فقد صدرت معظم مؤلفات الكتاب اليوغسلافي

في الخارج. وفي هذا المجال كانت من الأهمية بمكان مطبعة الدوق المونتنغري بوجيدار فوكو فيتش في فينيسيا التي طبع فيها سنة (1519- 1538م) عددا من الكتب بالحروف الكيريلية لأجل الكنيسة. وبعد موته تولى ابنه فيتشنسوا إدارة المطبعة حتى سنة (1561م) حين اشتراها رجل الطباعة أنطونيو رامبازيتو.

وفي الواقع كان الكتاب الكرواتيون، سواء الذين يعيشون في وطنهم أم في هنغاريا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، يطبعون كتبهم في الخارج. وهكذا كان ماركو ماروليتش وبيتر هكتوروفيتش وبيتر زورانيتش وفاوستو فرانتشيتش، وغيرهم من الكتاب من دوبروفنيك وسبليت وزادار يعتمدون في الغالب على الطابعين-الناشرين في فينيسيا حيث كان هناك البعض يتخصص في طبع وبيع كتب المؤلفين الكرواتيين. ومن هؤلاء لا بد أن نذكر بارتولو الذي طبع أول فهرس نعرفه لكتب المؤلفين الكرواتيين.

وقد طبع هذا الفهرس لأول مرة كملحق لكتاب «دموع الابن المفسد للحب» لمؤلفه إيفان غوندوليتش (1703م)، حيث ورد فيه عناوين (23) كتابا، ثم طبع لاحقا عدة مرات بعناوين جديدة. وهكذا فقد ورد فيه سنة 1712م (51) كتابا باللغة الكرواتية مما هو متوفر للبيع في محله في فينيسيا. وفي الواقع كانت فينيسا أهم مركز للطباعة والنشر للكتاب الكرواتي منذ نهاية القرن الثامن عشر. وكانت هذه المدينة، التي كانت في زمن ألدومانوسيو وبعده أقوى مركز للطباعة في أوربا، مهيأة لكي تغري الكتاب الكرواتيين بطباعة كتبهم هنا. ولكن استحالة طبع الكتب في كرواتيا كانت تدفع الكتاب الكرواتيين إلى طبع كتبهم في فينيسيا بالذات، وحتى في بقية مدن إيطاليا وألمانيا وغيرها.

وهكذا فقد كان ماركو ماروليتش وفاوستو فرانتيتش وإيفان غوندوليتش وغيرهم يطبعون في روما، بينما طبع أ. غوندوليتش كتابه (أرديانا) سنة (1633م) في أنكونا. وفي هذه المدينة أيضا صدر سنة (1665م) كتاب Trubglia Slovinska للشاعر فلاديسلاف منتشيتيتش، بينما صدر في بيزارون Pezaron القريبة المؤلف التاريخي المعروف «مملكة السلاف» لـ مافرو أوربين. وقد طبع ماتيا فلاتشيتيش إليريك الكثير من كتبه في ألمانيا، بينما طبع يانوس يانونيوس وبافاو سكالتيش وماركانتون دومينيس وروبر بوشكوفيتش، وغيرهم

من الأدباء والفلاسفة والمؤرخين، أعمالهم في كل أرجاء أوربا في اللاتينية والكرواتية والألمانية والإيطالية والهنغارية وغيرها من اللغات. وقد جرى هذا أيضا للكتاب الصربيين والسلوفينيين.

ومن المثير أن دوبرفنيك، المدينة الغنية والحرة، لم تملك أية مطبعة في ذروة ازدهارها الاقتصادي والثقافي. وقد استمر الوضع هكذا إلى أن قام الطابع والكتبي كالوناتونيو أوكي بتأسيس مطبعة في المدينة سنة (1783م) حيث طبع فيها إلى حين وفاته سنة (1787م) خمسون كتابا . وقد طبع وريثه أنطونيو تريفازاني في هذه المطبعة (59) كتابا آخر.

ومن الشعوب الأخرى التي طبعت كتبها بلغاتها خلال القرن السادس عشر هم الألبانيون. ففي سنة (1555م) طبع كتاب القداس الذي ترجمه وأعده للطبع القس جون بوزوكو. إلا أن هذا الكتاب لم يرد فيه مكان الطبع. ولذلك ربما يكون قد طبع في فينيسيا أو في ألبانيا (شكودرا) حيث كانت هناك مطبعة طبع فيها سنة (1563م) كتاب ديني في الصربية. وحسب الشهادة التي تركها سنة 1332م الرحالة الفرنسي غوليموس G Adae فإن الألبانيين، يستعملون في كتبهم الحروف اللاتينية مع أن لغتهم تتميز عن اللاتينية. وفي مطلع القرن السادس عشر بالذات طبع رجل الإحياء الألباني المعروف مارين بارليتي باللاتينية كتابه «حصار شكودرا» (فينيسيا 1504م)، بينما طبع في روما خلال سنة (1508- 1510م) السيرة المشهورة لـ إسكندر بك «تاريخ وحياة الأمير الأبيري إسكندر بك».

ومن ناحية أخرى فإن ما ذكرناه عن تغلغل الطباعة الإسبانية في القارة الأمريكية لم يبق معزولا . ففي سنة (1638م) أسست أول مطبعة في الأراضي الحالية للولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في بلدة صغيرة (كمردج) بولاية ماساتشوستس حيث تأسست حينئذ جامعة لأجل أبناء القادمين الإنكليز. وكان قد دعي حينئذ ثلاثة من الطابعين من كمردج الإنكليزية ليحملوا معهم مطبعتهم وليقيموا في كمردج الجديدة حيث طبعوا هناك عدة كتب. وخلال القرن الثامن عشر تطورت الطباعة بزخم في أمريكا، كما في كندا المجاورة، وتحولت إلى صناعة مزدهرة.

أما الشرق الأقصى فقد تطور إنتاج الكتاب بشكل متميز قبل أن يحمل الأوربيون إليه مطابع غوتنبرغ الجديدة. وهكذا فقد حمل البرتغاليون معهم

المطابع إلى مستعمراتهم في غوا Goa (1557م) وماكاو Makao(1588م). وكما حدث مع الإسبانيين في أمريكا الوسطى حيث كانوا يقومون بطبع الكتب من أجل الجماعات المسيحية الجديدة، فإن الهم الأساسي للمبشرين البرتغاليين في مستعمرات الشرق الأقصى كان ينحصر في الاستفادة من هذه المطابع لتأمين الكتب لأجل الدروس الدينية وبشكل عام كانت الكتب ضرورية لنشر المسيحية بين السكان هناك.

ويعود الفضل في نشر الكتب العلمية في الصين إلى المبشرين الإيطاليين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وإلى رجال الطباعة الفرنسيين والألمان وغيرهم ممن كانوا يحملون معهم من أوربا وبتشجيع من الأباطرة الصينيين-كتب الرياضيات والطب وغيرها من المؤلفات العلمية ليترجموها ويطبعوها باللغة الصينية. وفي هذا المجال أنجز الألماني آدم شال من كلن أعظم مشروع من نوعه في النصف الثاني للقرن السابع عشر. فقد أعد هذا، بالتعاون مع الصينيين، خطة طموحة لطبع موسوعة ضخمة للرياضيات والعلوم الطبيعية في مائة مجلد.

أما في اليابان فقد وصلت تقنية غوتنبرغ الطباعية في الوقت الذي وصلت فيه من كوريا التقنية البدائية للطباعة بواسطة الحروف المعدنية المتحركة. وكان الراهب اليسوعي ألساندرو فيلينيانو قد حمل معه من أوربا أول مطبعة إلى اليابان حيث طبع فيها عشرات الكتب باليابانية وبالحروف اللاتينية خلال سنة (591- 1610م) إلا أنه لم يبق منها إلى اليوم سوى ثلاثين. وقد أصدر اليسوعيون أول كتاب سنة (1591م) في مدرستهم، التي كانت تقع في كاتسوسا بمقاطعة ميزت، وكان يتضمن بعض سير القديسين، ولكن حكم على هذه المطبعة بالتوقف عن عملها ومغادرة المنطقة نتيجة سياسة الانغلاق إزاء الأجانب وخاصة المسيحيين منهم التي كان يطبقها حكام اليابان في ذلك الوقت.

إلا أن عمل المبشرين لم يترك آثارا عميقة في تطور الطباعة اليابانية بالمقارنة مع التأثير الكوري. وقد عاد القائد العسكري الياباني تويوتوس هيديو شي من حملته إلى كوريا خلال سنة (1592- 1596م) محملا بكميات كبيرة من الحروف المسبوكة التي أهداها حينئذ سنة (1592م) إلى الإمبراطور غيوزين. وقد أثارت هذه الهدية حماس الإمبراطور ولذلك أمر فورا بطبع

الكتب بواسطة هذه الحروف. ولم تمض فترة قصيرة حتى بدأت المطبعة الإمبراطورية في طبع سلسلة الكتب المسماة تشوكو هان (المطبوعات الإمبراطورية)، التي لا بد أن نذكر منها كتاب «الوقائع اليابانية» سنة (1599م)، الذي يعود إلى القرن الثامن الميلادي. وبالإضافة إلى هذه المطبعة الإمبراطورية كانت الكتب تطبع أيضا في الأديرة البوذية كما ظهرت بعد ذلك المطابع الخاصة. ويعتبر إيياسو (1542- 1616م) أهم شخصية في الإنتاج الكبير للكتاب ورائد المرحلة التاريخية المعروفة باسم (توكوغافا). وكان أيياسو محبا للكتاب إذ أنه كان يجمع المخطوطات القديمة بشكل خاص ويحرص على أن يطبعها بواسطة التقنية الجديدة الواصلة من كوريا. وقد أسست بتشجيع منه مطبعة في فوشيمي حيث طبع فيها خلال قرنين عدد كبير من الكتب البوذية وغيرها من الكتب.

إلا أن الطلب الكبير على الكتاب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر أدى إلى نتيجة غير متوقعة. فقد أصبحت الطباعة بواسطة الحروف المتحركة غير فعالة نتيجة للاعتماد الكبير على الرموز الصينية ونظرا للحاجة إلى كتابة التعليقات على النصوص البوذية بالحروف اليابانية وباللغة اليابانية فقد أصبح على الطابع أن يملك عددا كبيرا من الرموز لكي يطبع نصا ما، ولذلك أصبح من الأسهل أن يحفر النص على الخشب وأن يطبع النص كما هو بكل تعليقاته بواسطة القوالب الخشبية. وهكذا فقد تخلى اليابانيون منذ منتصف القرن السابع عشر عن الطباعة بواسطة الحروف المعدنية المتحركة وعادوا ثانية إلى الطباعة بواسطة القوالب الخشبية. وقد أدت هذه العودة إلى تطوير الطباعة بواسطة القوالب الخشبية وتزيين الكتب بالرسوم بواسطة هذه القوالب، وهي المهارات التي اهتم بها اليابانيون كثيرا.

وقد عرف إنتاج الكتاب في اليابان ازدهارا كبيرا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ويكفي هنا أن نذكر أنه خلال العقد الخامس من القرن السابع عشر كان في كيوتو حوالي مائة ناشر، بينما وصل عدد الناشرين في اليابان كلها إلى 600 ناشر في بداية القرن الثامن عشر. ويقدر أنه خلال مرحلة توكو غافا (1615- 1868م) كان يعمل في اليابان سنة (1138م) ناشرا وطابعا وخاصة في كيوتو وأدو (طوكيو) وأوساكو. وقد طبعت

في المطابع المنتشرة في هذه المدن كتبا رائعة مزينة بالرسوم وبالألوان على الأغلب، تتضمن موضوعات دينية وغير دينية. كما صدرت أيضا طبعات رخيصة للأعمال الأدبية وكانت موجهة للشرائح الفقيرة في المجتمع. ومع أن هذه الكتب كانت تصدر دون اهتمام بصف الحروف وطبعت على ورق سيئ إلا أنها كانت مهمة لنشر الكتابة في وسط شرائح واسعة من الشعب.

استمر اليابانيون مدة قرنين من الزمن في طباعة كتبهم بواسطة القوالب الخشبية ولم يعودوا ثانية إلى الطباعة بواسطة الحروف المتحركة إلا في منتصف القرن التاسع عشر تحت تأثير الغرب.

ولم يكن لوجود المبشرين والعلماء الأوربيين في بكين، وغيرها من مدن الشرق الأقصى، ذلك الأثر الحاسم في تطور العلم في الصين واليابان وكوريا كما يجب أن يكون نظرا للموقف التشكيكي وحتى العدائي للمراكز البوذية والكونفوشيوسية من أولئك الذين كانوا ينشرون الإنجازات العلمية الأوربية والديانة والأيديولوجية الغربية في وقت واحد. وعلى الرغم من هذا لا يمكن أن ننفي أن الكتب، التي كان الأوربيون قد جلبوها وطبعوها في هذه البلدان منذ القرن السادس عشر، مرت دون أن تؤثر بشكل حاسم على تطور العلم في هذه القارة. ومن ناحية أخرى لا يوجد شك في أن المبشرين بالذات، الذين تعلموا لغات الشعوب ذات الحضارة القديمة وتعرفوا على ثقافتها العريقة، حملوا معهم إلى أوربا المعارف التي مكنتها من اكتشاف العالم الذي كانت تعرفه قليلا أو لا تعرفه أبدا.

ب. الكتاب في عصر حركة الإصلاح

لم يكن لوثر وأتباعه في ألمانيا والبلدان الأخرى هم أول من أدرك أهمية الكلمة المكتوبة في نشر الأفكار الجديدة وفي تحريك الجماهير وفي الكفاح ضد المؤسسات السياسية أو الدينية. ومع هذا لا نجد أحدا قبل هؤلاء عرف كيف يستفيد بحذق ونجاح من الطباعة في نشر أفكاره السياسية والدينية، كما فعل هؤلاء البروتستانت. ويقال هنا بحق إن لوثر لم ينجح في كفاحه ضد روما القوية في ذلك الحين إلا بفضل مهارته في استخدام الطباعة.

لقد كان لوثر مدركا للقوة الحاسمة للكلمة المطبوعة منذ بداية كفاحه

ضد بابوات روما. وهكذا بالمقارنة مع الكثير من المتمردين السابقين والهراطقة والمكافحين ضد الظلم الاجتماعي، كشخصية يان هوس التراجيدية، الذين بدأوا كفاحهم ضد روما بوعظ دائرة محدودة من المستمعين مما كان يحد من تشكيل جبهة عريضة من مؤيديهم قادرة على مقاومة الإجراءات الزجرية وحتى الدموية ضدهم، فإن لوثر قد بدأ حركته بموقف أمن له فورا التأييد الواسع. فقد شن لوثر حملته ضد روما بتعليق العريضة التي تضمنت الحجج الـ95 المشهورة ضد صكوك الغفران، التي كان قد علقها حينئذ سنة (1517م) على باب الكنيسة في فيرتنبرغ وحسب الشهادة المضخمة، التي لها أساس من الصحة، لمؤرخ حركة الإصلاح فريدريخ ميكونيوس في كتابه «تاريخ حركة الإصلاح» فإنه لم تمض 15 يوما حتى كانت هذه العريضة قد أصبحت معروفة في كل ألمانيا بينما لم يمض شهر حتى كان كل العالم المسيحي يعرف بها: «كان يبدو كأن الملائكة أنفسهم رسل له، يحملون له العريضة إلى كل الشعوب». وفي الواقع لقد كان لوثر نفسه، على نحو نادر بالنسبة لذلك الوقت، قد أدرك ما للكلمة المطبوعة من قوة عظيمة. وهكذا فقد سجل مرة في إحدى المناسبات هذه الملاحظة «انظر إلى ما فعله: ألم أستطع يا ترى أن أستقل عن البابوات والقساوسة والخوارنة والرهبان بفضل الكلمة أكثر مما فعل الملوك والأمراء حتى الآن بالقوة العسكرية؟».

وكان لوثر قد توجه، بعد أن دعي سنة 1520م إلى روما لتبرير موقفه وأدين بفرمان بابوي خاص، إلى الكتابة وألف عددا من الكراسات في لغة الشعب لكي يفهمها الجميع، وقد طبع منها عدد كبير من النسخ. وهكذا خلال أربع سنوات من الحرب العلنية مع روما صدرت مؤلفات كثيرة للوثر في 800 طبعة!

وكان للكتاب، خلال الحرب العنيفة بين البروتستانت والكاثوليك، مركزه المتميز. فقد أصبح الكتاب سلاحا ماضيا ضد العدو بينما تحولت الكتابات المعارضة إلى أكبر خطر على أصحابها. وهكذا فقد كان كل طرف يحاول أن يرسل الكتب بأية وسيلة إلى أتباعه في مناطق الطرف الآخر ويجتهد في أن يمنع وصول كتب الطرف الآخر إلى مناطقه، إذ أن كل طرف أدرك بسرعة الخطر الكبير الذي تمثله كتابات الطرف الآخر. وقد اندلعت بين

الطرفين حرب دعائية حقيقية بواسطة المناشير والكتب، وهي الحرب التي ساهمت بدور كبير في تطوير الطباعة وفي تأكيد التواصل بالكتابة في أوربا.

لكي يفهم المرء أفكار لوثر وكيفية انتشارها. وما تعلق بالأحداث التي أعقبت قرار الحرمان بحقه، لم يعد يحتاج لشراء وقراءة الكتب. فقد كان يكفي أن يقرأ المرء شيئا من آلاف الملصقات والبيانات التي كانت تنقل للشعب، بالصورة والكلمة، كل الحوادث المهمة. وهكذا فقد أخذت الحرب الدعائية منذ ذلك الحين تلك السمات التي رافقتها خلال القرون اللاحقة في الحالات المشابهة حيث كانت المعارك الدينية جزءا لا يتجزأ من هذه الحرب، كما أن المعلومات المغلوطة التحمت مع المعلومات الصحيحة في كلية واحدة بشكل لم يعد بالإمكان الفصل بينهما. ولدينا هنا مثال مشهور يصور لنا على نحو جيد هذا الوباء الجديد: ففي سنة 1528م كانت تجري في بلدة موكس الفرنسية حرب حقيقية بواسطة الملصقات. وفي صباح أحد الأيام علق على باب الكاتدرائية فرمان بابوي مزور للبابا كلمنت السابع ورد فيه أنه «يسمح ويأمر بأن تقرأ كتب لوثر وتعاد قراءتها وتعطى للآخرين لكي يقرءوها».

وقد ساهم التقريع العنيف واللجوء إلى الكاريكاتير بين الطرفين إلى رفع حدة هذه الحرب التي لم يعرف لها مثيل.

كان الكاثوليك والبروتستانت يطبعون الكثير من الرسائل الهجائية التي كانت توجه إلى الشرائح المتعلمة من المجتمع. وقد كانت هذه الرسائل عبارة عن مقالات حادة مليئة بالمرارة والكراهية لا توفر أي شيء للإساءة إلى الخصم. وفي هذه السجلات كان البروتستانت أكثر نجاحا إذ أنهم ركزوا نقدهم على بذخ رجال الدين في روما وفساد البابوات، الذين كانوا حينئذ في المقر المقدس، والرهبان والراهبات في الأديرة. وقد كان لوثر نفسه كاتبا ممتازا ومكثرا للرسائل الهجائية في المرحلة الأولى لحركة الإصلاح، بينما كان الكرواتي ماتيا فلاتشيتش إيليريك هو الأكثر اندفاعا في المرحلة الثانية إذ أنه ألف حوالي 300 رسالة هجائية وكتاب.

وفي الواقع لقد كانت الرسائل الهجائية تكتب في أوربا قبل حركة الإصلاح، إلا أن عددها كان حينئذ ضئيلا للغاية حتى سنة 1518م. فقد

أخذ دورها يزداد بسرعة منذ ذلك الحين وطبع منها أكبر عدد خلال (1521- 1525). وقد انتشر تأليف هذه الرسائل مرة أخرى في منتصف القرن السادس عشر أي في الوقت الذي كان ينشط فيه ماتيا فلاتشيتش إيليريك.

لقد قاد هذا الاهتمام الكبير بالأحداث التي أعقبت إعلان الحرب بين لوثر وروما إلى اهتمام متزايد بالكتاب أيضا. وحسب ما يورده أحد دعاة الإصلاح، السويسري أولرين سفينغلي فإن كل بيت فلاحي أصبح مدرسة يتم فيها قراءة التوراة خلال الحرب الفلاحية. ولا شك أن هذا التأكيد مبالغ فيه قليلا، إلا أن كون توراة لوثر طبعت في حوالي مليون نسخة خلال نصف قرن من حركة الإصلاح يدل فعلا على أنها كانت تقرأ لدى شرائح المجتمع.

كان هذا الجيش الكبير من القراء يستقبل باهتمام كبير كل نص جديد للوثر وبقية دعاة الإصلاح، ولذلك فقد أخذ رجال الطباعة ينفذون مشاريع طباعية ضخمة سنة 1520م، لم يحلموا بها في السابق. وهكذا فقد أصدر الطابع ملهيور لوتر M. Loter كتاب لوثر المعروف «النبلاء المسيحيين للأمة الألمانية» في أربعة آلاف نسخة، ولكن بعد أسبوع واحد فقط صدرت الطبعة الثانية نظرا للطلب الكبير على الكتاب. ولم تمض فترة طويلة حتى صدرت 15 طبعة أخرى. وقد تكرر هذا مع مؤلفات لوثر الأخرى التي قام بإصدارها في وقت واحد عدة طابعين، وهؤلاء كانوا على الأغلب غير مخولين لذلك ولكنهم أرادوا بهذا الكسب المادي. ومن ناحية أخرى فقد حرص الكثير من باعة الكتب المتجولين على أن يصلوا بهذه الكميات الكبيرة من الكتب إلى أقصى البلدان. وفي الواقع كان رجال الطباعة وباعة الكتب يكسبون من هذا بشكل لم يعرفوه من قبل. وهكذا فقد كتب رسول البابا سنة 1521م من فرومس إلى البابا ليون العاشر في روما أن مؤلفات لوثر باللغة الألمانية رائجة جدا «إلى حد أن الطابعين لا يريدون أن يبيعوا شيئا غيرها».

وقد قدمت حركة الإصلاح ثم الحركة المعادية للإصلاح، كما ذكرنا سابقا، دفعة قوية لتطور الطباعة وإنتاج الكتاب. وبالإضافة إلى هذا أثبتت حركة الإصلاح لغة الشعب كلغة للطقوس الدينية وكلغة للإبداع الأدبي. وهكذا برزت لغة الشعب في ذلك الوقت بالذات لدى الكثير من الشعوب،

التي كانت حتى ذلك الحين تكتب وتطبع مؤلفاتها العلمية والأدبية في اللاتينية، كلغة رئيسية للتواصل بالكتابة.

وتدل المعطيات الإحصائية حول التزايد الكبير في عدد الكتب المطبوعة بعد أن بدأ لوثر حربه ضد روما عن الأسية المتزايدة للتواصل بالكتابة. ففي السنوات الثمانية التي سبقت حركة الإصلاح (1510- 1517م) كان يطبع بشكل وسطي في ألمانيا 214 كتابا في السنة، بينما صدر خلال سنة 1518م (339) كتابا، وخلال سنة 1519م (461) كتابا وخلال 1520م قفز الرقم إلى (880) كتابا.

وقد شجعت حركة الإصلاح أيضا إنتاج الكتاب في لغات الشعوب الأخرى وليس في اللغة الألمانية فقط. وهكذا أسست بفضل حركة الإصلاح مطبعة بروتستانية في أوراخ، بالقرب من توبينبرغ في ألمانيا، حيث كانت تطبع الكتب لحاجات السلاف الجنوبيين. وفي الحقيقة كان القائد العام السابق في كرواتيا وسلافونيا إيفان (هانس) أونفناد قد أسس في هذه المدينة مطبعة كرواتية لطبع الكتب البروتستانتية الموجهة لنشر أفكار لوثر في كرواتيا والبوسنة وأطراف البلاد السلافية الجنوبية الأخرى. وقد جاء حينئذ آل أوراخ، يطلب من السلوفيني بريموج تروبار، عمال مهرة وقساوسة كاثوليك (سبتييان كونزل وأنطون دالماتين وغيرهم مما انضموا إليهم لاحقا) حيث طبعوا الكثير من الكتب ذات الطابع الديني بالحروف اللاتينية والغلاغولية والكيريلية. وقد طبع في هذه المطبعة منذ تأسيسها سنة 1561م وحتى سنة 1564م (25) كتابا بروتستانتيا في تيراج إجمالي قدره (19) ألف نسخة. ومن بين هذه الكتب التي طبعت هنا كانت ترجمة العهد الجديد في مجلدين، في ألف نسخة لكل مجلد. وكانت هذه الكتب، بالإضافة إلى قسم ضئيل من الكتب البروتستانتية التي كانت تطبع في المدن الأخرى (رغنبرغ، بادوفا)، تذهب عبر فيينا ولوبليانا إلى زغرب وربييكا وبقية المدن في كرواتيا. وتقول التقديرات إن معظم هذه الكتب قد وصلت إلى هدفها، بينما وقع قسم صغير منها في أيدي الكاثوليك الذين أحرقوها.

وهكذا فقد كانت لحركة الإصلاح أهمية كبيرة جدا في إبداع الأدب السلوفيني في لغة الشعب. وفي هذا الاتجاه قام بدور كبير بريموج تروبار (1558- 1586م)، الرائد الأساسي والكاتب والمترجم للإنتاج البروتستانتي

إلى اللغة السلوفينية. فقد ألف وترجم تروبار وحده ثلاثين كتابا باللغة السلوفينية، بينما كانت أهم مبادرة له ترجمة العهد الجديد إلى اللغة السلوفينية تلك التي صدرت سنة 1582م.

إلا أن البروتستانتية أدت من ناحية أخرى إلى فناء كميات كبيرة من الكتب. فخلال الحرب الفلاحية الدموية في الأراضي الألمانية سنة (1524-1525م) دمر عدد كبير من مكتبات الأديرة التي كانت تضم مخطوطات نادرة من العصر الوسيط. وقد دمرت أيضا مكتبات الإقطاعيين في القصور والمدن بحيث فنيت إلى الأبد الكنوز التي جمعت عبر القرون. ففي تيرنيفيا فقط دمرت حوالي سبعين مكتبة تابعة للأديرة، ولم يكن الوضع في بقية المناطق الألمانية التي شملتها الحروب الدينية بأفضل من هذا.

ولا يمكن هنا أن تلق مسؤولية تدمير المكتبات القديمة على لوثر نفسه أو على الزعماء الآخرين لحركة الإصلاح. وعلى العكس من هذا فقد طالب لوثر منذ بداية حركة الإصلاح بتأسيس المكتبات في المدن «التي يمكن أن تفعل ذلك». وبالفعل فقد أدى تشجيع زعماء حركة الإصلاح إلى تأسيس سلسلة من المكتبات في ألمانيا، كما في فرانكفورت ولوبك وهامبورغ وغيرها من المدن.

وهكذا فقد أمنت المكتبة الجامعية في لايبرغ مثلا كتبا قيمة (حوالي 1500 مخطوطة وحوالي 4000 كتاب مطبوع) من مكتبات أديرة بيغاو وشمنيس وبيرنا ولايبرغ، بينما أخذت المكتبة الجامعية في بازل سنة 1559م مكتبة دير الدومينيكان في المدينة حيث كانت توجد المكتبة القيمة للكاردينال إيفان ستويكوفيتش (Ioannes de Ragusa).

وقد حدث ما يشبه هذا، من تدمير المكتبات القديمة وإفناء الكتب، في البلدان الأوربية الأخرى التي شملتها الحروب الدينية. فقد دمرت في إنكلترا المكتبة الجامعية المعروفة في أوكسفورد، بينما حولت 800 مكتبة تابعة للأديرة إلى المكتبات المدنية. وخلال الحروب ضد الهوغنوت (كما كانوا يسمون الفرنسيين البروتستانت) في فرنسا دمر عدد كبير من مكتبات الأديرة كمكتبات أديرة كلوني، Cluny وفليري Fleury وغيرها. ومن هذه لم يبق إلا بعض الكتب فقط وهي محفوظة الآن في مكتبة الفاتيكان وبعض المكتبات الأخرى.

ت-تركيب الكتاب المطبوع

أ-من حيث المضمون

أخذت نسبة الكتب الدينية، بالمقارنة مع مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين اليونانيين والرومانيين والأعمال الأدبية والمؤلفات العلمية والفلسفية وغيرها، تقل ببطء منذ أن فقدت ورش النسخ في الأديرة والكنائس احتكارها لإنتاج الكتاب. ومع ظهور القراء الجدد في المدن، وخاصة بعد اختراع الطباعة، تزايد عدد الكتب غير الدينية بشكل كبير. فقد أصبحت مؤلفات الكتاب القدماء تقرأ باهتمام من قبل رجال الإحياء ومن الناس المتعلمين بشكل عام، بينما أصبحت الروايات والملاحم في اللغات الشعبية وكتب الرحلات عن البلدان البعيدة رائجة لدى جمهور كبير من القراء. وبالإضافة إلى هذا فقد كانت نسبة المؤلفات الفلسفية والطبية والفلكية والتاريخية وغيرها من المؤلفات العلمية تزداد باستمرار بين الكتب التي كانت تصدرها المطابع في ذلك الوقت.

وقد أصبح هذا الميل لانخفاض نسبة الكتب الدينية باديا بوضوح أكبر منذ النصف الأول للقرن السادس عشر. وحسب المعطيات التي يسوقها المؤلفان ل. فافر وأ. ج. مارتن في كتابهما الرائع «ظهور الكتاب» (باريس 1971م) فإن 50٪ من الكتب المطبوعة في ستراسبورغ خلال القرن الخامس عشر كانت ذات مضمون ديني، بينما كانت مؤلفات الكتاب القدماء تمثل 10٪ فقط. ولكن في العشرين سنة الأولى من القرن السادس عشر نجد في المدينة نفسها أن نسبة مؤلفات الكتاب القدماء ارتفعت إلى 33٪ بينما انخفضت نسبة الكتب الدينية إلى 27٪. وفي باريس أيضا لدينا حالة مشابهة. فمن 198 كتابا مطبوعا خلال سنة 1515م في هذه المدينة نجد أن 105 منها كانت ذات مضمون ديني بينما 57 كتابا فقط كانت لكتاب العصر القديم ولكتاب عصر الإحياء. وبعد حوالي ثلاثين سنة (1549م) نجد أن من 332 كتابا مطبوعا لدينا 56 كتابا فقط بمضمون ديني و 204 كتب للكتاب القدماء وللكتاب المعاصرين.

وهكذا بعد مائة سنة من اختراع غوتنبرغ كان تركيب الكتاب المطبوع يختلف بشكل جوهري عما كان في السابق. فبعض أنواع الكتب لم تكن موجودة في العصر الوسيط أو لم يقرأها إلا عدد محدود جدا من القراء

بينما أصبحت الآن تحتل مكانة مهمة في خطط الطابعين-الناشرين. وقد أصبح الناس المتعلمون منذ القرن السادس عشر، بالإضافة إلى الكثير من القراء الذين يقرءون الكتاب بدافع من المتعة أو بدافع من الفضول، يطالبون الطابعين والناشرين بأن يزيدوا من نشر ما يصدرونه من الأدب والطب والقانون والميكانيك والفلك والتاريخ والتقاويم المختلفة، ثم الجرائد والمجلات والكتب الأخرى الضرورية والمفيدة.

وضمن الكميات الكبيرة التي كانت تصدرها المطابع، والتي كان يتحسن تجهيزها ويزداد عددها باستمرار، كانت تأتي في المقدمة مؤلفات العلوم الطبيعية. وكما في القرون الماضية فقد بقي المصدر الرئيسي للمعارف العلمية خلال القرن الخامس عشر أيضا كتاب بلين «التاريخ الطبيعي»، الذي صدرت منه 18 طبعة خلال ذلك القرن. وقد أدى اكتشاف مخطوطات العلوم الطبيعية للمؤلفين اليونانيين والرومانيين (مؤلفات غالينوس حول الطب، ومؤلفات أرخميدس وإقليدس حول الهندسة، ومؤلف أرسطو حول الفيزياء ومؤلف تيوفراست حول علم النبات) وترجمة المؤلفات الكثيرة من اللغة العربية إلى توسيع اهتمام أوربا الحديثة لدراسة عالم النبات والحيوان والإنسان، ولبحث قوانين الفيزياء وغيرها من المجالات العلمية. وقد أثمر هذا الاهتمام عن ازدياد كبير للمؤلفات العلمية الأصيلة التي ألفت خلال القرن السادس عشر.

ونتيجة لهذا لم يبق أي مجال علمي كما تركته الأدمغة المتنورة في فجر العصر الحديث. فقد أدت سلسلة الاختراعات الثورية منذ القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر إلى تغيير تصور العالم، كما أدى الاهتمام الكبير لجمهور القراء بالاختراعات الجديدة والنظريات الجديدة إلى تغيير تركيب إنتاج الكتاب في ذلك الوقت.

ويكفي هنا أن نذكر على سبيل المثال ما حدث مع الطب. ففي ذلك الوقت صدر عدد كبير من المؤلفات الطبية في كل اللغات. ومن بين هذه كانت المؤلفات الخاصة بالتشريح، والمزينة برسوم فنية، تؤلف نسبة كبيرة. ولم يكن الأطباء فقط من يهتم بهذا العلم بل كان هناك الفنانون أيضا كـ ميكل إنجلو وغيره، الذين يعتبرون معرفة التشريح من الشروط التي لا بد منها لرسم جسم الإنسان. وكان للشعراء والرومانتيكيين وكتاب المسرحية

وكتاب السير وكتاب الرحلات، الذين يصفون المناطق البعيدة والمثيرة والمكتشفة حديثا، وغيرهم من الكتاب الذين أثاروا بمؤلفاتهم اهتماما كبيرا الدور الأساسي في تخفيض نسبة الكتب الدينية وتزايد نسبة الكتب الأخرى.

وفي الواقع فقد كان التغير في تركيب الكتب المطبوعة يعكس بصدق التغيير الحاصل خلال عصر النهضة والقرون اللاحقة في الحياة الروحية لأوربا في ذلك الوقت. وكان الطابعون والناشرون قد تفهموا جيدا هذا التغير وتوجهوا بحماس لطبع الكتب التي كان يطلبها السوق وهم على ثقة بأنهم لن يخطأوا فيما لو طبعوا مؤلفات العلماء والأدباء المعاصرين.

2- لغة الكتاب

كان الطابعون والناشرون يدركون جيدا بأن الكتاب لم يعد لجلبه فقط الناس المتعلمون، الذي كانوا يقرءون باللغة اليونانية واللاتينية، بل كان هناك المزيد من القراء الذين يرغبون في قراءة المؤلفات العلمية والأدبية وغيرها بلغتهم القومية. فخلال القرن الخامس عشر كانت 75٪ من الكتب مطبوعة باللاتينية، ولكن منذ ذلك الحين أخذت تطبع بشكل متزايد الأعمال الأدبية والمؤلفات العلمية والاختصاصية في اللغات الشعبية. وقد ازدادت هذه الظاهرة باستمرار خلال القرن السادس عشر. وهكذا فإن مؤلفات الكتاب القدماء أصبحت تطبع بازدياد بعد ترجمتها إلى اللغات الشعبية نظرا للازدياد المتواصل في عدد أولئك الذين كانوا يرغبون بقراءة هذه المؤلفات دون أن يعرفوا اللغة الأصل. فقد صدرت مثلا من كتاب بلين الموسوعي «التاريخ الطبيعي» ثلاثة طبعات بالإيطالية خلال القرن الخامس عشر فقط.

وقد أصبحت الكتب في اللاتينية تطبع وتقرأ بنسبة أقل بكثير من الكتب المطبوعة خلال القرن السادس عشر، وخاصة في القرون اللاحقة. وتدل المعطيات هنا بشكل واضح على تعاظم اللغات الشعبية وتراجع دور اللغة اللاتينية في الثقافة الروحية لأوربا. ويبدو هذا الوضع مثلا في باريس، في هذا المركز المهم لإنتاج الكتاب خلال القرن السادس عشر: في سنة (1501م) طبع 88 كتابا في هذه المدينة منها 8 فقط باللغة الفرنسية. أما في سنة (1549م) فقد أصبحت النسبة واضحة لصالح لغة الشعب: 70 كتابا

بالفرنسية من أصل 332 كتابا مطبوعا في تلك السنة. ومنذ سنة (1575م) أصبحت معظم الكتب المطبوعة تصدر بالفرنسية: 245 كتابا بالفرنسية من أصل 445 كتابا مطبوعا خلال تلك السنة.

وكما ذكرنا سابقا فإن حركة الإصلاح قد شجعت كثيرا على طبع الكتب باللغات الشعبية. وقد اتضح هذا في ألمانيا بشكل خاص، ثم في البلدان الأخرى التي كانت تحت تأثير هذه الحركة. ولكن حتى في بقية البلدان، التي لم تكن تحت تأثير هذه الحركة، فإن اللغات الشعبية أصبحت تعتمد بشكل متزايد على الكتب المطبوعة. وهكذا يقدر أن نصف الكتب المطبوعة في أوربا حتى نهاية القرن السادس عشر قد صدرت باللغات الشعبية. وقد بقيت اللاتينية لغة الطقوس الدينية في الكنائس الكاثوليكية، كما أن الكثير من الجامعات بقيت تعطيها الأفضلية بالمقارنة مع اللغة الشعبية. وهكذا نجد أن جامعة يانه في ألمانيا تصدر حوالي سنة (1700م) 58٪ من الكتب باللاتينية، بل أن جامعة توبينغن تصدر 80٪ من كتبها باللاتينية. إلا أن النصوص الأدبية والعلمية وحتى الدينية، بما في ذلك التوراة، أخذت تصدر بشكل متزايد باللغات الشعبية. فقد صدرت حتى نهاية القرن الخامس عشر 30 طبعة من التوراة باللغات الشعبية، وخاصة بالألمانية، بينما نجد خلال القرن السادس عشر أن عددا كبيرا من شعوب أوربا أصبحت تقرأ التوراة في لغاتها القومية.

ولا يوجد شك هنا في أن اختراع الطباعة قد أسرع من تغلغل اللغات الشعبية في عالم الكلمة المكتوبة. ومن ناحية أخرى فقد أثر الكتاب المطبوع بقوة في تشكل اللغات القومية الأدبية. وحول هذا لدينا مثال معبر من ألمانيا أيضا بعد أن بدأ لوثر حركته هناك. فقد كان يكتب بوعي باللغة «التي يجب أن تكون مفهومة لسكان ألمانيا العليا كما هي مفهومة لسكان ألمانيا السفلي»، وحين غطت كتاباته كل الأراضي الألمانية فرضت اللغة التي كان يكتب بها نفسها على الجميع كلغة أدبية موحدة. وقد حدث شيء مماثل لهذا في عدة بلدان أوربية أخرى خلال القرن السادس عشر، وخاصة خلال القرن السابع، حين تبلور بشكل نهائي استعمال اللغات الأدبية الرئيسية في أوربا.

وكان للعدد المتزايد من الكتب باللغات الشعبية نتائج بعيدة المدى بالنسبة

إلى التواصل بالكتابة بين الشعوب الأوربية المختلفة وإنتاج الكتاب أيضا. فقد برزت حواجز لغوية أخذت تحد بشكل واضح من انتشار المعلومات العلمية وغيرها.

وهكذا فقد أصبحت الكتب العلمية، التي كانت تصدر سابقا باللغة العالمية-اللاتينية، تترجم الآن لكي يستطيع أن يقرأها كل من يهتم بها. ونتيجة لهذا فقد تعرضت الوحدة الروحية القروسطية إلى هزة عنيفة عانت منها بشكل خاص الشعوب الصغيرة. وأصبح من الصعب على هذه الشعوب أن تشارك في نشر المعلومات العلمية، ولذلك فقد تخلت أحيانا عن طبع المؤلفات العلمية في لغاتها الخاصة ولجأت إلى الاستمرار في طبعها باللاتينية أو بإحدى اللغات الرئيسية لذلك الوقت فيما لو أرادت أن يصل رأيها العلمي إلى دائرة أوسع.

وقد انعكس أيضا تكريس اللغات الشعبية على حساب اللاتينية على تجارة الكتاب. فقد كان الكتاب المطبوع باللاتينية يشق طريقه بسرعة إلى القارئ بغض النظر عن المكان الذي يعمل ويعيش فيه. ومن المعروف أن رجال الإحياء في ألمانيا كانوا كثيرا ما يشترون الكتب من إيطاليا، وأن رجال الإحياء الإيطاليين كانوا يشترون الكتب من سويسرا وألمانيا وغيرها من البلدان. وكان ناشر الكتب اللاتينية يقيم حساباته على وجود سوق أوسع، ولذلك كان يمكن أن يطبع حتى الكتب التي يعرف مسبقا أنها لن تطلب في البلد الذي يعمل فيه. إلا أن الأمر تغير حين أصبح الناشر يصدر كتبه بلغة الشعب فقد أصبح يقيم حساباته على بيع الكتاب في بلده فقط، وخاصة إذا كان الأمر متعلقا بلغة غير منتشرة كثيرا. ولكن الناشرين مع ذلك كانوا يكسبون من نشر الكتب باللغات الشعبية نظرا للطلب المتزايد عليها في السوق. وقد كان هذا واضحا بشكل خاص بالبلدان الكبيرة والمتقدمة حيث كان السوق يسمح بطلباته بإصدار الكتب المختلفة بأسعار ثابتة، أي أن هذا لم يكن يشمل الناشرين الذين كانوا ينشرون الكتب بلغات الشعوب الصغيرة.

وبسبب هذا كان المؤلفون، الذين ينتمون إلى الشعوب الصغيرة، يلجأون غالبا إلى طبع مؤلفاتهم العلمية باللاتينية أو في إحدى اللغات الأكثر انتشارا.

ث- كتب الشعب

كان الناس غير المتعلمين وشبه الأميين من سكان المدن والريف لا يشاركون بشكل مباشر في إبداع الأدب والعلم إلا أنهم بطلباتهم كانوا يشجعون على الإنتاج الكبير والمجدي للكتب الرخيصة، وهو الشيء الذي كان حينئذ وبقي إلى اليوم على هامش اهتمام النخبة المتعلمة في المجتمع. ولكن هذا الإنتاج الكبير من الكتب، الذي كان يتم بشكل مواز مع إنتاج الكتب الأخرى للكنيسة والعلماء وبشكل عام للناس المتعلمين، بقي مجهولا إلى حد ما بالنسبة إلى الذين يتعاطون تاريخ الكتاب لأنه كان يعتبر عديم القيمة لدراسة مرحلة ما وغير مثير للاهتمام. وقد انتهت الأبحاث التي أجراها بعض العلماء في الفترة الأخيرة إلى أنه لم يصلنا إلا القليل من هذا الإنتاج الكبير للكتاب إذ أن الناس سواء في ذلك الوقت، حين كانت تطبع وتقرأ هذه الكتب، أو في الأوقات اللاحقة، لم يهتموا بجمع وحفظ هذه الكتب كما كانوا يفعلون مع الكتب الجميلة والثمينة في المكتبات العامة والخاصة.

في الحقيقة لم يكن هناك ما يدفع جامعي الكتب لكي يجمعوا هذه الكتب التي لا يجذب منظرها وتكثر الأخطاء المطبعية في نصوصها، والتي غالبا تغلف بورق سيئ أزرق اللون كان يستعمل لصنع أكياس صغيرة للسكر أو لتغليف الخبز. ولهذا السبب كان يطلق في فرنسا على المكتبات التي تبيع أمثال هذه الكتب «المكتبات الزرقاء». ولم يتغير هذا الوضع إلا في نهاية القرن الثامن عشر حين أصبح لهذه الكتب أهمية كبرى وانتشر تجليد الكتب لكي تحفظ للمستقبل.

كان عدد هذه الكتب، التي توجه للشعب، كبيرا جدا ينسجم مع العدد الكبير من القراء الذين كانوا يهتمون بها. وكانت معظم هذه الكتب تتألف من روايات وقصص، التي كانت بمضمونها ولغتها مناسبة لجمهور كبير من القراء، وتقاويم تضم معلومات عملية متنوعة وحكايات خرافية وبروج فلكية وما شابه ذلك. وبين هذه نجد أيضا كتبا عن العمل في الحديقة وكتبا تتضمن طريقة تحضير بعض الوجبات للمطبخ، وأخرى عن الطب مع وصفات عن كيفية علاج الأمراض أو التخفيف من الآلام بواسطة هذا العشب أو ذلك. ولدينا كتاب من هذا النوع حاز على شهرة خاصة ألفه في القرن الأول الميلادي الطبيب الشعبي غال كريناس، وهو يحتوي على خليط

عجيب من الوصفات الطبية والمعتقدات الشعبية المتعلقة بحفظ الصحة والتنجيم. وقد بقي هذا الكتاب يقرأ خلال العصر الوسيط كله بينما صدرت منه أكثر من 300 طبعة منذ سنة 1474م، حين طبع لأول مرة، وحتى سنة 1846م. ومن هذه الكتب التي عرفت الرواج بشكل خاص الروايات المتعلقة بكارل الكبير (شارلمان) وغيرها من الروايات التاريخية المتعلقة بالملوك والفرسان الشجعان الذين يقعون في حب الأميرات وما شابه ذلك. وقد كان مضمون هذه الروايات يؤخذ عادة من التراث الأدبي للعصر الوسيط، بينما كانت بعض هذه الكتب ببساطة مجرد صياغة شعبية لعمل أحد الكتاب المعروفين كـ أريوسه وبترارك. وبالإضافة إلى هذه فقد راجت أيضا الروايات المتعلقة بالمسيحيين الشجعان الذين لا يعرفون الاستسلام في المعارك ضد الأتراك، وتلك المتعلقة بالحياة الغامضة وغير المستقرة للغجر. وكانت تصدر أحيانا بعض الكتب التي تدعي العلم والتي تحاول شرح الظواهر الطبيعية بشكل ساذج.

وفي هذه الكتب، التي كانت تقرأ عادة وسط العائلة في المساء على ضوء الشمعة بعد يوم شاق من العمل في الحقل أو الورشة، نجد عالما كاملا من القصص العجيبة، والمعتقدات في القوى الخارقة وشخصيات الأدب الشعبي أو الفني وتوجيهات مفيدة للحياة اليومية. وكثيرا ما كانت القصص تسلك منهجا تعليميا. ففي هذه القصص، التي تدان فيها بعنف المرأة الفاجرة ويعبر فيها المجرم عن ندمه، ليس من الصعب أن نستشف المغزى الأخلاقي لهذه الكتب. ولم تكن هنا الرغبة في التأثير بشكل تربوي على القراء والسامعين (ويعتقد هنا أن عدد هؤلاء كان أكبر من القراء) مجرد مصادفة. فقد كانت هذه الكتب رائجة بشكل خاص في النصف الثاني من القرن السادس عشر، أي في عهد مجابهة حركة الإصلاح، في الوقت الذي انتقلت فيه الكنيسة الكاثوليكية إلى الهجوم الأيديولوجي لكي تعطي الشعب انطباعا عن نفسها ينسجم مع قيمها الأخلاقية المثالية.

كان معظم مؤلفي هذه الكتب من المجهولين. وبالطبع فإن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا من الجماهير بل من الشريحة المثقفة في المجتمع التي كانت تكسب من تأليف هذه الكتب، كما كان يكسب منها أيضا الطابعون والناشرون. ولكن هذا لا يعني أن كل هؤلاء المؤلفين كانوا يقومون بعملهم لأخل الكسب

المادي فقط. فقد كان البعض يؤلف أمثال هذه الكتب بنوايا طيبة وذلك لتعليم الناس ولمساعدته في حل المشاكل لتخفيف معاناته في الحياة. وهكذا نجد أن المؤلف المجهول للكتاب الرائج «البستاني الفرنسي» سنة (1723م) يوضح هدفه بشكل واضح وصريح: «لقد أردت أن أكتب هذا فقط لأولئك الذين لا يعرفون إلا القليل حول هذا أو لا يعرفون أي شيء، وخاصة لأعلم الفقراء الكثيرين كيف يكسبون قوت يومهم لو اشتغلوا شيئا في الحديقة البيتية ولذلك فقد حاولت أن أجعل الكتاب مفهوما باستعمال أبسط التعابير في لغتنا».

وتتضح هذه الرغبة بالاقتراب من الجمهور الكبير غير المتعلم بواسطة أسلوب التأليف في كتاب آخر يعود إلى سنة 1794م: «لقد ألف كتابنا هذا على الأغلب لأجل الناس البسطاء الذين يقرءون قليلا». وكان من الطبيعي أن يأخذ الناشرون بعين الاعتبار أن هؤلاء الناس البسطاء كانوا يتلقون أجورا بسيطة، ولذلك فقد كانوا يجعلون أثمان هذه الكتب تتناسب مع إمكانياتهم. ولكن كان لا بد أن تطبع هذه الكتب على ورق رخيص وأن تجلد بشكل بسيط وأن تصدر بتيراج كبير لكي يتمكن الناشرون من استرداد ما استثمروه مع بعض الربح. وتشير المعطيات التي لدينا إلى أن أثمان هذه الكتب كان منخفضا بالفعل إلى حد أنه كان باستطاعة حتى أولئك الذين يتلقون أجورا بسيطة شراؤها. ويبدو أن متوسط التيراج لهذه الكتب كان يتراوح بين 2000-5000 نسخة. ولكن هناك معطيات تدل على أن بعض الكتب طبعت في تيراج يتجاوز 18 ألف نسخة، بينما طبع تقويم للرعاة (Le Calendrier compost des bregers) عدة مرات في تيراج إجمالي قدره 30 ألف نسخة.

لقد كانت كل هذه الكتب من الحجم الصغير (غالبا بحجم 16 أو الثماني الصغير) وبعدد قليل من الصفحات. فقد كانت تلك الكتب التي كانت صفحاتها تتجاوز المائة نادرة، بينما كانت أغلبها تحتوي على أقل من 48 صفحة. وكان يوزع هذه الكتب بانتظام باعة الكتب المتجولون، الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر ويعرضون بضاعتهم بأنفسهم.

ومن هذه الكتب كانت التقاويم والحوليات تؤلف مجموعة خاصة توجه إلى غالبية الجماهير. وفي الواقع أن الفرق بين الاثنين ليس كبيرا: فمع أن

المضمون متشابه إلا أن لائحة الأيام والشهور كانت العنصر الأساسي في التقاويم بينما كانت تأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية في الحوليات. ففي التقاويم نجد بالإضافة إلى لائحة الأيام والشهور، توجيهات مفيدة عما يجب أن تفعله في أيام معينة خلال السنة والشهر والأسبوع، وعن وضع الطقس، ومتى يفضل القيام ببعض الأعمال ومتى لا يستحب ذلك، وما شابه ذلك من توجيهات ذات طبيعة عملية ترتبط بالتنجيم والمعتقدات الشعبية والأمثال والأغاني والأقوال الشائعة، بالإضافة إلى تنبؤات مختلفة، ووصفات للطبخ وغير ذلك. وفي هذه التقاويم نجد أحيانا الأخبار المتعلقة بحوادث السنة الماضية التي كانت ربما للكثير من القراء، وخاصة لأولئك الذين كانوا لا يقرءون إلا التقاويم، المصدر الوحيد للمعلومات حول كل ما يحدث في العالم.

أما الحوليات فقد كانت تتضمن نصوصا أدبية وعلمية ونصوصا أخرى مفيدة موجهة إلى جمهور عريض من القراء، بينما كان هدفها الأساسي التسلية والتعليم. لقد كانت هذه في الأوقات اللاحقة، وبقيت حتى الآن، عبارة عن مجموعة من النصوص المتنوعة وبهذا كانت تقوم بدور المجلات حيث تبرز فيها التيارات السياسية المختلفة والميول الفنية لمختلف الأدباء والمشتغلين بالثقافة الذين كانوا يصدرون هذه الحوليات. وقد أخذت هذه الحوليات في عصر التنوير بشكل خاص الدور التربوي لترويج الإنجازات العلمية والبرامج الفنية والسياسية.

وقد تزايدت كثيرا أهمية هذه المطبوعات بالنسبة إلى نشر الكتابة والمعلومات عن الإنجازات العلمية والتكنولوجية في عصر تطور الثورة الصناعية وظهور البرامج الاجتماعية والسياسية الجديدة. ويدل على هذا المعطيات التي تتحدث عن الرواج الكبير للتقاويم والحوليات في كل البلدان الأوربية وهكذا يكشف أحد الأعمال الببليوغرافية الفرنسية، الذي يرصد التقاويم والحوليات والمطبوعات المشابهة المطبوعة في باريس فقط خلال (1655- 1895م)، عن وجود 3633 إصدارا من هذا النوع!

وكانت التقاويم والحوليات تصدر خلال وقت محدد، على الأغلب مرة في السنة. وقد ظهرت هذه التقاويم والحوليات في المناطق اليوغسلافية أيضا، في نهاية القرن السادس عشر وكانت لا تتميز كثيرا من ناحية

البائع المتجول للكتب-حفر على النحاس للفنان س. غوليان من سنة 1646م.

المظهر والمضمون عن مثيلاتها في البلدان الأخرى، وفيها ما يجب أن تفعله لرعاية الصحة، والوقت المناسب لعمل شيء ما أو الإقلاع عنه، وما هي الأيام الجيدة، ونوعية الطقس خلال السنة وغير ذلك. ومن المثير أنه في كرواتيا بقيت تصدر حتى منتصف القرن الثامن عشر تقاويم باللاتينية كـ«تقويم زغرب» و«تقويم فراجدين»، أي باللغة التي لا يفهمها الشعب نظرا لأن هذه التقاويم بالذات لم تكن موجهة للشعب بل للشريحة المتعلمة. وقد كان واضعو هذه التقاويم يكتبون فيها، بالإضافة إلى أكاذيب التنجيم والتوجيهات المختلفة، مرآة لحوادث السنة الماضية ليغطوا بهذا الفراغ الناتج عن نقص المستجدات في كرواتيا خلال ذلك الوقت. وإلى جانب هذا نجد أيضا في هذه التقاويم مقالات معرفية من التاريخ وعلم الآثار ونصوصا أدبية.

ج-الأدوات الجديدة التواصل بالكتابة: الجرائد والمجلات

أدى التعطش إلى المعلومات الجديدة والسريعة للأحداث العنيفة التي أثارت حينئذ اهتماما كبيرا لدى الجمهور الأوربي، كالحروب والثورات الاجتماعية، واكتشاف البلدان البعيدة ومعرفة الإنسان الأوربي بالحضارات المجهولة، إلى ظهور وسيلة جديدة لتسجيل ونقل المعلومات، وهى«الإصدارات الدورية».

وفي الواقع كانت مشكلة الإعلام عن الأحداث الجارية قد برزت في أوربا في وقت سابق، في العصر الوسيط، إلا أنه في ذلك الوقت لم يكن قد وجد بعد الشرط المهم لحل هذه المشكلة-إمكانية نسخ المعلومات المكتوبة بشكل ميكانيكي ونقلها بسرعة إلى القارئ المهتم بها. وبالإضافة إلى هذا فقد كان بإمكان الناس في العصر الوسيط أن ينتظروا لوقت طويل الأخبار من المناطق الأخرى للبلاد وبلدان العالم لأنهم كانوا يملكون الوقت الكافي.

ولكن مع ذلك نواجه منذ القرن الثالث عشر البدايات الأولى لهذا النوع من الإصدارات التي تطورت بشكل كبير مع اختراع الطباعة حتى أصبحت من أهم سمات العصر الحديث. وبالطبع فقد كان يوجد في العصر الوسيط «جرائد» مخطوطة يمكن أن يقرأ المرء فيها أخبارا عن الحياة السياسية والاقتصادية أو حول الحروب التي كانت تندلع في ذلك الوقت. وقد ازداد

عدد هذه الجرائد منذ مطلع القرن السادس عشر واستمر وجودها إلى القرن الثامن عشر، أي حتى بعد أن أخذت تصدر الجرائد المطبوعة.

وكان قد سبق هذه الإصدارات الأوربية تلك الكتيبات الكثيرة التي كانت تصدر بمناسبة حدث هام. ففي ألمانيا، على سبيل المثال، كانت أمثال هذه الكتيبات تصدر منذ بداية القرن السادس عشر. وفي هذه الكتيبات كانت تستعرض الأحداث المختلفة السياسية والعسكرية وظواهر الطبيعة المختلفة التي كانت تلفت انتباه الجمهور، كالزلازل والمذنبات وكسوف الشمس والقمر وغير ذلك. وقد كانت هذه الإصدارات تصدر حينئذ في كافة أرجاء أوربا. ففي إنكلترا، على سبيل المثال، صدر 450 كتيبا من هذا النوع خلال (1590-1610م) فقط.

إلا أن هذه الإصدارات كانت تنقصها السمتان الأساسيتان اللتان كانتا تميزان الإصدارات الدورية: الوقت المحدد للصدور وتنوع المضمون. ولكن لم يطل الوقت كثيرا حتى أخذت تصدر في وقت محدد فقد أخذ صموئيل ديلباوم من أوغسبرغ بإصدار مجلة شهرية منذ سنة 1597م، حيث نشرت أخبارا من هولندا وفرنسا وإنكلترا وغيرها من البلدان. وفي تلك السنة أيضا شرع ليونارد ستراوب بنشر مجلة شهرية أخرى في بلدة رورشاخ السويسرية. إلا أن هاتين المحاولتين لم تدوما طويلا. ولكن بعد فترة قصيرة شهدت سنة 1609م صدور جريدتين يوميتين. وكانت الجريدة الأولى (Avisa-Relation oder Zeitung) يصدرها ويكتب ما فيها الأمير هاينريخ يوليوس H.Julius من براغ، بينما كانت تطبع في فولفن بيتل بألمانيا. أما الجريدة الثانية Relation، فقد أصدرها في ستراسبورغ الطابع يوهان كارلوس J. Karolus.

ويبدو أن الطلب على هذه الجرائد كان كبيرا في ذلك الوقت مما أدى إلى دفع الطابعين والناشرين للتفكير في مشاريع كهذه. وهكذا فقد أخذت تصدر منذ بداية القرن السابع عشر الكثير من الجرائد في البلدان الأوربية المختلفة بشكل أسبوعي أو شهري. ففي كلن صدرت سنة 1618م جريدة Gedenckwurdige Zeitung، وفي هولندا صدرت سنة 1618م (Courante uyt Italien, Duytslant)، بينما صدرت سنة 1619م Tijdinghen nyt verscheyde Quartieren التي كان لها شبكة من المراسلين في بلدان كثيرة.

أما فيما يتعلق بالجرائد اليومية فقد كان أول من أصدرها رجل الطباعة والكتبي تيموتيوس ريتش، الذي أصدر في لايبزغ سنة 1660م جريدة Neue einlaufende Nachricht von Kriegsund Welthandeln إلا أن هذه الجريدة اليومية الأولى في العالم لم تدم طويلا شأنها في ذلك شأن الكثير من الجرائد التي بدأت تصدر في ذلك القرن. ومع هذا فإن محاولة ريتش لم تبق دون صدى. ففي بداية القرن الثامن عشر أصبحت تصدر في أوربا عدة جرائد يومية. وفي هذا الإطار كانت إنكلترا هي السباقة. ففي سنة 1702م صدرت في لندن جريدة The Daily Courant أول جريدة يومية في إنكلترا، التي لحقتها عدة جرائد منافسة. فمنذ سنة 1706م أخذت تصدر جريدتا Night Post و Evening Post منذ سنة 1711م الخ. ونظرا لصرامة الرقابة في فرنسا فقد تأخر صدور أول جريدة يومية هناك حتى سنة 1777م، حين صدرت Journal de Paris.

وفي نفس الوقت تقريبا بدأت المجلات أيضا مسيرتها الظافرة. ففي سنة 1633م أصدر ت. رينودوت في باريس مجلة Bureau d‘Adresses ولكن الأهم منها كانت مجلة Le Journal de Scavans التي صدر أول عدد لها في مطلع سنة 1665م كمجلة أسبوعية ثم أصبحت تصدر كل أسبوعين. وقد صدرت هذه المجلة حينئذ بتشجيع من ج. ب. كولبرت، وزير لويس الرابع عشر، بينما كان يحررها المثقف ديني دي سالو عضو البرلمان الفرنسي. وكان هدف الناشر والمحرر من تأسيس هذه المجلة أن ينشرا فيها المعلومات المتعلقة بالاكتشافات العلمية، والعروض النقدية حول الإصدارات العلمية، لكي يشجعا بهذا الشكل العلم في فرنسا. وقد دعي حينئذ للمشاركة في هذه المجلة أشهر الخبراء. وبفضل هذا ومساعدة وتأييد السلطات وسياسة التحرير الحكيمة، ونظرا لأنها كانت أول مجلة من نوعها في العالم، فقد أصبحت Le Journal des Scavans تتمتع بسمعة كبيرة جدا في الأوساط العلمية في كل أوربا. وفي الواقع لقد كان الطلب على هذه المجلة كبيرا جدا إلى حد أنها كانت تطبع بعد صدورها في إيطاليا بالإيطالية وفي ألمانيا بالألمانية.

إلا أن هذه المجلة سرعان ما تعرضت إلى منافسة في البلدان الأخرى وحتى في فرنسا ذاتها فقد أخذت (الجمعية الملكية) في إنكلترا تصدر منذ سنة 1668م المجلة المعروفة Philosophical Transaction وفي تلك السنة بدأت

تصدر في روما-Gior nale de Letterati وفي لايبرغ شرعت تصدر منذ سنة 1682م باللغة اللاتينية مجلة Acta eruditorum.

وخلال القرن الثامن عشر سجلت المجلات العلمية تطورا كبيرا. وقد كان من الأهمية بمكان هنا ظهور سلسلة من المجلات العلمية المتخصصة في الفروع المختلفة كالقانون والطب والعلوم الطبيعية وغيرها. ويدل ظهور هذه المجلات في الدرجة الأولى على التطور الكبير لهذه العلوم في ذلك الوقت، كما يدل من ناحية أخرى على أهمية هذه المجلات في نشر المعلومات العلمية في الوقت الذي انطلقت فيه الثورة الصناعية. وحول هذا لدينا في النموذج الألماني ما يصور بشكل مدهش التطور الضخم للإصدارات العلمية خلال القرن الثامن عشر. فحتى سنة 1700م كانت تصدر باللغة الألمانية 58 مجلة علمية أكثرها في التاريخ والجغرافيا والفروع العلمية الأخرى، بينما وصل عدد المجلات في مجال العلوم في منتصف القرن الثامن عشر إلى 260 مجلة. ومنذ ذلك الحين يلاحظ ازدياد بطيء في عدد المجلات في مجال العلوم الطبيعية. وخلال السبعينات ازداد بكثرة عدد المجلات في ألمانيا ليصل إلى 718 مجلة، ثم إلى 1225 مجلة بعد عقد آخر فقط. أما خلال القرن الثامن عشر بكامله فقد كانت تصدر 3494 مجلة علمية باللغة الألمانية.

وإلى جانب المجلات العلمية أخذت تصدر أيضا الكثير من المجلات الأدبية ومجلات التسلية. ففي سنة 1672م أصدر الفرنسيون مجلتهم المعروفة-Le Mer cure galant، التي كانت تحتوي النصوص الأدبية بالإضافة إلى أخبار الحياة المخملية للمجتمع الراقي. وقد غيرت هذه المجلة سنة 1674م اسمها إلى Mercure de france. أما في إنكلترا فقد صدرت سنة 1691م مجلة The Athenian Mercury ثم صدرت سنة 1692م مجلة Gentleman's Journal وقد صدرت مجلات مشابهة لهذه في البلدان الأخرى كالنرويج وألمانيا وإيطاليا وروسيا وغيرها.

ونظرا للظروف السياسية الصعبة، والنسبة الكبيرة من الأمية أيضا، فقد صدرت المجلات والإصدارات الدورية الأخرى في وقت متأخر في البلدان اليوغسلافية. ففي سنة 1678م أصدر زاخاريا أورفليني «المجلة السلافية الصربية» Slaveno Serbski Magazin في فينيسيا. إلا أن هذه المحاولة

النبيلة لأورفيني اصطدمت منذ البداية بمصاعب مادية كبيرة بحيث أنه لم يصدر منها إلا العدد الأول فقط.

أما في كرواتيا وسلوفينيا فقد تأخر ظهور المجلات إلى بداية القرن التاسع عشر. إلا أن هذه لم تكن الإصدارات الأولى التي تحمل في طياتها الأخبار عن أحداث العصر. فقد ذكرنا أنه كان يصدر في زغرب مرة كل سنة (تقويم زغرب) خلال القرن السابع عشر، حيث كانت ترد فيه أهم أحداث العام الماضي إلى جانب المعطيات المعتادة التي كانت تنشرها تقاويم ذلك الوقت. ولم تكن هذه الأخبار الوحيدة التي يحصل عليها الناس المتعلمون في كرواتيا خلال ذلك الوقت، إذ أن هؤلاء كانوا يجدون المجلات الأجنبية بسهولة، ولكنها كانت بالنسبة للجمهور العريض المعلومات الوحيدة التي تصلهم من البلدان البعيدة للعالم.

وخلال القرن الثامن عشر ازداد كثيرا عدد الجرائد والمجلات في أوربا. ففي فرنسا مثلا كانت تصدر 350 دورية خلال سنة (1631- 1789م) فقط!

وهكذا فقد مضى إلى الأبد الزمن الذي كانت فيه الأخبار الجديدة تصل متأخرة من المدن والبلدان الأخرى بعد عدة شهور أو بعد عدة سنوات إلى عدد محدود من الناس. فالأخبار الشفوية كانت غير مؤكدة وغير كاملة بينما احتلت مكانها الآن المعلومات السريعة والمؤكدة التي كانت الصحف والمجلات تأخذها وتتأكد منها وتبوبها وتعلق عليها بأشكالها المختلفة. لقد كان الأمر هنا يتعلق بانعطاف جديد وثوري في التاريخ الطويل للاتصالات الذي كان الأهم من نوعه حتى ذلك الحين في التقريب بين الشعوب والثقافات.

ومع هذه الجرائد والمجلات والتقاويم والإصدارات الدورية الأخرى المشابهة برز نوع جديد من القراء. فإلى جانب القارئ التقليدي، الذي كان يبحث عن معطيات لعمله العلمي أو عن نصوص فلسفية وأدبية يوسع لها معرفته ويتمتع بالأعمال الأدبية، فقد ظهر القارئ المستهلك للمعلومات، وبالتحديد القارئ الذي يهتم بالدرجة الأولى بالأخبار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أو بأخبار «البزنر» في البلدان التي يقيم معها علاقات عمل، والقارئ الذي يهتم بالأخبار المخملية أو بشكل عام بالأخبار العابرة التي كانت حتى ذلك الحين مخصصة للشرائح العليا في المجتمع،

ثم القارئ الذي يود أن يعرف ما يحدث في الوسط الذي يعيش فيه من حروب ورحلات وحوادث مثيرة.. الخ. وقد كان أخيرا لظهور المجلات العلمية، التي ستلعب دورا مهما في تطور الفكر العلمي مغزى خاص. فمع ظهور هذه المجلات بالذات اكتملت الشروط اللازمة لخلق تواصل دولي بين العلماء الذين سيحللون بسرعة القضايا العلمية ثم التكنولوجية التي ستغير العالم. وهكذا، وبفضل هذه الأدوات الجديدة للتواصل الجماهيري، أصبحت الاكتشافات الجديدة والنظريات العلمية الجديدة والحلول التكنولوجية الجديدة ملكا لكل من يهتم بها خلال وقت قصير.

ح. شبكة المكتبات، معارض الكتب

كان الإنتاج الكبير للكتاب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ممكنا بفضل عدة أمور منها وجود شبكة منظمة وواسعة الانتشار للكتاب، كانت تأخذ الكتاب من الطابعين والناشرين وتتولى توزيعه فورا. وإذا استثنينا بعض الكتب الدينية (التوراة، كتب القداس، كتب الطقوس والأدعية.. الخ)، التي كان لها عدد مضمون من القراء في كل مكان، وبعض الكتب الأخرى التي تثير اهتماما كبيرا لدى القراء في لحظات معينة لأسباب سياسية وغيرها (أعمال أرازمو روتردام، أعمال لوثر... الخ) فإن بقية الكتب لم يسهل دائما بيعها بكميات كافية تغطي تكاليف الإنتاج. ومن هنا كان من الأهمية بمكان بالنسبة للناشر أن تباع كتبه في أكبر عدد ممكن من المدن والبلدان لأنه لم يكن في الإمكان حينئذ أن يباع الكتاب في مدينة واحدة بغض النظر عن ضخامتها. وللتدليل هنا على أهميته شبكة الكتاب في توزيع كتاب ما يكفي أن نذكر مثال الأعمال المختارة لفولتير. فمن خلال الرسائل المتبادلة بين فولتير وناشر كتبه غابرييل كرامر يتضح لنا أنه من هذه الطبعة أرسلت 2000 نسخة إلى باريس، و142 نسخة إلى أفينيون، و80 نسخة إلى بازل، و36 نسخة إلى ديجون، و50 نسخة إلى أمستردام، و65 نسخة إلى ليون، و75 نسخة إلى روين، و25 نسخة إلى نيم، و24 نسخة إلى هامبورغ، و32 نسخة إلى مارسيليا، و12 نسخة إلى كوبنهاغن، و12 نسخة إلى ليموج، و17 نسخة إلى بروكسل، و6 نسخ إلى نورنبرغ، و6 نسخ إلى ليدن، وعدة نسخ إلى جنيف وتورينو وميلانو وبارما وفينيسيا وبون وكاديز

وغيرها من المدن في فرنسا وخارجها. وكذلك الأمر بالنسبة لإصدارات الناشرين الآخرين ممن كان بوسعهم أن يوزعوا كتبهم عبر شبكة منظمة ومتطورة للكتاب فقط. فقد كانت كل الإرساليات من الكتب تشق طريقها إلى القراء بفضل صلات العمل الوطيدة بين الناشرين وأصحاب المكتبات وحتى بين أصحاب المكتبات أنفسهم في مختلف المدن والبلدان.

وفي الغالب كان توزيع الكتب في ذلك الحين يمارسه أناس محترفون يمتلكون مكتبات في كل المدن الكبرى، ولكن بين هؤلاء كان هناك عدد محدود يمكن أن يعيشوا من هذه المهنة فقط. فلو أمعنا النظر في عملهم لاكتشفنا أنهم كانوا يتعاملون بأمور أخرى كتجليد الكتب وتذهيبها وبيع الورق والرق والحبر ومواد الكتابة وحتى الطباعة. فقد كان هؤلاء على الأغلب يصدرون مطبوعات متواضعة لا تحتاج إلى استثمار مبلغ كبير ولها زبائن مضمونون ككتب الأدعية المختلفة وكتب تعلم القراءة وكتب الشعائر الدينية والتقاويم وما شابه ذلك. ولم يكن أصحاب المكتبات هم وحدهم من يتعاملون ببيع الكتب بل إن الناشرين أيضا كانوا يملكون أحيانا مكتبات خاصة بهم لبيع كتبهم وكتب الناشرين الآخرين التي كانوا يحصلون عليها بالتبادل.

وخلال القرن السابع عشر لجأ بعض كبار أصحاب المكتبات إلى طبع فهارس تجارية بعناوين الكتب التي كانوا يعرضونها للبيع في محلاتهم. وهكذا فقد طبعت مثلا «المكتبة الباريسية المعروفة» Morel-Piget سنة 1646م فهرسا من هذا النوع بعنوان «فهرس الكتب المطبوعة في مطبعة سيمون بيجيه». ولا شك هنا في أن هذه الفهارس كانت ذات قيمة كبيرة حين كان المرء يفتقد المصادر الأخرى التي تساعده على معرفة ما كان يطبع من الكتب وماذا يباع في السوق. وتفيد هذه الفهارس من ناحية أخرى المؤرخ الآن على استخلاص معطيات مثيرة حول تنقل الكتاب. ففي الفهرس المذكور الذي أصدرته مكتبة موريل-بيجيه في 139 صفحة نجد أنه في هذه المكتبة كانت تباع كتب مطبوعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر في فرنسا وهولندا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا. وفي الواقع فقد كان وضع بقية أصحاب المكتبات في المراكز الأوربية الكبيرة لا يختلف عن هذا لأن شبكة المكتبات تمكنت بالفعل من تأمين انتقال الكتاب على الرغم من الحروب الدينية

والمنافسات الأيديولوجية وحدود الدول.

ومن ناحية أخرى لعبت المعارض الدولية للكتاب دورا كبيرا في توزيعه. فحتى حرب الثلاثين الدموية (1618- 1648م) كانت معارض الكتاب في فرانكفورت ولايبزغ، وإلى حد ما في كلن، من أهم مراكز التجارة بالكتاب في أوربا. ففي هذه المعارض كان يلتقي الناشرون من كل أوربا مرتين في السنة، في الربيع والخريف، ليوقعوا العقود ويتعرفوا على الجديد في عالم الكتب وعلى خطط النشر. وهكذا فقد كان يأتي إلى هذه المعارض ناشرون من فينيسيا وميلانو وأنتفربن وغيرها من المدن حيث كانوا يساهمون بحضورهم وبكتبهم التي يحملونها في التنقل السريع للكتب والأفكار. وقد كان الكثير من هؤلاء يوزعون على زوار المعارض فهارس للكتب التي بحوزتهم، بينما أخذ جورج فيلر من أوغسبرغ منذ سنة 1564م بطباعة فهرس كل الكتب المعروضة في معرض فرانكفورت مرتين في السنة. وفيما بعد أخذت المعارض نفسها تطبع فهارس من هذا النوع. وهكذا في سنة 1589م صدر الفهرس الرسمي لمعرض فرانكفورت على نفقة مجلس المدينة.

وقد سار على هذا النحو المعرض الآخر المنافس في لايبزغ. وبينما كان معرض فرانكفورت في ذلك الوقت مركزا دوليا للتجارة بالكتاب باللغة اللاتينية، أخذ معرض لايبزغ يتخصص بالكتاب الصادر باللغة الألمانية وذلك تحت تأثير حركة الإصلاح. وبعد حرب الثلاثين أصبح معرض لايبزغ في طليعة المعارض الألمانية إلا أن مشاركة الناشرين الأجانب (ومعظمهم من الهولنديين والروس) كانت قليلة.

ولكن معرض فرانكفورت سرعان ما واجه الفشل نتيجة لعمل «اللجنة الإمبراطورية للكتاب» التي كانت، تحت تأثير اليسوعيين، تواجه بصرامة كل أصحاب المكتبات والناشرين والكتب التي كانت تأتي للمعرض. وقد أدى تراجع الاهتمام لهذا المعرض إلى انخفاض عدد الكتب المعروضة فيه خلال القرن الثامن عشر، حتى أننا نجد في بداية هذا القرن أن عدد الكتب المشاركة في معرض فرانكفورت أصبح لا يتجاوز ربع الكتب المعروضة في معرض لايبزغ. وهكذا بينما أخذ معرض لايبزغ يجذب بازدياد العارضين والتجار والمهتمين، كان معرض فرانكفورت يعايش أزمة متواصلة حتى سنة 1749م حين أقفل نهائيا إلى أن بعث ثانية بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان معرض لايبزغ قد أخذ يصدر بدوره الفهارس الرسمية للكتب المعروضة منذ سنة 1594م. وفي الواقع فقد كانت فهارس هذه المعارض تساعد كثيرا على معرفة أهمية المعارض الألمانية للكتاب في كل أوربا خلال ذلك الوقت. ويكفي أن نذكر كمثال هنا أن فهارس معرض فرانكفورت خلال (1564- 1600م) كانت تحتوي 20 ألف عنوان، منها 14724 عنوانا تعود إلى 117 ناشرا من 61 مدينة بينما كان يشارك الناشرون الأجانب، وخاصة من فينيسيا وليون، بـ6112 عنوانا.

إلا أن الحروب الدينية في ألمانيا والبلدان الأخرى أثرت بشكل سلبي على إنتاج الكتاب وتنقله بشكل حر وعلى المشاركة في معارض الكتاب المذكورة بالطبع. فخلال حرب الثلاثين أخذت مراكز النشر في فينيسيا وباريس تخفض باستمرار كمية الكتب المرسلة إلى معارض الكتاب في فرانكفورت ولايبزغ، وهو الشيء الذي يبدو في فهارس الكتب التي كانت تصدرها هذه المعارض خلال ذلك الوقت. وهكذا ففي فهارس المعارض المقامة خلال سنة (1613- 1617م) نجد 8049 عنوانا فقط، بينما انخفض هذا الرقم خلال السنوات الخمسة التي أعقبت حرب الثلاثين (1651- 1655م) إلى 5173 عنوانا.

وفي هذه المعارض كان يلاحظ بشكل خاص غياب الناشرين. وفي الواقع هناك أسباب كثيرة وراء تراجع الناشرين في فينيسيا وميلانو وغيرها من المدن الإيطالية في المعارض الألمانية من ناحية وتوطد حضور الناشرين الهولنديين خلال القرن السابع عشر من ناحية أخرى. ومن هذه الأسباب لا بد أن نذكر هنا تخلف إيطاليا الاقتصادي وازدهار هولندا. وهكذا أخذت فينيسيا تتخلى ببطء عن مواقعها في التجارة الدولية بالكتاب إلى انتفربن. ومن ناحية أخرى فقد أدى التوجه المتزايد للناشرين الألمان إلى نشر الكتب في لغة الشعب، الشيء الذي كان يشمل أيضا بقية البلدان بما فيها إيطاليا، إلى تراجع اهتمام أصحاب المكتبات في إيطاليا بسوق الكتب في ألمانيا والعكس أيضا أي تراجع اهتمام أصحاب المكتبات في ألمانيا بسوق الكتاب في إيطاليا. وقد أدى كل هذا إلى تحطيم وحدة سوق الكتاب كما كان عليه في السابق حين كانت معظم الكتب تصدر باللغة اللاتينية.

إلا أن معارض الكتاب بالألمانية أخذت ببطء تستعيد ذاتها بعد الفوضى

التي أحدثتها الحروب الدينية. ولكن بعد أن توطدت ثانية هذه المعارض طغى المشاركون من أوربا الشمالية، وخاصة من هولندا، عليها بينما أخذ زملاؤهم من أوربا الجنوبية يعتمدون بازدياد على مراكز الكتاب القوية كباريس وليون وفينيسيا وغيرها.

وبفضل التطور الكبير لإنتاج الكتاب في هولندا خلال القرن السابع عشر فقد أصبحت أنتفربن وأمستردام وليدن مراكز مهمة جدا للتجارة بالكتاب. وهكذا فقد أصبح أصحاب المكتبات في أسبانيا وفرنسا وغيرها من البلدان يطلبون الكتب من هذه المراكز سواء تلك التي يصدرها الهولنديون أو بقية الناشرين من كافة أرجاء أوربا. ومن ناحية أخرى فقد كان أصحاب المكتبات في هولندا يوصون على الكتب في باريس وليون وغيرها من المدن لكي يبيعوها في بلادهم. وفي بعض الأحيان كان أصحاب المكتبات في بلد ما أو مدينة ما بتبادل الكتب مع أصحاب المكتبات في بلد آخر أو مدينة أخرى، بحيث أن أشهر أصحاب المكتبات كانوا كثيرا ما يحوون في مكتباتهم الكتب التي تعود إلى مصادر متنوعة. وقد كان هذا يشمل بشكل خاص الكتب العلمية والدينية باللغة اللاتينية وأعمال الكتاب الكلاسيكيين اليونانيين والرومانيين بلغتها الأصلية.

وكانت الفهارس التي يصدرها مختلف المشتغلين ببيع الكتاب تكشف عن مصدر الكتب المعروضة للبيع. وهكذا ففي الفهرس الذي أصدره الكتبي بروست في ليون سنة 1621م يتضح أنه كان يحوي في مكتبته 828 كتابا باللاتينية مطبوعة في ليون بالذات، و897 كتابا «مطبوعا» في باريس، و848 كتابا مطبوعا في إيطاليا وأسبانيا، و1540 كتابا مطبوعا في ألمانيا وهولندا. وبالإضافة إلى هذه كان لديه أيضا 678 كتابا بالفرنسية و296 كتابا بالإيطالية، و253 كتابا بالإسبانية، و16 كتابا بالألمانية. ومثل هذا التنوع نجده لدى كبار أصحاب المكتبات منذ القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر وهو يدل على أن سوق الكتاب الأوربي بقي يعمل بشكل جيد نسبيا على الرغم من حدود الدول وضغوط رقابة الدولة والكنيسة والحروب والتناقضات الدينية. ومع هذا نجد أن سوق الكتاب الأوربي منذ منتصف القرن السابع عشر لم يعد كما كان في السابق نتيجة للحروب الدينية والتكريس المتزايد للغات القومية.

خ - ملاحقة الكتاب

في الفترة العاصفة، التي تمتد من النهضة إلى الثورة الفرنسية، أصبحت كل النزاعات الاجتماعية والإيديولوجية والعلمية والفلسفية وغيرها تجد صداها وقوتها في الكلمة المكتوبة.

وهكذا فإن الكتاب لم يؤثر في أية فترة في مسار الأحداث التاريخية كما في هذه الفترة الحاسمة من التاريخ الإنساني، ولذلك فإنه من غير المستغرب أن يكون الكتاب قد أصبح في هذه الفترة بالذات هدفا للهجوم من قبل كل القوى الاجتماعية وكل المؤسسات التي يمكن أن تهدد الكلمة المكتوبة امتيازاتها السياسية والاقتصادية المكتسبة وقناعاتها الدينية ومبادئها الأخلاقية.

إن تاريخ الحرب ضد الكتب غير المرغوبة مليء بالتفاصيل الدرامية والتراجيدية، بينما سجل الكفاح في سبيل نشر وتوزيع هذه الكتب أنبل الصفحات في تاريخ الثقافة الإنسانية. وهكذا فقد خسر الكثير من المؤلفين والناشرين وأصحاب المكتبات في هذه الحرب ممتلكاتهم ومراكزهم الاجتماعية، وحتى رؤوسهم، بينما انتهت الكثير من الكتب إلى منصات الإحراق. وكلما أصبحت الكلمة المكتوبة أكثر خطرا على القيم الراسخة في المجتمع وعلى امتيازات الشرائح الاجتماعية العليا كانت ملاحقة المؤلفين والناشرين وكل من يوزع أو يقرأ أمثال هذه الكتب أكثر عنفا. وفي الواقع أن هذه لم تكن ظاهرة جديدة في تاريخ الكتاب، إلا أن ملاحقة الكتاب لم تصل في أية فترة أخرى إلى المستوى الذي وصلت إليه في هذه الفترة بالذات.

ففي هذه الفترة لجأت سلطات الدولة والكنيسة إلى اتخاذ سلسلة طويلة من الإجراءات ضد الكتب الخطرة التي بقيت تطبق حتى هذا اليوم بعد أن استكملت أكثر من السابق.

ولكن في هذه الفترة بالذات تم اكتشاف وتطوير تحليلات كثيرة مكنت أحيانا المؤلفين والناشرين وأصحاب المكتبات والقراء أن يكتبوا وأن يطبعوا وأن يوزعوا وأن يقرءوا كتبا «خطرة» دون أن يتعرضوا للسجن ودون أن يدفعوا رؤوسهم ثمنا لذلك.

ولنر ماذا كان مصير الكتب الخطرة وغير المرغوبة

١ - الرقابة الوقائية:

لقد ذكرنا سابقا أن رئيس الأساقفة برتولد فون هنبرغ كان أول من طبق ما يسمى الرقابة الوقائية بالمرسوم الذي أصدره سنة 1485م في ماينس، أي ممارسة الرقابة على الكتب قبل أن ترسل للطبع. وفي الواقع فقد توصل هذا الأسقف إلى استنتاج مفهوم في حد ذاته، ألا وهو أنه من الأسهل لمكافحة كتاب خطر منعه من الصدور أصلا. وقد أدرك الكثير فيما بعد، وحتى هذا اليوم، أن هذا النوع من الرقابة أكثر فعالية خاصة بعد أن اغتنى بنظام كامل من التهديدات والإجراءات المحددة. ولذلك ليس من الصعوبة أن ندرك أن نتائج هذه الرقابة كانت شؤما في غالب الأحيان بالنسبة إلى تطور التفكير الحر أكثر من أي نوع آخر من الرقابة.

وكانت فكرة مكافحة الكتاب حتى قبل أن يطبع قد أعجبت كثيرا سلطات الدولة والكنيسة حتى أننا نجدها في عدد كبير من الفرمانات البابوية والمراسيم والوثائق المشابهة منذ القرن الخامس عشر. وهكذا بعد برتولدفون هنبرغ جاء البابا ألكسندر السادس الذي منع بفرمان سنة 1501م Inter multiplices طبع الكتب قبل أن تحظى بموافقة مسبقة من سلطات الكنيسة. وقد لجأ إلى هذا لاحقا البابا ليون العاشر في مجمع لوتران الكنسي حين أصدر فرمان Inter sollicitudines الذي حدد فيه عقوبات صارمة للمخالفين (الحرمان من الكنيسة، الجزاء النقدي بقيمة 100 دوقية، إيقاف عمل المطبعة لسنة كاملة، مصادرة الكتاب وإحراق نسخه). وبعد هذا الفرمان صدر عدد كبير من القرارات والمراسيم المشابهة من قبل السلطات والحكام في مختلف البلدان والجامعات ورؤساء مجالس المدن وغيرهم. وفي هذا الإطار تشكلت لجان كثيرة لا تعد كان واجبها أن تقرأ الكتب قبل إرسالها للطبع. وجميع أعضاء هذه اللجان كانوا يضمنون بتواقيعهم هذه ألا يمس أي مكروه المؤلفين والناشرين بعد صدور الكتاب إذا لم يجدوا فيه ما يتعارض مع الدين ومصالح الدولة والأخلاق السائدة. وقد كان قرار هذه اللجان مهما أيضا للذين سينشرون ويقرءون هذا الكتاب إذ أنه كان يتوجب على هؤلاء أيضا أن يتأكدوا من أنه لن يصيبهم مكروه في حالة شراء وقراءة الكتاب. ولذلك فقد كان الطابعون ينشرون في الكتاب نفسه قرار هذه اللجان الذي يتضمن العبارات الشائعة Nihil Obstat (لا يوجد مانع) و Imprimateur (يسمح بالطبع).

وقد بقيت هذه العادة، وبالأحرى الواجب، حتى هذا اليوم بالنسبة إلى الكتب الدينية في البلدان الكاثوليكية.

لقد أدت صرامة لجان الرقابة، وخاصة في القرن الثامن عشر، بمعظم الكتاب إلى أن يتحلوا بالحذر ويتخلوا عن الطباعة بل وينقطعوا عن تأليف النصوص التي كانوا يعرفون مسبقا أن لجان الرقابة سترفضها إذا أرادوا ألا يتعرضوا للمتاعب. وقد أصبح معظم الكتاب يأخذون بالمبدأ الشائع «لا تجوز الكتابة لأجل أولئك الذين قد يلاحقوك» نظرا لخشيتهم من النتائج غير المرغوبة. أما أولئك الذين كانوا يرفضون الخضوع للرقابة، كفولتير وروسو وغيرهم من الكتاب والفلاسفة، فقد كان عليهم أن يواجهوا الكثير من المتاعب كالنفي والسجن ومصادرة الكتاب وغير ذلك.

2- قوائم الكتب الممنوعة

على الرغم من كل الإجراءات التي اتخذت ضد طبع وتوزيع الكتب الخطرة وغير المرغوبة فقد وجد الكثير من الطابعين الذين كانوا يطبعون مثل هذه الكتب، والكثير من أصحاب المكتبات الذين كانوا يبيعونها. وقد أصبح منع هذه الكتب قضية مهمة تشغل بال سلطات الكنيسة وسلطات الدولة على حد سواء. ونظرا لازدياد هذه الكتب فقد توصلت هذه السلطات إلى أنه من الأفضل تسجيل كل الكتب الخطرة ثم تحذير المؤمنين والمواطنين من هذه الكتب لكي لا يشتروها ولا يقرءوها ولا يعيروها لأحد، وتحديد العقوبات ضد أولئك الذين يتجرأون على شراء هذه الكتب الممنوعة أو الاحتفاظ بها في مكتباتهم.

وهكذا في النصف الأول للقرن السادس عشر، بعد أن غطت كتب لوثر أوروبا مع غيرها من الكتب الخطرة، أخذ الحكام والجامعات ورؤساء مجالس المدن في إصدار القوائم التي تشمل الكتب الممنوعة. وكان كل طرف يمنع بالطبع الكتب التي كانت خطرة بالنسبة له، ولذلك كان كثيرا ما يحدث أن يعتبر كتاب ما من الكتب الخطرة في إحدى المدن أو في إحدى الدول ولا يعتبر كذلك في المدن الأخرى أو الدول الأخرى. وقد أدى هذا إلى طبع عدد كبير من الكتب إلى الحد الذي جعل قوائم «الكتب الممنوعة» تمتلئ بها عدة بلدان.

وكان أول من أصدر قائمة رسمية بالكتب الممنوعة الملك الإنجليزي هنريك الثامن. فقد كان هذا الملك يرى أن أكبر خطر يتمثل في دعاة الإصلاح الألمان والإنجليز وخاصة في كتب لوثر. ولذلك فقد أصدر سنة 1526م أول قائمة بالكتب التي منع مواطنيه من قراءتها. إلا أن هذه القائمة كانت صغيرة إذ أنها لم تتضمن إلا 18 عنوانا، منها خمسة للوثر. ولكن بعد ثلاث سنوات أصدر قائمة أطول تتضمن 85 عنوانا، منها 22 كتابا للوثر و11 كتابا لسنكل.. الخ. وفيما بعد أصدر الملك هنريك الثامن قوائم أخرى وصل عددها الإجمالي إلى 18 قائمة من هذا النوع. إلا أن لوثر لم يقصر في حقه أيضا إذ أنه أصدر ضده رسالة هجائية بعنوان «ضد هنريك ملك إنكلترا». إلا أن هنريك الثامن لم يكتف فقط بمنع الكتب التي يعتبرها خطرة بل أنه دخل التاريخ كواحد من أكثر المتحمسين لحرق الكتب. فقد أحرق بشكل علني الكثير من الكتب التي كان يعتبرها خطرة سواء لدعاة الإصلاح في ألمانيا أو حتى في إنجلترا وقد تابعه في هذا الطريق عدة ملوك آخرين في إنجلترا كالملكة اليزابيث. ولم يكن الوضع في بقية البلدان الأوربية بأفضل من هذا. ففي إيطاليا سارعت عدة مدن إلى طبع قوائم للكتب الممنوعة. وهكذا فقد أصدر مجلس مدينة لوقا سنة 1545م قائمة من هذا النوع، بينما قام أعضاء محاكم التفتيش في فينيسيا بإصدار قوائم للكتب الممنوعة خلال سنة (1549- 1554م). وقد صدرت قائمة من هذا النوع في فيرنا سنة 1552م، وفي ميلانو سنة 1554م.. الخ. وفي ألمانيا أصدرت مدن كثيرة قوائم من هذا النوع. وحتى في هولندا، التي كانت فيها الرقابة متسامحة أكثر في ذلك الوقت، فقد صدرت أيضا «قوائم للكتب الممنوعة». فقد صدرت القائمة الأولى في عهد كارل الرابع سنة 1529م، بينما صدرت القائمة الثانية سنة 1540م.

لقد كانت كل هذه القوائم ذات طابع محلي إذ أنها كانت تهدف إلى منع طبع ونشر الكتب التي تعتبر خطرة بالنسبة للمدينة أو الدولة التي تصدر هذه القوائم.

وبالطبع لم يكن في الإمكان أن تسجل في هذه القوائم آلاف الكتب «السيئة» التي كانت تطبع في كافة أرجاء أوربا والتي لم يعرف عنها شيئا أعيان المدينة أو سلطات الدولة. وقد سمح هذا الوضع بأن يوزع كتاب ما

في إحدى المدن دون أن تنال القوانين المحلية من الناشر أو صاحب المكتبة. وبهذا الشكل فقد كان في وسع تجارة الكتب الدولية المنظمة أن تخترق الرقابات المحلية.

أما السلطات المدنية فقد قامت بكل ما تقدر عليه لأن سلطتها كانت تشمل مواطني المدينة أو الدولة فقط. وبعبارة أخرى فقد كان بوسع الكنيسة فقط أن تهدد وتعاقب كل أولئك الذين يعترفون بسلطتها. ولهذا فقد كانت الفرمانات البابوية تفوق في أهميتها مراسيم الحكام وقرارات رؤساء مجالس المدن فيما يتعلق بمنع وطبع ونشر الكتب الممنوعة.

وهكذا فقد أخذت الكنيسة بطبيعة الحال تصدر قوائم الكتب الممنوعة التي أصبحت بسرعة أهم أداة لقمع حرية الطباعة وحرية التفكير نظرا لأنها كانت تصدر عن مؤسسة قوية.

وقد صدرت أول قائمة عامة للكتب الممنوعة من قبل البابا بولس الرابع، الكاردينال كارافا الذي كان قد أصدر سابقا سنة 1543م فرمانا بابويا أكد فيه على أنه لا يجوز طبع أي كتاب قبل أن ينال موافقة محاكم التفتيش. وقد صدرت أول طبعه من قائمة الكتب الممنوعة في روما سنة 1557م، ثم صدرت طبعة أخرى مزيدة ومنقحة سنة 1559م. وقد أعدت هذه القائمة حينئذ محكمة التفتيش في روما، ولذلك يطلق عليها غالبا «قائمة روما». وفي هذه القائمة نجد عناوين الكثير من الكتب التي تحرم قراءتها على المؤمنين، وأسماء المؤلفين التي منعت كل أعمالهم. وهكذا نجد فيها أيضا طبعات كثيرة للتوراة محرمة على المؤمنين لأنها طبعت دون إذن من سلطات الكنيسة. وبالإضافة إلى هذا فقد ورد في هذه القائمة بشكل صريح أسماء 61 طابعا من الذين منعت كتبهم التي يطبعونها بغض النظر عن مضمونها.

وخلال سنة (1562- 1563م) بادر مجمع تريدنتين الكنسي (1545- 1563م)، الذي التئم لكي يعد الأساس لمواجهة حركة الإصلاح ولتعزيز النظام في صفوف رجال الدين الكاثوليك، إلى إصدار قرار بمراجعة الطبعة الأولى من «قائمة روما» وإكمال ما ينقصها لإصدار طبعة جديدة. وبالاستناد إلى هذا القرار أصدر البابا بيو الرابع سنة 1570م «قائمة تريدنتين» التي سرعان ما صدرت لاحقا في عدة بلدان بعد بعض التعديلات التي تتناسب مع الوسط المحلي. فقد صدرت هذه القائمة سنة 1570م في انتفربن، وفي

لشبونه سنة 1581م، وفي ميونيخ سنة (1583م). وقد أسس البابا بيو الرابع لاحقا سنة (1571م) لجنة خاصة من الكرادلة تقتصر مهمتها على إضافة زيادات إلى هذه القائمة وطبعها من حين إلى آخر. وقد استمرت هذه اللجنة حتى سنة 1917م (حين تولت عملها لجنة الخدمة المقدسة) في متابعة كل ما يطبع من كتب باهتمام وإذا ما لاحظت أن أحد الكتب يتعارض مع الدين والأخلاق العامة، كما كانت تفسرها الكنيسة في فترات مختلفة، تقوم بتسجيله في القائمة. وكان يحدث أحيانا أن يتغير هذا الموقف من الكتاب ولذلك كان يزال من القائمة ويسمح للمؤمنين بقراءته. ومن هنا كان من الطبيعي أن تراجع هذه القائمة وأن تصدر طبعة أخرى من حين إلى آخر. وهكذا فقد صدرت بين الطبعة الأولى سنة(1557م) والطبعة الأخيرة سنة (1948م) حوالي أربعين طبعة مختلفة من هذه القائمة.

إن تصفح هذه القوائم يجعل المرء غالبا في حيرة من أمره. ففي هذه القوائم نجد أسماء المعارضين المعروفين للكنيسة الكاثوليكية، والملحدين المشهورين، والهراطقة واللوثريين، ومؤلفي كتب التنجيم وما شابه ذلك، ومؤلفي الكتب العلمية الذين كانوا يتجرأون على تفسير الظواهر الطبيعية بالاستناد إلى مراقبة الطبيعة وليس بالاستناد إلى التوراة، ومؤلفي الأعمال الأدبية الذين كانوا يتناولون القضايا الجنسية، ومؤلفي الأعمال الفلسفية الذين كانوا يتجرأون على تجاوز ما تعتقده الكنيسة حقيقة خالدة.. الخ. ولكن في هذه القوائم نجد أيضا أسماء ومؤلفات بعض الكتاب الذين ليس من السهل تبرير وجودهم. وليس من السهل تفسير ما تمثله من خطر على الدين والأخلاق العامة «مقالات» مونتنيه التي أدخلت إلى القائمة سنة 1676م و«حكايات وقصص شعرية» للأفونتين وغيرها من الكتب المشابهة. ولكن ليس من الصعب هنا تفسير وجود كتاب «ديكا أيمرون» لبوكاشيو، الذي كان البابا بولس الرابع قد أدخله في الطبعة الأولى من «قائمة الكتب الممنوعة». إلا أنه من المثير هنا أن هذا البابا، الذي عرف بكفاحه المستميت من أجل طهارة العقيدة الكاثوليكية ومن أجل صرامة الأخلاق المسيحية، كان يعتبر أن كتاب بوكاشيو يستحق القراءة ولذلك سمح بقراءة هذا الكتاب بعد إجراء بعض الرتوش على قصته. وهكذا فقد رؤى استبدال الراهبات الشهوانيات بسيدات محتشمات والرهبان الفاسقين بسحرة.

وقد وجدت في هذه القوائم من حين إلى آخر، وأحيانا على الدوام، أسماء أهم الكتاب في ذلك العصر أو في العصر السابق الذين كانت كتبهم تطبع الآن بعد اختراع الطباعة، حيث كان البعض يرد اسمه لمنع أحد كتبه بينما كان البعض الآخر تمنع كل مؤلفاته. وهكذا لا بد أن نذكر من هؤلاء دانتي الذي سجل كتابه «الملكية» في قائمة الكتب الممنوعة سنة 1559م لأنه يدافع فيه عن الرأي القائل بأن سلطة الحكام تنبع بشكل مباشر من الله وليس من البابا، ممثل الله على الأرض. وفي تلك الطبعة من القائمة سجلت كل مؤلفات أرازمو روتردام ومارتين لوثر وماتيا فلاتشتيش أيريك وغيرهم من دعاة الإصلاح. وفي الطبعات اللاحقة من القائمة نجد اسم فرانسو ربليه الذي كان يعتبر من الخطرين، ثم مؤلفات رينيه ديكارت بلزاك وباسكال وجون لوك ودانييل ديغوس وجوناتان سويفت، ومؤلفات الموسوعيين الفرنسيين بطبيعة الحال،تمكمونتسكو وفولتير وروسو وديدرو، ومؤلفات الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط وآلاف المؤلفات الأخرى.

إلا أن لجنة الكرادلة المقدسة والمتفرغة لهذه القوائم، لم تكن هي وحدها التي تمارس وضع قوائم الكتب الممنوعة. فمع صدور الطبعة الأولى من قائمة الكتب الممنوعة لم تنتف الأسباب التي كانت تدعو الحكام ورؤساء مجالس المدن إلى وضع قوائم خاصة بهم، فقد كان الكثير من الكتاب يحترمون مبادىء الدين إلا أنهم تجاوزوا قوانين وإجراءات المدينة أو الدولة التي يتبعونها، ولذلك فقد ازدادت باستمرار قوائم الكتب الممنوعة التي تصدرها الدولة مع كل طبعة جديدة من قائمة الكنيسة. ومن المثير أن بعض الأساقفة أيضا كانوا يصدرون قوائم خاصة يسجلون فيها الكتب التي لها طابع محلي، ولكن في بعض الأحيان أضيفت إلى هذه القوائم كتب أخرى لم ترد في الأصل كـ«قائمة روما» ولكنها كانت تمنع نتيجة للوضع الخاص في هذه الأسقفية، أو تلك، أو لأن محاكم التفتيش المحلية، ولجان الرقابة كانت تعتبرها خطوة على ذلك الوسط. وفي الواقع فقد صدرت بعض هذه القوائم قبل «قائمة روما»، بينما صدر معظمها بعد ذلك. وفي هذا الاتجاه كانت تتميز أسبانيا، حيث أصدرت محاكم التفتيش قوائم خاصة في فالادوليدا «سنة 1554م»، وفالنسيا «سنة 1551م» الخ.

ولا يوجد هنا داع للتركيز على الآثار البشعة لهذه القوائم والعقوبات

التي كانت تقع على أولئك الذين كانوا لا يحترمونها، ويتجاهلونها عن وعي على ظهور وانتشار الأفكار الجديدة، والأعمال الفنية الجديدة. إلا أن هذه الآثار لم تكن واحدة بالنسبة لجميع البلدان لأن نفوذ الكنيسة كان يختلف من بلد لآخر. أما القوائم التي كان يصدرها الحكام، فقد كانت تطبق على البلدان التي تصدر فيها فقط. وهكذا فقد كان بوسع الكتاب والناشرين ألا يحترموا الكنيسة إذا كانوا يعيشون في ظل أنظمة ليبرالية، بينما كانوا يعمدون إلى التهرب من قوائم الكتب الممنوعة في بلادهم بطبع مؤلفاتهم في بلد آخر.

وفي الواقع أفادت «قائمة روما» العقول النيرة في معرفة ما يصلح للقراءة ومن هنا ولد المثل الشعبي القائل «ما تسجله روما يصلح للقراءة».

وهكذا حدث في ذلك الوقت ما كان قد حدث قبل ذلك في روما القديمة، وما سيحدث لاحقا حتى يومنا هذا.

وقد ذكرنا حالة الروماني فابريسيو فينتون التي علق عليها تاسيت بسخرية حينئذ: إن منع وملاحقة كتاب ما يجعله مثيرا لدى القراء بأن ينسى بسرعة بعد السماح به. وبالفعل فإن الكتب التي حاولت سلطات الكنيسة والدولة أن تمنعها وتلاحقها وتحرقها، وتمنع توزيعها بحرية كانت تقرأ وتنتشر باستمرار لهذا السبب بالذات. وكان تأثير هذه الكتب، نظرا للمصير الذي عايشته، أكبر بكثير مما لو كانت هذه الكتب غير ممنوعة.

3- حرق الكتب

منذ العصر القديم كان حرق الكتب وسيلة مرغوبة للتخلص من الكلمة المكتوبة، ولإرهاب المؤلف والناشر والبائع والقارئ في آن واحد. أما في العصر الوسيط فقد كانت حالات حرق الكتب نادرة نسبيا لأن الكتب التي كانت تستحق مصيرا من هذا النوع كانت نادرة، كما كانت الحالات التي يتجرأ فيها الكتاب على تأليف الكتب الخطرة ضد الدين والأخلاق العامة نادرة جدا. ولكن مع ظهور الطباعة أدى الإنتاج الكبير للكتاب إلى حرق الكتب باستمرار.

وفي الواقع فقد كان هناك ما يمكن حرقه. فكما يظهر الفطر بعد المطر أخذت تظهر الكتب التي كان مؤلفوها يثيرون رجال اللاهوت ورجال السلطة

بأفكارهم الملحدة والمعادية للدولة، والقصص غير الأخلاقية والسخرية والإهانة العدائية. وبالإضافة إلى الكنيسة فقد كان الخوف من الكلمة المكتوبة يشمل كل أولئك الذين لم تكن تناسبهم التغيرات في العلاقات الاجتماعية والأفكار الجديدة في العلم والفلسفة والمجالات الحياتية الأخرى، وهي التي كانت تظهر بكثرة على الدوام. كان كل واحد من هؤلاء لديه ما يكفي من الأسباب المقنعة لكي يعتبر نفسه مهددا من قبل الأفكار الجديدة التي كان يطرحها الكتاب الليبراليون في كتبهم، وكان كل هؤلاء لديهم التبرير الكافي لملاحقة هذه الكتب والتخلص منها. فكانت الكتب تحرق في كل مكان. أما النار فقد كانت تشعلها سلطات الكنيسة وسلطات الدولة وكل أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مخولين لحرق الكتب اللوثرية والكاثوليكية والإلحادية وغيرها.

وقد تلاشت تماما بعض الكتب حتى أنه لم تبق منها نسخة واحدة، بينما سلمت بعض الكتب الأخرى من كل عمليات الحرق وقامت بالدور الذي أراده لها الكتاب.

ومن أولئك الذين يعتقدون أن الكتب مسؤولة عن فساد العالم كان الدومينيكاني جيرولا موسافونا رولا سنة (1452- 1499م) من فيرنسا. وكان هذا في خطبه النارية يدعو إلى العودة إلى أصول المسيحية، ويرفض كل ما أوصل الكنيسة والمجتمع إلى تلك الحالة الأخلاقية البائسة في ذلك الوقت. وهكذا فقد كان في خطبه الحادة ينتقد دوما الكتب السيئة، وغير الأخلاقية، واللوحات التي تبرز الجسم العاري للإنسان، والمنحوتات والأعمال الفنية الأخرى التي تبرز ما ينسب إلى الخطيئة. وقد اندفع المتعصبون من أتباع سافونا رولا إلى بيوت الأغنياء في فيرنسا ليجمعوا اللوحات والكتب والأشياء الأخرى القيمة وليضعوها في الساحة الرئيسية للمدينة، حيث كانوا يجمعون كومات من الحطب ويلقون فوق ألسنة النيران وسط صراخ الحشود كتب أوفيد وبوكاشيو وغيرهم من الكتاب «غير المهذبين»، واللوحات الفنية التي تمثل مشاهد فاضحة، وكل ما كانوا يعتقدون أنه يفسد الأخلاق، ويهدد طهارة الدين. لقد أطلق على هذه العملية التي تكررت مرارا «حرق الأباطيل»، حيث تحولت هنا الكثير من الكتب إلى رماد. وقد كتب سافونارولا، بالاستناد إلى أفلاطون الذي كان مع ضرورة منع الأعمال الشعرية التي تفسد الشباب،

في ذلك الوقت حول هذا ما يلي:

لماذا لا يصدرون (الحكام) القوانين التي تنص على الطرد من المدينة لهؤلاء الشعراء الكاذبين وترحيل كتبهم وكتب المؤلفين القدماء التي تتناول أمورا فاضحة، وتمجد آلهة كاذبة؟ فمن الأفضل بكثير التخلص من هذه الكتب لكي لا تبقى إلا الكتب التي تشجع على الفضيلة.

ولكن حين تغير الوضع وحكم مجلس المدينة على سافونارولا بالموت سنة(1498م) أحرق مع جسده في تلك الساحة بالذات كل ما كتب هذا طيلة حياته.

وفي البلدان الكاثوليكية كانت كتب مارتن لوقر وغيره من دعاة الإصلاح تلقى في النار دون أية رحمة.

فقد أمر البابا ليون العاشر سنة (1521م) بحرق كتب لوثر، كما رمت كلية اللاهوت القوية في جامعة باريس أطروحات لوثر في النار. وكانت الترجمة الإنكليزية للعهد الجديد، التي أعدها اللوثري الإنجليزي، وليم تيندل، والتي طبعت في كلن، قد ارسلت بشكل خفي إلى إنجلترا إلا أن كافة نسخ هذه الطبعة «6000 نسخة» صودرت وحرقت حينئذ من قبل رجال اللاهوت الغاضبين بحيث أنه لم تبق نسخة واحدة من هذه الطبعة. وقد التهمت النار سنة(1536م) المترجم نفسه، وتيندل في بلجيكا حيث أحرق هناك مع ترجمته.

ولم يقصر اللوثريون بدورهم في حق الكاثوليك. فقد سجل التاريخ لنا حالات كثيرة لحرق الكتب الكاثوليكية في البلدان التي انتصرت فيها حركة الإصلاح. وقد عبر اللوثريون عن استيائهم من الكنيسة الكاثوليكية خلال الحرب الفلاحية في ألمانيا سنة (1525م) بحرق مكتبات بكاملها، وهو الشيء الذي حدث أيضا في إنجلترا وفرنسا.

وبينما كانت سلطات الكنيسة تحرص على أن تحرق في الدرجة الأولى الكتب التي تهدد نفوذ الكنيسة والعقائد الدينية والأخلاق العامة، نجد أن سلطات الدول كانت تحرق بحماس مماثل كل الكتب التي تمر الدولة بمضمونها. وفي الواقع لم تكن هذه الكتب أقل خطورة من الأولى، ولذلك فإن سلطات الدولة، كما كان شأن سلطات الكنيسة، شغلت نفسها كثيرا بالكتب الخطرة، وغير المرغوبة، وأولت اهتماما أكبر بمؤلفي هذه الكتب.

وهكذا لدينا خلال هذه الفترة حالات كثيرة لحرق الكتب من قبل سلطات الدولة. ففي سنة 1652م أحرقت في فرنسا نسخ «دفاعا عن الشعب الأنغليكاني» للشاعر الإنجليزي المعروف جون ملتون لأسباب سياسية، ثم أحرقت نسخ هذا الديوان في بلاده إنكلترا سنة 1665م، وفي سنة 1657م أحرقت في فرنسا نسخ كتاب «رسائل إلى ريفي» لباسكال لأنه مس سلطة الدولة فيها. وقد أحرق الفرنسيون الكثير من مؤلفات فولتير، بينما أمر راعي الأدب وصديقه ملك بروسيا فردريك الكبير بحرق كتابه «خزعبلات الدكتور أكاكيا» بعد خلاف ثار بينهما. وفي الواقع لقد أثارت شتائمه الحادة الكنيسة ورسائله الليبرالية وانشغاله بالدفاع عن العدالة والحرية حماس البعض له وتعصب البعض الآخر ضده.

ومن جميع كتاب هذا القرن العاصف «القرن 18» كان فولتير هو أكثر ما تعرضت مؤلفاته للحرق سواء من قبل سلطات الكنيسة أو من قبل سلطات الدولة.

إلا أن العقول الليبرالية الأخرى لم تسلم بدورها من هذا المصير. فقد أحرق كتاب روسو «أميلي» هذا المؤلف الممتاز عن التربية، بشكل علني في باريس سنة 1762م، حسب أوامر البرلمان الفرنسي. وقد أمر هذا البرلمان أيضا سنة 1774م بحرق مذكرات بومارشيه بزعم أنها تمس سلطة الدولة. ومن المثير أن كوميدياته الممتازة «حلاق أشبيلية» و«عرس فيفارو»، التي كانت تعرض بنجاح كبير في ذلك الوقت، لم تعجب السلطة حتى أنها منعت فترة من الزمن بينما سجن بومارشيه نفسه بسبب-لا أخلاقية-هذه الكوميديات.

وبإمكاننا أن نتخيل إلى أي حد من الشذوذ يمكن أن تصل إليه معارضة الأفكار الجديدة من خلال مصير ماركانتون دومينيس من راب، أسقف سني ثم رئيس أساقفة سبليت، العالم والمؤلف الرائع للكثير من الأعمال الذي تورط في نزاع شديد مع محكمة التفتيش بسبب أفكاره. فقد أوقف في شيخوخته ومرضه وسجن في القلعة الملائكية في روما، حيث تعرض هناك للتحقيق. ومع أن دومينيس توفى هناك قبل أن يدافع عن نفسه في المحاكمة إلا أن محكمة التفتيش لم توقف التحقيق بشأنه بل إنها حكمت عليه بعد الموت بـ «الفضيحة الأبدية» وحرق مؤلفاته بشكل علني. وبالاستناد

إلى هذا الحكم فقد التهمت ألسنة النار جثة دومينيس ولوحة له بالإضافة إلى كيس مليء بمؤلفاته في «ساحة الزهور» بروما سنة 1624م.

4- منع إدخال الكتب إلى البلاد

كانت الكتب الخطرة، التي تطبع في المدن والبلدان الأخرى، تمنع من الوصول إلى أيدي القراء. فقد أصدر جميع الحكام ورؤساء مجالس المدن تقريبا منذ القرن الخامس عشر القرارات التي تنص على منع الكتب الخطرة، التي تطبع في المدن والبلدان الخارجة عن مجال رقابتهم، من الدخول إلى بلادهم.

وفي هذا المجال أيضا كان الملك الإنجليزي هنريك الثامن أول من لجأ إلى تطبيق هذا الأسلوب. ففي سنة 1538م، أصدر هذا الملك قرارا يمنع فيه دخول الكتب المطبوعة باللغة الإنجليزية خارج إنجلترا إلى البلاد. وقد أصدرت الملكة ماري تودور، القلقة من الأفكار الخطرة لدعاة الإصلاح ومؤيديهم، بيانا سنة 1555م منعت بموجبه «كل شخص أن يدخل أي مخطوط أو كتاب مطبوع أو كتابات تحمل اسم مارتن لوثر أو جان كلافن أو ميلس كوفردال وغيرهم، أو أي كتاب مشابه يتضمن عقائد كاذبة تتعارض مع الدين الكاثوليكي».

أما أولئك الذين تجرؤا على إدخال كتب خطيرة فقد كانوا يتعرضون لإجراءات صارمة في كل البلدان والمدن. ولدينا حول هذا مثل جيد من دوربروقنيك «راغوصة». فقد سيطر على السلطة في جمهورية دوبروقنيك القلق من أفكار لوثر ولذلك فقد منعت بشكل صارم إدخال هذه الكتب الخطرة، فكانت كل شحنات الكتب التي تصل بالسفن إلى الميناء ترسل فورا إلى الحكومة لمراقبتها. ونظرا لأن السلطة كانت تشك في أن بعض السكان كانوا يدخلون بشكل خفي كتب لوثر إلى أراضي الجمهورية فقد أمر المجلس الأعلى سنة 1545م بتفتيش صارم لكل شخص في المدينة يملك كتبا من هذا النوع، وبإنزال العقوبة بكل من يملك هذه الكتب حسب قوانين الكنيسة، بالإضافة إلى تغريمه بمبلغ قدره 100 دوقية ذهبية.

إلا أن قرارات المنع المتعلقة بإدخال الكتب الخطرة لم تكن خاصة بالحكام الكاثوليك ورؤساء مجالس المدن. فقد كانت البلدان البروتستانتية تمنع

بصرامة أيضا إدخال الكتب الكاثوليكية إذ أن كل طرف كان يفعل هذا لحماية قناعاته الدينية، ومصالحه المادية أيضا من أولئك الذين كانوا يهدون هذه القناعات والمصالح. ولكن الكاثوليك والبروتستانت لم يختلفوا في تصرفاتهم بشكل جذري مع أولئك الكتاب الذين يمثلون الأفكار الإلحادية والهرطقية، والأفكار المشابهة، أو مع علماء الطبيعة والكتاب والفلاسفة وغيرهم من الذين كانوا يشككون بأسس الدين والنظام الاجتماعي، إذ أن كل طرف كان يمنع إدخال كتب من هذا النوع وبيعها بشكل حر.

وقد اعتبرت أعمال الموسوعيين الفرنسيين على أنها في غاية الخطورة، ولذلك منعت من الدخول إلى جميع البلدان الأوربية تقريبا.

وقد سجل الكاهن القانوني لزغرب بالتازار آدم كرتشلتيش في كتابه «الحوليات أو التاريخ» الذي طبع سنة 1764م، تفصيلات مثيرة تكشف عن خشية السلطة من أعمال مشابهة. وهكذا كتب بمناسبة عودة الضباط إلى بيوتهم بعد حل الجيش «حمل هؤلاء معهم بمناسبة عودتهم إلى بيوتهم في كرواتيا مجموعة كبيرة من الكتب الجيدة والسيئة. وحسب الأمر الملكي فقد كانوا ملزمين بأن يرسلوا إلى الأمير قائمة بكل الكتب». ومع أنه اتضح أن هذه الكتب ليست خطرة إلي تلك الدرجة التي ظنها لأول وهلة المحققون النشيطون إلا أن المؤلف يستلهم هذه الحادثة ليقول: «يا للأفكار التي يحملها معهم معظم هؤلاء العائدين وينشروها بين الرجال والنساء الجهلة، إنهم يقولون، على سبيل المثال، إن الروح تموت وإن كل المقدسات بما في ذلك الدين ليست سوى أباطيل وغير ذلك من الأفكار الإلحادية».

ولا شك في أن القرارات المتعلقة بمنع إدخال الكتب الخطرة قد أعاقت كثيرا تنقل الكتب والأفكار، ولكن ليس إلى ذلك الحد الذي كان يأمله أولئك الذين أصدروا تلك القرارات. وفي الحقيقة لم يكن من الصعب أن يحمل المرء كتابا من دولة إلى أخرى، أو من مدينة إلى أخرى، إذ إن الحدود بين الدول في ذلك الوقت لم تكن محكمة الإغلاق، كما أصبحت بعد ذلك. وحين كان يصل أحد الكتب إلى وسط ما كان من الصعب منع هذا الكتاب من الانتقال من يد إلى أخرى. وتدلنا هنا حالة فرنسا في القرن الثامن عشر على صعوبة منع إدخال الكتب وانتشارها بواسطة القرارات الرسمية. فقد دخلت أعمال الموسوعيين الفرنسيين التي طبعت في البلدان المجاورة

لفرنسا الأراضي الفرنسية بشكل كثيف على الرغم من الإجراءات والقرارات التي كانت تتخذها السلطة.

وهكذا فقد رؤى في فرنسا أيضا، حيث كانت تطبق رقابة صارمة في ذلك الوقت، إن قرارات المنع لا تحقق المطلوب. وبفضل الوزير الليبرالي ماليشربيه (1721- 1794م)، الذي صدرت بفضل تسامحه الموسوعة المعروفة لديدرو، فقد أخذ الكثير من الكتاب الفرنسيين بطبع كتبهم الجديدة في فرنسا بعد أن كانوا يطبعونها في الخارج. وفي الواقع كان هذا اعترافا بلا جدوى-سياسة الأبواب المغلقة-إزاء الكتاب المطبوع.

5- تطهير الأعمال الببليوغرافية

في كتابه المعروف «المكتبة الجامعة» التي هي أول ببليوغرافيا عامة من نوعها في أوربا سنة (1454م)، لجأ العالم السويسري كونراد غسنر إلى ما كان يعتقد بضرورته في إنجاز الببليوغرافيا: إدخال كل الأعمال التي استطاع أن يجدها بغض النظر عن أفكار المؤلفين، وعن الدين الذي ينتمون إليه. وهكذا فقد اجتمع في هذا العمل الكتاب الكاثوليك والهراطقة والبروتستانت والمؤمنون والكافرون. وبالطبع فإن هذا لم يعجب أحدا وخاصة محكمة التفتيش في روما، إذ أنها وضعت هذه الببليوغرافيا في قائمة الكتب «الخطرة» سنة 1564م. ومع هذا فقد استفاد من هذه الببليوغرافيا حتى الذين عارضوها إذ أنها كانت لوقت طويل أهم مصدر للمعلومات الببليوغرافية عن الكتب المطبوعة في السنوات المائة الأولى بعد اختراع المطبعة في أوربا.

ولهذا السبب فقد ارتأى قارئ مجهول أن يسجل شيئا على نسخة من هذه الببليوغرافيا في مكتبة أكاديمية «دي لينسي» بروما «وهي اليوم محفوظة في مكتبة «أرسيفيناس» في بولونيا» للقراء الآخرين لكي يقرءوا بحرص هذه الببليوغرافيا لأن المؤلف يخلط بوعي بين الكتب الجيدة والكتب السيئة وبهذا الشكل يعرف القارئ على الكتاب الهراطقة. وبشكل خاص يوجه هذا انتباه القراء الآخرين إلى أعمال لوثر وميلانكتون وغيرهما. ولكن أحد المسؤولين في المكتبة المذكورة لم يقتنع بهذا، ولذلك فقد محى بالحبر كل كتب الهراطقة أو غطى الصفحة بورقة أخرى حين كان يجتمع فيها أكثر من

كتاب.

وبالطبع فإن موقف محكمة التفتيش من فسنر ترك صداه لدى الآخرين. فقد ظهرت منذ القرن السابع عشر سلسلة من الأعمال الببليوغرافية التي شاركت بدورها أعضاء محاكم التفتيش وغيرهم من معارضي الفكر الإنساني الحر في الحرب الدائرة ضد الكتب الخطرة. وهكذا فقد أصبح تجاهل ذكر بعض الكتب في الأعمال الببليوغرافية أحد الأساليب المعتادة في الحرب الدائرة ضد الكتب والكتاب، مع أن هذا الأسلوب لم يكن فعالا على الدوام.

وفي الواقع لقد كان من أوائل من لجأ إلى هذا الأسلوب المؤلف الببليوغرافي الإنجليزي جون بيتس، المؤمن بكاثوليكيته، الذي تجاهل في مؤلفه «في مشاهير رجال إنجلترا» سنة (1619م) كل أعمال مواطنه المصلح الديني جون وكليف وأعمال مؤيديه أيضا.

ولم تكن هذه حادثة معزولة فقد تكررت كثيرا في القرون اللاحقة. فقد أصبح تجاهل ذكر أسماء الكتاب والكتب في الأعمال الببليوغرافية وقواميس الأعلام والمؤلفات المرجعية الأخرى جزءا لا يتجزأ من الحرب الأيديولوجية والدينية وحتى الشخصية المتزمتة ضد الكتب والكتاب، وهكذا نجد أن الأعمال الببليوغرافية والمؤلفات المرجعية الأخرى لم تعد منذ ذلك العصر مصدرا للمعلومات الصحيحة بل منبعا للمعلومات المضللة أيضا.

6- طبع الكتب في الخارج

كان الهدف من كل هذه الإجراءات القمعية يتجاوز منع طبع ونشر الكتب الخطرة ليصل إلى ترهيب أولئك الذين يفكرون بتأليف كتب من هذا النوع. وبالفعل فقد تخلى الكثير من الكتاب عن تأليف مثل هذه الكتب لخشيتهم من كل الإجراءات التي كانت تطبقها السلطات ضد الكتاب. ومع ذلك فقد بقيت تكتب وتنشر وتقرأ الكتب التي لا تعجب الكنيسة ولا الدولة، وأخذ عدد أولئك الذين لا يهابون تلك الإجراءات القمعية يتزايد باستمرار. ولا شك أن بعض الظروف حينئذ قد ساعدت على هذا. فتعارض المصالح والتناقضات العدائية بين الحكام والمدن والبلدان ساعد الكتاب والناشرين والطابعين على أن يصدروا الكتب حيثما يجدون الحماية.

وكان الكتاب الذين يلاحقون في بلد ما يستقبلون بحماس في بلد آخر. وبهذا الشكل رأت الكثير من الكتب «الخطرة» النور ثم انتشرت خفية وعلانية في البلدان والمدن الأخرى التي لم تكن تسمح بطبع ونشر مثل هذه الكتب.

وهكذا أصبح طبع الكتب في الخارج أسلوبا معتادا لتجنب الرقابة في تلك البلاد. فالكتب البروتستانتية مثلا التي لا يمكن أن تطبع في البلدان الكاثوليكية، كانت تطبع في البلدان البروتستانتية حيث كان المؤلفون والطابعون يحظون بالدعم المادي والمعنوي. ولدينا مثل جيد يوضح هذا ألا وهو طبع الكتب البروتستانتية في البلدان الكرواتية والسلوفينية خلال القرن السادس عشر في أوراك، بالقرب من توبينغن بألمانيا، ورغنسبورغ وبادوفا ثم نقلها دون تجليد بالبراميل إلى زغرب ولوبليانا وغيرها من المدن. وهكذا كانت الكتب البروتستانتية تطبع لأجل البلدان الكاثوليكية أيضا، حيث كانت ترسل إلى هناك بطرق خفية.

ونظرا لأن الحكام في تلك البلدان الكاثوليكية كانوا عاجزين عن منع طبع هذه الكتب في البلدان البروتستانتية فقد كانوا يعمدون إلى إصدار قرارات المنع والعقوبات لقطع الطريق على انتشار وقراءة هذه الكتب، وقد كان الحكام البروتستانت في وضع مشابه إذ أنهم كانوا يحاولون بدورهم منع تدفق الكتب المعادية التي كانت تطبع حينئذ بأعداد كبيرة في باريس ولوفن وغيرها من المدن الكاثوليكية ثم توزع بطرق خفية غالبا في البلدان البروتستانتية.

7- اختلاق مكان الطباعة واسم الناشر

كان الطابع أو الناشر الذي يغامر بطبع أو نشر كتاب ما لأحد الكتاب المدانين من قبل الكنيسة أو الدولة بسبب أفكارهم أو بطبع أو نشر أحد الكتب التي يعرف مسبقا أنها ستلاحق أو ستمنع لا يضع اسمه ولا يشير إلى المكان الحقيقي للطباعة بل كان يختلق اسما آخر ومكانا آخر لكي يتهرب من العقوبات التي تشمل دون رحمة كل من يطبع أو يصدر مثل هذه الكتب الخطرة. وقد لجأ الكتاب بدورهم أحيانا إلى هذا الأسلوب وذلك بنشر الكتاب تحت اسم آخر «اسم مستعار» أو دون أي اسم على الإطلاق.

ومنذ القرن الخامس عشر أخذت الكتب بهذه المعطيات المختلفة تتزايد

باستمرار، وخاصة خلال القرن الثامن عشر أي خلال الأحداث الثورية العاصفة التي ستغير العلاقات من جذورها في أوربا الإقطاعية.

وكنموذج من القرن السادس عشر يمكن أن نذكر هنا حالة الناشر اللندني ج. تشارلز فورت الذي نشر سنة 1588م كتاب الفيلسوف الإيطالي جوردانو برونو «في الفورات البطولية»، حيث أبرز باريس كمكان للطبع ووضع اسما مختلقا للناشر-أ. بايو. وكان هذا الناشر قد أصدر سابقا (1584م) كتابا «في السبب والمبدأ الواحد» للمؤلف نفسه إلا أنه من باب الحذر وضع فينيسيا كمكان للطبع. وقد كان هذا الحذر في محله طالما أن الأمر كان يتعلق بروح ثائرة كما هي روح برونو. إلا أن هذا التحايل لم يفد برونو بشي لأنه كان يوقع كتبه باسمه الحقيقي. فقد نقمت عليه محكمة التفتيش لأنه في كتاباته ينفي العقائد المسيحية ونادى بالتطابق بين الله والطبيعة، كما تقبل وطور أفكار توبرنيك. وهكذا فقد حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت، بعد تحقيقات مرهقة استمرت سبع سنوات، وأحرق بالفعل في روما سنة 1600م.

ولكن غالبية الكتاب، الذين كانوا في كتاباتهم يمثلون هرطقات مشابهة، أو ما هو أسوأ من ذلك، سلموا من تلطيخ السمعة والسجن والمتاعب الأخرى باللجوء إلى التحايل باستعمال الأسماء المستعارة واختلاق أسماء وهمية للناشرين، وأمكنة وهمية لأماكن الطبع.

إلا أن هذا الأسلوب لم يلجأ إليه جميع الكتاب والناشرين للتهرب فقط من رقابة الكنيسة، أو رقابة الدولة. فقد كان البعض يلجأ إلى هذا الأسلوب لكي يستطيع أن ينتقد بحرية جيرانه، وأن يكشف للرأي العام عن مغامراتهم الشيقة وفضائحهم المالية، وما شابه ذلك.

وهكذا يكفي أن نذكر هنا من بين الأمثلة الكثيرة كتاب الهجاء غريفوريو ليتي «علاقة الحب بين كارلو غونزاغا دوق مانتوا، والكونتيسة مارغريتا ديلا روفر (سنة 1666م) الذي أورد فيه دوبرقنيك «راغوصة» كمكان للطبع مع أن الكتاب قد طبع بالفعل في جنيف. أما المؤلف فقد وضع لنفسه اسما مستعارا «جوليو كابوكودا» لكي ينجو من غضب أولئك الذين وردت أسماؤهم في كتابه».

ويلاحظ في عدد كبير من الكتب، خاصة في القرن الثامن عشر ذكر

مدن وهمية كمكان لطبع هذه الكتب كبيليوبوليس، وكريتيكوبوليس، وأوتوبوليس، وغيرها. وقد ورد في أحد هذه الكتب أنه قد طبع في القدس في مطبعة الملك هيرود، وبالطبع فإن هذا النوع من التحايل كان يفيد الطابعين في المضاربات المختلفة وللتندر مع القراء أكثر مما كان يفيدهم للتهرب من الرقابة. وعلى كل حال فإن كل هذه الفوضى التي خلقها المؤلفون والطابعون والناشرون بذكر معطيات خاطئة ومختلفة في هذه الكتب إنما تثبت عجز الرقابة عن متابعة كل مراحل إنتاج وتوزيع الكتاب.

8- الكفاح في سبيل حرية الطباعة

كانت الفرمانات البابوية الأولى المتعلقة بتطبيق الرقابة على الكتب قد أثارت المقاومة في حينها. وهكذا فقد احتج حينئذ الطابعون في كلن على محاولات البابا إينوسنت الثامن والبابا ألكسندر السادس لتطبيق الرقابة الوقائية على الكتب الدينية وغيرها أيضا.

وقد أخذ المؤلفون الطابعون والناشرون منذ ذلك الحين بتصعيد مقاومتهم ضد رقابة الكنيسة ورقابة الدولة، وذلك بالبحث المتواصل عن أساليب مهذبة لطبع وتوزيع الكتب «الخطرة». ومنذ عصر النهضة نجد عددا من الكتاب يدعون إلى التسامح بين الناس الذين ينتمون إلى أديان مختلفة، ويحملون أفكارا مختلفة، مما كان يسمح بخلق ظروف جديدة للكفاح المكشوف ضد الأسس التي تقوم عليها الرقابة.

وقد أيد بقوة فكرة حرية الطباعة وحرية الكلام حينئذ الشاعر الإنجليزي المعروف جون ملتون بمقاله «حديث حول حرية الطباعة سنة 1644م». ففي هذا النص، الذي يعتبر من أفضل ما كتبه، والذي ولد كرسالة مفتوحة للبرلمان الإنجليزي، بعد أن أصدر سنة 1643م قانونا ينص على تطبيق الرقابة الوقائية، ينتقد ملتون بعنف هذا النوع من الرقابة ومنع الكتب بشكل عام ويرفع إلى مقام القداسة الكتاب والفكر الإنساني الحر. وفي الواقع فقد شق ملتون بهذا المقال الطريق أمام الأفكار المتعلقة بحرية الطباعة والفكر والكلمة التي سترد في «إعلان حقوق الإنسان»، الذي أصدرته الثورة الفرنسية(1789م)، وفي «بيان الاستقلال الأمريكي (1776م)».

لقد ترك مقال ملتون تأثيرا قويا في الأوساط المحبة للحرية في إنجلترا

وفرنسا وأمريكا وغيرها من البلدان. وقد أخذ بعض الكتاب أفكاره وأعادوا صياغة آرائه مما ساهم في خلق الظروف المناسبة لإزالة الرقابة كمؤسسة من مؤسسات الدولة. وهكذا فقد تم التخلص من الرقابة منذ ذلك الحين في بعض البلدان الليبرالية كالسويد سنة(1766م)، والدانمارك سنة(1770م) الخ. وفي هذا الإطار كان من الأهمية بمكان صدور كراس «حول حرية الطباعة» للكاتب الفرنسي المكافح ميرابو في عشية الثورة الفرنسية «لندن سنة 1778م»، حيث نجد هنا كل أفكار ملتون، وقد أخذ بهذه الأفكار أيضا المجلس الشعبي في باريس حين صاغ الحق المتعلق بحرية الكلمة كحق طبيعي لكل مواطن. وقد أصبحت هذه الأفكار بالذات من أهم شعارات الثورة الفرنسية.

د. المؤلفات المرجعية

كان كلما زاد عدد الكتب زادت المشاكل بدورها بالنسبة لعدد كبير من العلماء والرياضيين والجغرافيين والمختصين في كل فرع من فروع المعرفة، الذين كانوا يرغبون بالاطلاع على كل ما يطبع في بلادهم، والبلاد الأخرى من كتب تتعلق بمجالاتهم التي يعملون فيها. ولا شك أن السرعة التي كانت تصل فيها الكتب كانت تساعد على سيولة المعلومات العلمية إلا أن مشكلة الحصول على الكتب الجديدة، وعلى أفكار جديدة بالتالي، أصبحت تتعقد باستمرار نظرا للأعداد الكبيرة من الكتب التي كانت تطبع في مختلف البلدان الأوربية، والتي كان لا بد من الرجوع إليها لمتابعة النتائج العملية الجديدة، والنظريات العلمية الحديثة. فقد كان من الأهمية بمكان لكل باحث علمي أن يعرف جيدا وفورا الإنجازات العلمية الجديدة، ويتعرف أيضا على تطور العلم، والمجتمع بشكل عام.

وبالإضافة إلى العلماء فقد كان الآخرون ممن لهم صلة بالكتاب بشكل أو بآخر يشعرون بالحاجة أيضا إلى المعلومات السريعة والدقيقة. فقد كان أصحاب المكتبات يهتمون بمعرفة الكتب التي صدرت والتي يمكن أن يقدموها لزبائنهم، بينما كان القائمون على المكتبات يريدون أن يكملوا ما عندهم من مجموعات على حين أن هواة الكتب كانوا يريدون أن يشبعوا هوايتهم. وهكذا فقد أدى كل هذا إلى بروز المؤلفات الببليوغرافية، والمؤلفات المرجعية

الأخرى التي توفر مثل هذه المعلومات، فقد اندفع الكتاب لإنجاز قواميس الإعلام، والمؤلفات الببليوغرافية العامة، والخاصة وغيرها من المؤلفات المعجمية المختلفة.

وقد كان لهذه المؤلفات المرجعية تقاليد طويلة إلا أنه بعد اختراع الطباعة، وخاصة منذ القرن السادس عشر، أصبحت هذه المؤلفات وسيلة لا يمكن تجاهلها في العمل اليومي.

ويحتل الألماني يوهان تريتهايم، رئيس دير البنيديكتيين في سبانهاهم بالقرب من مانيس، مكانة سامية في تطور البيو-الببليوغرافيا. فقد استفاد هذا من التقاليد السابقة في هذا المضمار، وأصدر سنة 1494م في بازل كتابه الضخم «كتاب حول المؤلفين الكنسيين» حيث يطرح فيه بشكل زمني متسلسل سير حياة ألف كاتب مسيحي. وفي هذه السير يتعرض أيضا لمؤلفات الكتاب حتى أنه ذكر عناوين 7 آلاف كتاب في عمله هذا. وقد أصدر المؤلف نفسه سنة 1495م كتابا مشابها آخرا بعنوان «الفهرس المصور لرجال ألمانيا».

وقد تابع الكثير من المؤلفين عمل تريتهايم. وهكذا فقد صدر في كافة أرجاء أوربا حتى نهاية القرن الثامن عشر عدد كبير من المؤلفات البيو-ببليوغرافية التي تتعلق بالطرق الدينية، والمهن المختلفة، والشعوب والأقاليم المختلفة، التي كان القارئ في ذلك الوقت يستطيع أن يجد فيها معطيات قيمة عن الكتب التي ألفها مختلف الكتاب، وحتى عن الكتب التي لم تطبع أيضا. ومن الأمثلة الجيدة على هذه المؤلفات البيو-ببليوغرافية لدينا كتاب الدومينيكاني الراغوصي-سرافين ماريا تسرفيتش «المكتبة الراغوصية»، الذي يتضمن سير حياة لـ435 من أعيان راغوصة «دوبروفنيك». ونجد هنا إلى جانب المعطيات البيوغرافية المفصلة معطيات أخرى عن مؤلفات هؤلاء الأعلام سواء ما طبع منها أو ما بقي مخطوطا حتى لحظة تأليف هذا الكتاب.

ومن المثير أن هذا الكتاب لم ير النور إلا خلال سنوات 1975- 1980، حين نشرته أخيرا الأكاديمية اليوغوسلافية للعلوم والفنون في زغرب، إلا أنه كان مع ذلك يستفاد منه كمخطوط على اعتباره أحد أهم مصادر المعلومات عن كتاب راغوصة «دوبروفنيك» وعن العلماء الأفراد المعروفين في هذه

الجمهورية.

في تلك الفترة صدرت في أوربا قواميس كثيرة للأعلام، ويكفي أن نذكر هنا العمل الضخم «مذكرات في خدمة تاريخ مشاهير الرجال»، الذي أصدره الفرنسي ب. ج ينسرون B. J. Niceron في 43 مجلدا خلال (1727-1743م)، و«قاموس الكتاب الألمان» لـ س.ج يهر لايبزغ سنة (1750- 1751م) سنة (1784- 1819م)، الذي لا يزال يتمتع بقيمته إلى اليوم، وغيرها من الأعمال المشابهة.

وقد أصبحت الفهارس، سواء تلك التي كان يصدرها الناشرون أو الفهارس السنوية التي كان تصدر عن معرض فرانكفورت للكتاب، مصدرا مهما للمعلومات الببليوغرافية. وفي الواقع كانت لهذه الفهارس قيمة ببليوغرافية متواصلة إذ أنها كانت تستعرض كل الكتب التي طبعت خلال سنة وعرضت في المعرض.

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات فقد صدرت في القرن السادس عشر الكثير من المؤلفات الببليوغرافية المتخصصة والعامة، التي أصبحت منذ ذلك الوقت أحد المصادر الرئيسية للمعلومات عن الكتب والكتاب والناشرين والطابعين وغيرهم. وفي الواقع أن الفضل في تمييز الببليوغرافيا كزمرة خاصة في إطار المؤلفات المرجعية يعود إلى رجل الإحياء السويسري كونراد فسنر. وكان هذا العالم في الطبيعيات، الذي ترك مؤلفات علمية قيمة في الطب وعلم النبات، وعلم الحيوان، قد اشتغل بجد وانتظام في وضع المؤلفات الببليوغرافية الخاصة «التي تختص مثلا بعلم الأسماك» والعامة أيضا. ومن بين مؤلفاته يتميز عمله «المكتبة الجامعة» الذي نشره في زيوريخ سنة 1545م بأهمية كبيرة. وفي الواقع أن هذا أول مؤلف ببليوغرافي عالمي يحتوي على 12 ألف عنوان. وقد أضاف له فنسر لاحقا «ملحق المكتبة» وطبع هذا العمل مرات عديدة خلال حياته وبعد وفاته.

كان عدد المؤلفات الببلوغرافية يزداد عاما بعد عام. وهكذا فقد كانت تصدر الكثير من هذه المؤلفات التي تغطي المجالات العلمية المختلفة كالطب والحقوق الخ. فخلال القرون اللاحقة «16- 18» كانت كل المجالات العلمية المهمة، وحتى تلك الأقل أهمية كعلم المسكوكات القديمة مثلا، قد أصبحت مبرمجة بالمفهوم البيلوغرافي. ويكفي أن نذكر هنا على سبيل المثال «مكتبة

الكيمياء» لـ بيير بوريل. كل Borel «باريس 1679م». و«مكتبة الحقوق» لـ ليبن Lipen «فرانكفورت 1679م»، و«مكتبة الطب والفيزياء» ك. فإن بوغهم Van Beughem «أمستردام 1681م» وغيرها. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في القرن السابع عشر استعمل لأول مرة تعبير «ببليوغرافيا» على أمثال هذه المؤلفات عوضا عن التسميات الشائعة «مكتبة» و«كنز» و«ملحق» الخ.. وفي الواقع أن تعبير «ببليوغرافيا» بمفهومه الحالي قد استعمله لأول مرة المكتبي المعروف غابرييل نوده G. Node في مؤلفه «الببليوغرافيا الطبية» «فينيسيا 1633م».

وبالاستناد إلى مثل هذه المؤلفات الببليوغرافية يمكن القول إنه في ذلك الوقت كانت المعلومات عن الكتب تتوفر بشكل جيد، وخاصة عن الكتب التي كانت تصدر في أوربا الغربية.

وقد شهد ذلك الوقت أيضا تطور نوع مهم من المؤلفات المرجعية، وهو الموسوعات. فقد أدى تزايد المعارف العلمية واكتشاف البلدان الجديدة وتوسع الاهتمام بتاريخ وثقافة العصر الوسيط في أوربا والنتائج التي أبرزتها دراسة الآثار القديمة إلى بروز الحاجة إلى مؤلفات مرجعية موثوقة توفر للقارئ معلومات سريعة صحيحة. وكانت الموسوعات القديمة من العصر الوسيط بتفسيراتها الساذجة أحيانا، للظواهر الطبيعية والاجتماعية ومعطياتها التي تجاوزها الزمن، أو التاريخ الطبيعي، لـ بلين الذي اعتبر لعدة قرون مصدرا موثوقا للمعلومات الموسوعية، قد أصبحت عاجزة عن إرضاء القارئ في ذلك الوقت.

وهكذا فقد برز منذ القرن السادس عشر، وخاصة منذ القرن الثامن عشر، عدد لا بأس به من الموسوعات المهمة التي جعلت هذا النوع من المؤلفات المرجعية مصدرا لا غنى عنه. وكان تعبير «موسوعة» في حد ذاته قد ظهر لأول مرة في العمل المعنون «الموسوعة أو مختصر جميع العلوم الدينية وغير الدينية» «بازل سنة 1559م» للمغامر الكرواتي بافله سكالتيش، الذي اشتهر لفترة من الزمن بتأييده لحركة الإصلاح الديني. وقد صدر خلال القرن السادس عشر عمل معروف بطابع موسوعي لمؤلف كرواتي آخر، ألا وهو «مفتاح الكتب المقدسة» «بازل سنة 1567م» لأحد زعماء حركة الإصلاح الديني ماتيا فلاتشيتش إيليريك.

ومما يدل على تعطش القراء لهذا النوع من مصادر المعلومات القاموس

التاريخي الكبير لـ لويس موريرL. Moreri الذي صدر سنة 1674م. فقد أعيد طبع هذا القاموس عشرين مرة خلال سنوات (1674- 1759م). وقد تكرر هذا أيضا مع «القاموس التاريخي والنقدي» بيير بيليه P. Bayle الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1697 م في روتردام. فقد أعيد طبع هذا القاموس إحدى عشرة مرة حتى سنوات (1825- 1824م). ويتمتع النصف الثاني للقرن الثامن عشر بأهمية خاصة بالنسبة إلى تطور العمل الموسوعي، إذ ظهرت فيه عدة موسوعات كبرى أسست في الواقع العمل الموسوعي بالمفهوم المعاصر. وعلى رأس هذه الموسوعات لا بد أن نذكر «الموسوعة أو القاموس المنظم في العلوم والفنون والمهن» التي أصدرها الموسوعيون الفرنسيون برئاسة ديدرو ودالبرتين من سنة 1751م إلى سنة 1880م.

وبعد هذه ظهرت موسوعات مشابهة في إنكلترا (الموسوعة البريطانية) المعروفة التي صدرت طبعتها الأولى في ثلاث مجلدات خلال (1768- 1771م) وألمانيا وغيرها من البلدان.

ذ. شكل الكتاب

في العقود الأولى من القرن السادس عشر تحرر الكتاب المطبوع تماما من الكتاب المخطوط وأخذ الشكل الذي حافظ عليه حتى هذا اليوم.

1 - الحجم (القطع)

أخذ الكتاب المطبوع يتميز عن الكتاب المخطوط فيما يتعلق بالحجم أيضا. وقد أشرنا في السابق إلى أن الكتاب المطبوع لم يكن يختلف في البداية عن الكتاب المخطوط، إلا أن الطابعين أخذوا منذ نهاية القرن الخامس عشر يصدرون الكتب بحجم أصغر. ولكن في العقد الثامن بقيت الكتب المطبوعة في الحجم الصغير (الثماني) نادرة، بينما ندرت أيضا تلك الكتب المطبوعة في الحجم الأصغر (السداسي عشر). إلا أن الحجم الثماني أخذ يشيع منذ بداية القرن السادس عشر بفضل الطابع-الناشر البندقي ألدومانوسيو. وكان مانوسيو قد أخذ يطبع الكتب في هذا الحجم منذ سنة 1501م حين أصدر حينئذ أسعار فرجيل. ونظرا لأن هذا الحجم كان أفضل للحمل باليد من الحجم السابق فقد أصبح مرغوبا بسرعة حتى أخذ به

بقية الطابعين-الناشرين.

ومن بين الذين ساهموا في شيوع الحجم الصغير للكتاب آل الزفيير في هولندا، الذين أصدروا في الحجم السداسي عشر سلسلة مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين وغيرها من الأعمال. وكان الهدف من طبع الكتب في هذا الحجم توفير الورق وتقديم الكتب الرخيصة التي يمكن أن يشتريها الكثير من الطلاب في كل بلاد العالم، الذين يدرسون في ليدن والمراكز الجامعية الأخرى. ويعتقد أن السبب الأول-توفير الورق-كان هو الأهم لأن استيراد الورق من فرنسا خلال الحروب الدينية كان قد أصبح صعبا وغير مضمون. وفي هذه الحالة فكر آل الزفيير في أن يطبعوا كتبهم بحروف صغيرة وبحجم صغير لتوفير الورق. ويبدو أنهم بهذا الشكل تمكنوا من خفض نفقات الورق والتكاليف الأخرى للإنتاج إلى 75٪.

وبواسطة هذه العملية تمكن آل الزفيير من طبع عدد كبير من الكتب في الوقت الذي كانت فيه حرب الثلاثين تسبب جمود أو تراجع الإنتاج في ألمانيا وغيرها من البلدان الأوربية. وبالطبع لم تكن كل الكتب حينئذ تصدر في الحجم الصغير. فقد بقيت بعض الكتب كالمؤلفات المختلفة في علم النبات وعلم الحيوان، والأطالس الجغرافية والتوراة، وغير ذلك من المؤلفات الفخمة، تصدر في الحجم الكبير.

2- الغلاف

في القرن السادس عشر أصبح للكتاب أخيرا غلافه الذي يتضمن كل المعطيات التي كانت سابقا في الكولوفون. وقد أخذ الغلاف يتميز منذ نهاية القرن الخامس عشر، ولكن بقي الأمر يحتاج إلى مزيد من الزمن إلى أن أصبح الغلاف جزءا لا يتجزأ من أي كتاب. وقد انتهى هذا الأمر إلى ما هو عليه في كل البلدان في العقد الثالث من القرن السادس عشر.

وأصبح الغلاف فذ القرن الخامس عشر يزين بالرسوم. وقد بادر الطابع البندقي أ. راتدولت إلى تزيين الغلاف بالياقوت على جوانبه، بينما أخذ الرسامون المعروفون يشاركون منذ القرن السادس عشر في تزيين الغلاف برسوماتهم كـ ا. ديرر وهـ. هولباين الشاب، وخاصة في ألمانيا وإيطاليا وهولندا.

في القرن السادس عشر أصبح الغلاف يتضمن بالإضافة إلى اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان الطبع وسنة الطبع بعض المعطيات الأخرى كاسم موزع الكتاب، وبعض الإهداءات الطويلة والتفسيرات المختلفة تحت العنوان، والرسوم التي كانت تزداد غنى مع الوقت، وإشارة الطابع أو إشارة الناشر. وسرعان ما أخذت تظهر على الغلاف رسومات فخمة على شكل مشابه لبعض أجزاء العمارة، وبعض لوحات البورتريه، وموتيفات مختلفة من التوراة. وهكذا فقد أصبح الغلاف في نهاية القرن السادس عشر يغص بالرسوم والمعطيات المختلفة. وفي ذلك الوقت اكتمل أسلوب الباروك الفخم في الغلاف حيث أصبح يتضمن معطيات مفصلة عن المؤلف وعن موضوع الكتاب، وعن راعي الكتاب، وعن الطابع أو الناشر، وحتى استشهادات من مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين، وكل هذا إلى جانب الرسوم الفنية بالأعمدة الكلاسيكية والشخصيات المجازية والمناطق النادرة التي لم يكن لها على الأغلب أية علاقة بموضوع الكتاب.

وعلى الرغم من هذا فقد أخذ الطابعون والناشرون منذ النصف الأول للقرن الثامن عشر، كباكرفيل في بيرمنغن وبودوني في بارما، يعتمدون أغلفة بسيطة لا تتضمن إلا المعطيات الأساسية الكافية لتحديد هوية كتاب ما: اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان وتاريخ الطبع بالإضافة إلى اسم الطابع أو الناشر. وهكذا اكتسب الغلاف حينئذ مظهر البساطة الكلاسيكية الرسمية التي تعبر عن روح الفن الكلاسيكي لذلك الوقت. وقد تمثل هذا بشكل خاص في استعمال نوع جديد من الأحرف، المقروءة بشكل جيد، التي كانت تستلهم النماذج القديمة، وكان كل هذا يتم تحت تأثير الحماس للقديم، الذي برز بشكل خاص بعد الاكتشافات الأثرية في بومبي وهركولانا والمدن القديمة الأخرى في إيطاليا واليونان.

3- تجليد الكتاب

كان امتلاك مكتبة غنية بالكتب المجلدة من قبل أشهر المجلدين، وبشكل يعبر عن مستوى صاحب المكتبة، هو الحلم الذي كان يراود معظم هواة جمع الكتب من الأغنياء والحكام وكل أولئك الذين كانوا يحتاجون للكتاب لكونه أداة للبيت ومؤشرا لثروة صاحبه وقوته السياسية. ولم يكن عدد

هؤلاء قليلا لا في ذلك الوقت ولا في الوقت الذي سبقه. وكان تجليد الكتاب، الذي كان أهم بكثير من موضوع الكتاب، يلقى الكثير من الاهتمام لأنه كان يعبر عن مكانة صاحب الكتاب. وهكذا فقد أصبحت مكتبات هواة جمع الكتب من الأغنياء والحكام تتميز بتجليد الكتب عن مكتبات الآخرين الذين كانوا يشترون الكتب لكي يقرأوها.

وقد كانت هذه المكتبات تتميز أيضا بوجودها في صالات واسعة بنيت خصيصا لها. وعلى كل حال لا يزال لدينا إلى اليوم الكثير من كتب ذلك الوقت التي تأتي قيمتها من شكل تجليدها أكثر من موضوعها.

وحتى في الفترة السابقة لذلك الوقت كان تجليد الكتاب أهم من إنجاز الكتاب نفسه بل هو الأهم على الإطلاق. وهكذا فقد كانت الفترة اللاحقة للنهضة تتسم بتقدير كبير لأعمال بعض المجلدين الذين تمكنوا، بفضل النوعية الراقية لتجليدهم واللمسات التزينية الأصلية من فرض أسلوبهم الخاص في عدة بلدان.

وهكذا فقد اشتهر في إيطاليا أسلوب التجليد الذي اتبعه الطابع والناشر المعروف ألدو مانوسيو. وقد كانت كتبه تجلد في الورشة القائمة إلى جانب مطبعته في فينيسيا، وتتميز عن غيرها من الكتب في ذلك الوقت باستعمال الجلد المغربي والكرتون عوضا عن الخشب. وفي الواقع كانت هذه الورشة قد أخذت استعمال الكرتون من العالم الإسلامي، الذي ترك أثرا كبيرا لدى المجلدين الأوربيين سواء في ذلك الوقت أو في الوقت اللاحق. ويبدو تأثير الشرق أيضا في بعض الرسومات على الجلد التي اقتبستها أولا ورشة مانوسيو ثم شاعت لاحقا لدى بقية المجلدين الأوربيين.

وقد حاول بقية الطابعين-الناشرين في إيطاليا أن يتواصوا إلى أسلوب خاص بهم في التجليد. وقد نجح فعلا في هذا الاتجاه أفراد أسرة جونتا المعروفة، الذين يعتبرون في هذا المضمار ورثة ألدومانوسيو.

أما في فرنسا فقد اشتهر أسلوب التجليد الذي جلدت به كتب أحد أشهر هواة جمع الكتب في ذلك الوقت، جان فروليه سنة (1479- 1565م). وكان هذا قد أعطى كل كتبه (حوالي ثلاثة آلاف كتاب) لكي تجلد في فرنسا وإيطاليا بالجلد المزين بنقوش هندسية بسيطة. ولكن في الكتب الأخرى، التي جلدت لغروليه، تبدو التأثيرات العربية (الأرابسك). وهذه

الأخيرة تعتبر من أجمل الكتب المجلدة في الفترة التي أعقبت النهضة الأوربية.

وقد أخذ أيضا بقية هواة جمع الكتب في فرنسا يوصون على أثمن وأفخم تجليد ممكن. ومن هؤلاء كان الملوك الفرنسيون، الذين كانوا يستقدمون للعمل لديهم مختلف المجلدين. وهكذا فقد كانت الكتب المجلدة للملك فرانسوا الأول تتميز بالشارة الملكية في الوسط، وبعض الزخارف على شكل ضفائر، وبعض الأشكال الهندسية مع حرف (ف) على سطح الجلد. وقد تابع خلفاؤه، والكثير من هواة جمع الكتب، هذا التقليد بالتوصية على أفخم تجليد للكتب.

ونظرا لهذه التوصيات، التي تعبر عن غنى أصحابها وعن ذوقهم الرفيع، فقد أصبحت فرنسا لفترة طويلة البلد الذي ينتج أجمل الكتب المجلدة في أوربا.

وقد برزت في ألمانيا منذ العقد الثامن للقرن الخامس عشر تقنية جديدة لزخرفة الكتب المجلدة بواسطة القرص الدائري، الذي كانت تنقش عليه رسوم وأشكال هندسية مختلفة. وهكذا فقد كان المجلد الألماني يدور القرص على الجلد الرطب لتظهر عليه الرسوم والأشكال المختلفة، ثم يكرر العملية على كتب أخرى. أما المنطقة المركزية من الغلاف المجلد فقد كانت تزخرف بالموتيفات المأخوذة من التوراة وذلك بواسطة الضغط بالألواح. وخلال مرحلة الإصلاح الديني أصبحت هذه المنطقة المركزية على الغالب تزخرف بصور لوثر وغيره من زعماء حركة الإصلاح وبعض الشخصيات الأخرى. وقد اشتهر هنا خلال النصف الثاني للقرن السادس عشر المجلد يعقوب كرواس من أوغسبرغ، الذي كان يعمل غالبا لأسرة فوغر المصرفية وللأمير الساسي المنتخب أوغسطين. وفي الواقع أن أسلوبه الفخم في الزخرفة كان تحت تأثير المجلدين الإيطاليين، ولكن يبدو فيه أيضا تأثير الزخرفة الشرقية. وهناك من يعتقد أن الكتب التي جلدها كانت من أجمل الكتب المجلدة في أوربا بعد النهضة.

لقد كان في مختلف أرجاء أوربا حينئذ الكثير من هواة جمع الكتب، وهواة تقليد الآخرين والحكام-الذين يحتاجون للكتب للتدليل أمام ضيوفهم على مركزهم الاقتصادي والسياسي أيضا. ولذلك فقد عرف فن التجليد

حينئذ ازدهارا عظيما. ففي إنكلترا وأسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية فقد كان كل من يملك القدرة على تكوين مكتبات فخمة يوصي ورش التجليد على نمط خاص من التجليد يختلف عن نمط جاره أو منافسه. ولهذا فقد أصبح من السهل تحديد هوية أصحاب الكتب بالاستناد إلى أسلوب التجليد.

وبالطبع لم تكن تلك النسخ من الكتاب المجلد بشكل فخم لصالح هواة جمع الكتب كثيرة. فقد كانت أغلبية النسخ يجلدها الناشرون بأسلوب بسيط، لا يتميز إلا ببعض الزخارف البسيطة، بينما كان بعض الأفراد يعمدون إلى تجليد الكتاب بكرتون عادي نظرا لقدرتهم المادية المحدودة. أما الكتب التي كانت توجه للجمهور العريض، كالروايات الشعبية والتقاويم وما شابه ذلك، فقد كانت أغلفتها على الغالب من الورق العادي.

4- فن تزيين الكتب

في القرن السادس عشر أصبح تزيين الكتب بالرسوم أمرا شائعا فقد أصبح على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لبعض الكتب، كالكتب المتعلقة بعلم النبات وعلم الحيوان والفلك وكتب الرحلات وكتب الوقائع الخ.

وقد كثرت الصفحات الأولى المزينة بشكل فخم بالرسوم، والحروف الأولى في النصوص والجداول الخاصة. وهكذا فقد انشغلت أعداد كبيرة من الحرفيين والفنانين في صنع القوالب المنقوشة من الخشب أو النحاس، ولذلك أصبح فن تزيين الكتب بالرسوم يعتبر بحق أحد العناصر المهمة للفن التشكيلي في ذلك الوقت.

وقد رأينا سابقا كيف أنه بعد اختراع الطباعة في ألمانيا أخذت تنقش الرسوم على القوالب التي كانت تطبع في نفس الوقت مع النص. إلا أن هذه التقنية كانت تستخدم لنوع محدد من الكتب، ألا وهي الكتب الموجهة للجمهور العريض. وهكذا فقد استمر إنجاز الرسوم باليد للكتب التي كانت توجه لهواة جمع الكتب والحكام وأولئك الذين كانوا يملكون المال لكي يدفعوا للفنانين الذين ينجزون الرسوم الخاصة بمثل هذه الكتب. ومن بين الفنانين الكثيرين الذين اختصوا بتزيين الكتب بالمنمنمات اشتهر الرسام الكرواتي يوليه كلوفيتش (Giulio Clovio) الذي أطلق عليه الرسام والكاتب الإيطالي المعروف جورجو قازاري لقب «ميكل إنجلو المنمنمات» ولكن مع تطور تقنية

طبع الرسوم فقد أخذ يتراجع تدرجيا العمل البطيء والمكلف لتزيين الكتب بالمنمنمات.

وكانت الكتب على الأغلب تزين بالرسوم بواسطة القوالب الخشبية وذلك حتى منتصف القرن السادس عشر. وحتى ذلك الحين كانت تقنية صنع هذه القوالب الخشبية قد بقيت كما كانت سابقا: فقد كانت الرسوم تنقش بأداة حادة على اللوح الخشبي ثم تطلى الأجزاء البارزة بالحبر المطبعي لتظهر على الورق الرسوم المنقوشة. وكان القالب الخشبي يطبع على الورق مع النص، الذي كان بحروف بارزة أيضا (وهو ما يسمى بأسلوب الطبع البارز). أما مع النحاس فقد كان العمل يختلف بالنسبة إلى الطابعين إذ أن الرسوم كان تحفر على النحاس في هذه الحالة. وهكذا فقد كانت الأجزاء المحفورة تملئ بالحبر المطبعي ثم يتم الضغط بقوة كبيرة على اللوح النحاسي لكي تظهر الرسوم على الورق. وفي هذه الحالة لم يكن بوسع الطابع أن يطبع هذه الرسوم مع الأحرف المصفوفة وكان ذلك يعيقه في العمل. وعلى الرغم من ذلك فقد ازداد استعمال هذه التقنية مع مرور الوقت لأنها كانت تضمن طبع الرسوم بشكل ممتاز.

وفي الواقع أن تقنية الطبع بالألواح النحاسية لها تقاليدها في أوربا وآسيا. فقد استعملت في أوربا لتزيين الكتب منذ 1477م، حين صدر في بولونيا كتاب «الكوزموغرافيا»(*) لـ دومينيكولابي الذي أعد قوالبه النحاسية تاديا كريفل. ومع هذا فقد تأخر انتشار استعمال هذه التقنية حتى منتصف القرن السادس عشر، حين انتشرت منذ ذلك الوقت بفضل الطابع الهولندي الكبير بلانتين. وقد انتقلت هذه التقنية لاحقا إلى البلدان الأوربية الأخرى، كما في ألمانيا، حيث برز أعظم فنان في هذا المضمار ألا وهو البرخت ديرر A. Durer وبعد هذا أصبحت هذه التقنية تستخدم لتزيين الكتب الكبيرة والثمينة كـ«المسرح الأوربي» الذي طبعته في فرانكفورت أسرة ماريان في واحد وعشرين مجلدا خلال سنة (1635- 1738م). وفي الواقع فقد كان الكتاب عبارة عن وقائع مصورة لأهم الأحداث الجارية في أوربا. وسرعان ما أصبحت القوالب النحاسية تستعمل لطبع الخرائط الجغرافية ومناظر

(*) الكوزموغرافيا: Cosmografia وصف عام للكون أو العلم الذي يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام وهو يشمل علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا. (المترجم).

المدن وكتب العمارة وعلم الآثار الخ. وإلى جانب البرخت ديرر لا بد أن نذكر هنا غورتشين Guercin وكارافاجو Caravaggio وسلفادور روسا S. Rosa وغيرهم

حفر على الخشب د. أ فون وردت في سنة 1676 يبين مطبعة حديثة في جنوب ألمانيا.

الذين حققوا نجاحا كبيرا في إيطاليا بممارسة النقش على النحاس. وقد مارس هذه المهنة أيضا رمبرانت في هولندا وكايو في فيرنسا وغيرهم.

أما فن الباروك (الذي تطور أولا في إيطاليا في النصف الثاني للقرن السادس عشر) فقد ترك في فن تزيين الكتب فخامة لا مبرر لها في زخرفة الأغلفة. فأصبحت الأغلفة تتضمن شخصيات ميثولوجية وقديمة وعناصر معمارية وأحجار كريمة الخ، بينما أصبحت العناوين طويلة ومثقلة بتفسيرات ومعطيات غير لازمة، بعد أن كانت واضحة وبسيطة، ومطبوعة على الغالب بحروف متباينة الأحجام. وقد كان كل هذا يخلق الانطباع بالثقل والغموض، إلا أن هذه الأغلفة على الأغلب كانت بعيدة عن الفن وبعيدة عن الطابع العملي. وقد ساد هذا الأسلوب خلال القرن السابع عشر، على حين أننا نجد خلال القرن الثامن عشر وتحت التأثير السطحي والزائد لروكوكو، الذي يعكس أيضا أسلوب التفكير والتصرف لدى الأوساط الحاكمة، طغيان النقوش في بداية فصول الكتب أو في ختامها والزخارف والمشاهد الأيروتيكية وبعض المشاهد من الحياة الكريمة. وقد ذهب الفرنسيون بهذا الفن إلى حد الكمال وقلدهم الآخرون بنفس الحماس الذي كانوا يقلدون فيه كل ما كان يأتي حينئذ من باريس.

وعلى الرغم من هذا لم يتوقف فن تزيين الكتب عند هذا الحد. فقد تطور حينئذ إلى حد الكمال تزيين الكتب العلمية (كعلوم الطبيعة) والجغرافيا وغيرها ويكفي أن نذكر هنا «الموسوعة» الخالدة لديدرو، التي صدرت في 35 مجلدا (مع الملاحق) خلال سنة(1751- 1780م)، حيث نجد جداول مصورة في 13 مجلدا. ففي هذه الجداول تبرز كل الصناعات والآلات المختلفة والأعمال الفنية والآثار التاريخية وغيرها. ومن ناحية أخرى نجد أن كتاب «التاريخ الطبيعي» لعالم الطبيعيات بيفون، الذي صدر في 36 مجلدا خلال سنة (1749- 1788م) يتضمن عددا كبيرا من اللوحات الفنية الدقيقة للطيور والحيوانات. وفي ذلك الوقت اشتهرت أيضا بعض الكتب التي تضمنت لوحات للمدن والأمكنة البعيدة. ولا بد هنا أن نذكر علامة لوبليانا يوهان ف. فالفاسور J. Valvasor، الذي أقام مطبعة في قصره بالقرب من ليتيا Litia حيث طبع خلال سنة (1678- 1689م) عددا من الكتب بمساعدة الكثير من الرسامين والفنانين المتخصصين في النقش على النحاس. ومن أهم

كتبه التي طبعها يأتي «شرف دوقية كراين» (سنة 1689م)، الذي يتضمن لوحات كثيرة للمدن القديمة. ومن ناحية أخرى فقد طبع الكرواتي بافاوريتر فيتزوفيتش الذي عمل فترة من الزمن لدى فالسافور، في فيينا سنة (1701م) «كتاب الشعارات» Stemmatographia، الذي عرض فيه نماذج دقيقة وجميلة من المناطق الإليرية (الكرواتية). وفي الواقع لقد كانت الرسوم في الكثير من الكتب تأخذ أهمية النص نفسه. فقد كان القراء يرغبون أن يجدوا فيما يشترونه من الكتب أكبر عدد من اللوحات والخرائط، إذ كانوا يرغبون في التعرف على منظر بلد بعيد أو رؤية الفارس وهو يهاجم عدوه، أو كيف يبدو شكل شخصية ما من الشخصيات المهمة أو أثر من الآثار، أو أن يروا شكل حيوان أو نبات يرد ذكره في النص. وفي بعض الأحيان كان التواصل البصري أهم بكثير من القراءة. ونتيجة لهذا فقد تمكن الناشرون والطابعون بمساعدة الرسامين والحرفيين الماهرين من إرضاء فضول القراء بواسطة الإكثار من الرسوم الجيدة في الكتب.

ولكن في النصف الثاني للقرن الثامن عشر عادت إلى الموضة ثانية القوالب الخشبية وفي الواقع أن الفضل في هذا يعود إلى الإنكليزي توماس بويك سنة (1753- 1828م)، الذي كان قد فاز بأفضل نقش على الخشب في المسابقة التي نظمتها «الجمعية الملكية» في لندن سنة 1771م. وقد أعد بويك حينئذ القوالب الخشبية ليطبع بها كتاب «تاريخ الطيور البريطانية» الذي صدر سنة 1809م. وبهذا الكتاب استردت القوالب الخشبية اعتبارها وقدمت خلال القرن التاسع عشر إنجازات رائعة.

وخلال ذلك الوقت تطور فن تزيين الكتب تطورا كبيرا في الشرق الأقصى وخاصة في اليابان. وكانت اليابان تشهد حينئذ عصرها الذهبي خلال مرحلة السلم الداخلي التي استمرت أكثر من قرنين ونصف، وبالتحديد من بداية القرن السابع عشر والنصف الثاني للقرن التاسع عشر. وتعرف هذه المرحلة في التاريخ السياسي لليابان باسم «إدو» Edo وذلك حسب اسم العاصمة الجديدة لإمبراطورية إدو (طوكيو حاليا).

وقد وصل فن تزيين الكتب إلى أعلى قمته في اليابان بالذات، بالمقارنة مع المرحلة السابقة، حين كان نشاط الطباعة والنشر محصورا في أيدي رجال الدين البوذيين، نجد أن مرحلة إدو تتميز بإنتاج فني ومتنوع للكتب

غير الدينية. وفي السابق كان اليابانيون يتناقلون بالمشافهة حكاياتهم وقصصهم التاريخية وأساطيرهم وإبداعاتهم الأخرى، وكانت الكتب التي تحتوي على هذه الأمور تنسخ أحيانا وتطبع نادرا. وحتى في هذه الحالة فقد كانت هذه الكتب تطبع في عدد محدود من النسخ بحيث لا تصل إلا إلى عدد قليل من القراء.

أما في مرحلة إدو فقد كان القسم الأكبر من الكتب المطبوعة تنتمي إلى الأدب الشعبي.

وهكذا كانت هذه الكتب تتضمن قصص الحب، وحتى القصص الإيروتيكية التي تصاحبها رسوم غنية، والقص التي تتحدث عن الرحلات البعيدة والقصص الشعبية القديمة من الماضي الميثولوجي السحيق. وقد زينت بالرسوم كل هذه الكتب بواسطة فنانون ممتازون. ومن أشهر هؤلاء الفنانين مورونوبو، الذي زين برسومه أكثر من مائة وخمسين كتابا. وقد كانت الرسوم تطبع حينئذ بواسطة القوالب الخشبية باللونين الأسود والأبيض، ألا أن بعضها لونت بألوان أخرى في وقت لاحق.

وقد ازداد منذ منتصف القرن الثامن عشر طبع الرسوم الملونة بواسطة القوالب الخشبية بينما برز في نهاية ذلك القرن أعظم فنان في هذا المجال-هارونوبو. وفي الواقع أن بعض الكتب المزينة بالرسوم في النصف الثاني للقرن الثامن عشر تعتبر من أجمل الكتب على المستوى العالمي ومن بين هذه الكتب لا بد أن نذكر «مرآة زوجة يوشيوار الجميلة» (سنة 1776م) برسوماته الجميلة الملونة التي أعد قوالبها الخشبية الفنانان شونشو وشيغماسا.

وكان الفنانون اليابانيون يرسمون في لوحاتهم مشاهد من الحياة اليومية ومناظر العالم الخيالي للحكايات بالإضافة إلى مشاهد من الطبيعة. وكان أعظم من أبرز جمال الطبيعة اليابانية هوكوساي سنة (1760- 1849م)، الذي تميز بإنتاجه الغزير إذ يقال بأنه زين حوالي 500 كتاب برسوماته. ويشعر المرء في رسوماته بتأثير الغرب إذ أنه بهذه الرسوم يبدأ غروب الفن التقليدي الياباني في تزيين الكتب، ومن المعروف أن رسوم هذا الفنان تركت تأثيرا قويا حين وصلت إلى أوربا في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، إذ أنها أثرت بشكل قوى على فن الانطباعيين الفرنسيين.

ر- المكتبات

كان التطور الاقتصادي والثقافي والتكنولوجي، الذي بدأ في أوربا في نهاية العصر الوسيط وخلال النهضة قد استمر بقوة في القرون اللاحقة. فقد وسع العلم، الذي بقي فترة طويلة محصورا في التراث الذي خلفه المفكرون اليونانيون والرومانيون، من دائرة اهتمامه ليشمل مجالات جديدة غير معروفة حتى ذلك الحين مما ساهم كثيرا في خلق أساس جديد لأوربا أخرى. وهكذا فقد ردم غاليلو وكوبرنيك ونيوتن ولينيو وغيرهم من العلماء العظام ما تجمع خلال قرون من خرافات حول الفضاء، والعالم الذي يحيط بالإنسان، وحول الإنسان ذاته. فقد أطلق الفلكي البولوني نيقولا كوبرنيك أخيرا بكتابه العظيم «حول حركة الأجرام السماوية» الذي ألفه سنة 1535م وتأخر صدوره حتى سنة 1543م، الثورة العلمية التي ستؤدي إلى تطور لا مثيل له لعلوم الطبيعة والاستفادة من هذه العلوم في الحياة العملية، مما مهد هذا للثورة الصناعية في النصف الثاني للقرن الثامن عشر.

وفي هذه الحالة لم يعد الكتاب كما كان في السابق هدفا للفخامة ولإبراز المكانة بل أصبح عنصرا لا غنى عنه للتطور، بينما أصبحت المكتبات الفنية والمنظمة تقوم بدور مهم في تطور العلم والثقافة والمجتمع بشكل عام.

وهكذا فإن الفترة التي شهدت ولادة أوربا الحديثة هي ذاتها الفترة التي شهدت تأسيس المكتبات العلمية الكبيرة والمكتبات الأخرى. وليس من المصادفة أن تشهد هذه الفترة تأسيس أكبر عدد من المكتبات الوطنية والجامعية. وفي تلك الفترة أيضا صدرت المؤلفات الوجيزة الأولى حول تنظيم المكتبات، حيث نجد فيها مفاهيم واضحة حول دور الكتاب والمكتبات في المجتمع بشكل عام. وفي الواقع لقد كانت هناك صلة متبادلة بين التقدم العلمي ووجود المكتبات المنظمة، وتعتبر هذه الفترة التاريخية أفضل دليل على هذه الصلة.

لقد كان العدد الكبير من الكتب التي تطبع في كافة أرجاء أوربا، والنشاط المتزايد في تأليف المؤلفات المرجعية (المؤلفات الببليوغرافية الخاصة والعامة، والموسوعات، وقواميس الأعلام) والشبكة الجيدة لتوزيع الكتاب التي كانت تؤمن وصوله على الرغم من رقابة الدولة والكنيسة، يسهل لهواة جميع

الكتب ومدراء البلديات والجامعات وأصحاب المكتبات أن يأخذوا كل ما يحتاجونه سواء من الكتب العلمية أو من الكتب الأدبية، وقد دفع الطلب على الكتاب بالطابعين والناشرين إلى أن يصدروا أكبر عدد من الكتب في مجالات مختلفة. وفي هذه الظروف المناسبة عرفت المكتبات الأوربية في ذلك الوقت ازدهارا عظيما. فقد ظهرت حينئذ المكتبات في كل المراكز الثقافية الكبيرة بتمويل من رعاة الأدب والعلم. أما المكتبات التي كانت موجودة فقد ازدهرت بسرعة بالكتب الجديدة وفتحت أبوابها لدائرة أوسع من القراء، مما جعلها عاملا فعالا في التطور الثقافي.

وفي مجال المكتبات كانت ألمانيا هي السباقة حينئذ، إذ أنها كانت في ذلك الوقت أغنى بلد أوري يتسابق فيه الأمراء ومجالس المدن والجامعات وهواة جمع الكتب على إغناء وتوسيع المكتبات. إلا أن حركة الإصلاح والحروب الدينية التي حدثت ألحقت خسائر كبيرة بمكتبات الأديرة والمكتبات الأخرى، ودمرت كنزا لا يقدر بثمن من المخطوطات القديمة.

ومع ذلك فقد قدر حينئذ لكثير من المخطوطات والكتب القديمة أن تنجو وأن تجد ملجأ أمينا في المكتبات الجديدة التي أسست في القرن السادس عشر. ولكن الرغبة في التألق والفخفخة والتمجيد الفارغ، تلك التي تصاحب دائما كل ثقافة، شملت حينئذ الكثير من الأمراء، وهواة جمع الكتب في ألمانيا. إلا أن عدد أولئك الذين يقدرون موضوع الكتاب قبل غلافه كان في ازدياد مستمر. وفي الواقع فقد ازداد عدد أولئك الذين يتبنون فكرة الكاردينال المعروف بساريون، التي صاغها سنة 1468م في رسالة إلى دوق فينيسيا كريستوفر مور حول قراره بإهداء مكتبته للمدينة: «لا تجمع الكثير من الكتب بل أفضل الكتب».

ومن الحكام الذين كانوا يهتمون في الدرجة الأولى بتجليد الكتاب ورسوماته أكثر من قيمته العملية الإمبراطور الروماني-الألماني مكسيمليان سنة (1459- 1519م)، الذي كان حاكما طموحا ومكافحا وحاميا في الوقت ذاته للكثير من رجال الإحياء. وقد جند هذا الإمبراطور لمكتبته الملكية أشهر الفنانين في ذلك الوقت كـ البرخت ديرر ولوكاس وكراناخ سنيور وغيرهم وذلك لتزيين كتبه بالرسوم المختلفة. وكغيره من حكام ذلك الوقت فقد جعل مكسيمليان المكتبة الملكية وسيلة لإبراز مجده بحيث أنه كان يقلد

ورشة لتجليد الكتب، من كتاب: Encyclopedie, ou dictionnaire raisonne [...] 3. izd. Livourne 1776.

الحكام وهواة جمع الكتب الذين كانوا يجمعون الكتب لإبراز مكانتهم أمام الضيوف في الدرجة الأولى. وفي الواقع لم يشأ مكسيمليان ولم يستطع أن يفهم، كغيره من الحكام في ألمانيا وغيرها من البلدان، كما كان قد فهمه الكاردينال بساريون من أن الكتاب هو في الدرجة الأولى مصدر للمعلومات العلمية والغايات الفنية وفي الدرجة الثانية هدف للاستعراض.

إلا أن أكثرية الأمراء الألمان وهواة جمع الكتب لم تتابع الإمبراطور مكسيمليان في القرون اللاحقة (ق16- 18) بل كانت تهتم بموضوع الكتاب في الدرجة الأولى. ومن هنا فقد كانت المكتبات التي أسسها ومولها هؤلاء تتناسب مع المفاهيم الجديدة حول أهمية الكتاب والمكتبات في المجتمع. ومن هؤلاء على سبيل المثال كان الأمير الساسي فريدريك الثالث سنة (1486- 1525م) الذي أسس سنة 1502م الجامعة القائمة في فرتنبرغ، ثم أسس لاحقا المكتبة العامة التي استفاد منها الكثير من رجال الإحياء-وحتى لوثر وملانهتون وغيرهم من زعماء حركة الإصلاح. الذين كانوا ينشطون في تلك المدينة. وقد أراد الأمير حينئذ أن يزود هذه المكتبة بالكتب من كل مجالات المعرفة الإنسانية، ولذلك فقد توجه سنة 1512م إلى الطابع والناشر المعروف الدومانوسيو ليطلب منه ما لديه من قوائم للكتب.

ومن ناحية أخرى فقد أسس البرخت أمير بروسيا مكتبتين في كينغسبرغ.

وقد خصص الأولى، التي كانت تحوي سنة 1540م على حوالي 1500 من الكتب الثمينة، للمثقفين من كينغسبرغ وبروسيا الشرقية، بينما أسس المكتبة الأخرى في قصره لأجله ولأجل زوجته. وقد دعيت حينئذ هذه المكتبة بـ«المكتبة الفضية» لأنه كان يوصي بتغليف الكتب بشرائح من الفضة.

أما في ميونيخ فقد أسس المكتبة الملكية تميها دوق بافاريا ألبرخت الخامس سنة 1558م. ولأجل هذا فقد اشترى الدوق حينئذ عدة مكتبات خاصة، كمكتبة ج. أفيدمان ستيتر وهارتمان وج. ج. وفغر.

وقد تابع خلفاء هذا الأمير إغناء المكتبة بالكتب الجديدة، إلا أنها توسعت بشكل خاص في بداية القرن التاسع عشر سنة(1802 و 1803- 1856م) حين ضمت إليها كتب 150 مكتبة من مكتبات الأديرة في ألمانيا. ومن هنا فقد كانت هذه المكتبة وبقيت إلى اليوم (الآن مكتبة الدولة في بافاريا) أغنى مكتبة في ألمانيا.

ومن بين هواة جمع الكتب في ألمانيا لا بد أن نذكر الأمير الساسي أوغست سنة (1526- 1586م) الذي أراد أن ينافس بمكتبته الملكية في درسدن المكتبة الملكية في ميونيخ. ففي سنة 1685م كانت هذه المكتبة تحوي 2300 مجلد، التي جلدت معظمها لدى المجلد المعروف يعقوب كراوس في أوغسبرغ.

أما (مكتبة البلاط) المعروفة في هايدلبرغ، التي كانت تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية في مجال اللغة الألمانية بعد (المكتبة الملكية) في فيينا، فقد تعرضت لمصير محزن حين سقطت في أيدي الجيش البافاري خلال حرب الثلاثين سنة(1622م). فقد قرر الإمبراطور مكسيميليان، زعيم التحالف الكاثوليكي الذي آلت إليه المكتبة كغنيمة حسب قوانين الحرب، أن يهدي هذه المكتبة الغنية بالمخطوطات النادرة إلى البابا غريغور الخامس عشر اعترافا منه بالجميل للتأييد الذي تلقاه من روما. وهكذا فقد وصلت إلى مكتبة الفاتيكان أكثر وأهم كتب هذه المكتبة، بينما لم يبق في هايدلبرغ إلا بعض الكتب التي انتقلت بدورها إلى المكتبة الجامعية في المدينة. وقد ترك لنا أمين مكتبة الفاتيكان ليون ألاتشي، الذي كلف بمهمة نقل الكتب من هايدلبرغ إلى روما، تقريرا مذهلا يصف فيه بالتفصيل رحلته هذه وهكذا نرى هنا كيف وصل إلى هايدلبرغ وكيف رزم وحمل الكتب في خمسين عربة، وماذا عانى في الطريق في حراسة ستين جنديا وحين وصل

أولا إلى ميونيخ، حيث وضع الكتب ثانية في 196 صندوقا على ظهور البغال التي عبرتها جبال الألب إلى روما. وقد اغتنت مكتبة الفاتيكان بفضل هذه الثروة بـ 3500 مخطوط، منها 435 باللغة اليونانية و289 بالعبرية و846 بالألمانية و318 بالفرنسية. وفي الواقع لقد كانت هذه بالنسبة لألمانيا أكبر خسارة في التاريخ الطويل للمكتبات الألمانية. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه جرت محاولات كثيرة لإعادة هذه المخطوطات إلى هايدلبرغ إلا أنها لم تثمر شيئا باستثناء إعادة المخطوطات الألمانية القديمة بعد مؤتمر فيينا-أي في مطلع القرن التاسع عشر.

إلا أن أضرار حرب الثلاثين لم تقتصر على هذه المكتبة. فقد استفاد من هذه الحرب كثيرا، الملك السويدي غوستاف أدولف الثاني الذي تدخل في هذه الحرب الدينية الدائرة في ألمانيا وتوغل بجيشه حتى ألمانيا الجنوبية سنة (1630- 1633م). وخلال هذا التوغل عمد الملك السويدي إلى نهب معظم مكتبات الأديرة والمكتبات الأخرى (فيرزبرغ، مانيس الخ) وأرسل كتبها كغنيمة حرب إلى المكتبة الجامعية في أوبسالا على الأغلب، وإلى مكتبة ستوكهولم وغيرها من المكتبات السويدية.

ومن المكتبات الألمانية التي نالت شهرة كبيرة كانت «المكتبة الأميرية» في مدينة فولفن بيتل بإقليم براون شفايغ، التي أسسها سنة 1572م يوليوس دون براون شفايغ. إلا أن هذه المكتبة انتقلت في وقت لاحق إلى المدينة الجامعية القريبة هلمستد.

ولذلك فقد أسست مرة أخرى من قبل الدوق أوغست الصغير سنة 1644م. وقد نقل إليها حينئذ هذا الأمير مكتبة بلاط هيتساكر، وعرفت هذه المكتبة باسمه حتى الآن (مكتب الأمير أوغست). وبفضل التحويل والاهتمام الشخصي للأمير، الذي شارك بنفسه في تنظيم المكتبة (أنجز الفهرس الألفبائي في 4000 صفحة)، فقد تطورت هذه المكتبة بسرعة وأصبحت واحدة من أكبر المكتبات في ألمانيا ففي سنة 1661م وصل عدد المجلدات فيها إلى 160 ألف، مما جعلها تتفوق على الكثير من المكتبات الألمانية والأوربية في ذلك الوقت. وبالنسبة إلى هذه المكتبة، ولعلم المكتبات في أوربا بشكل عام، فقد كان من الأهمية بمكان العمل الذي مارسه فيها الفيلسوف والمؤرخ والرياضي المعروف غوتغريد فيلهلم لايبنيس سنة (1646-

1716م). وكان هذا يعمل أمينا لـ(المكتبة الملكية) في هانوفر إلى أن استدعاه إلى فولفن بتيل سنة 1691م الدوق المحلي أنطون أولريخ، حيث بقي هنا أمينا للمكتبة حتى وفاته.

وكان لايبنيس قد تأثر كثيرا بزيارة «المكتبة الملكية» في باريس وقراءة كتاب «توجيهات لتنظيم المكتبة» للعالم المتخصص في المكتبات غابرييل نوديه. وفي الواقع فقد كان لايبنيس كنوديه يعتقد أن المكتبة يجب أن تكون في خدمة العلم. فقد كان لايبنيس قد خبر بنفسه ضيق أفق الكثير من أصحاب المكتبات الملكية والمكتبات الأخرى، وخاصة ضيق أفق أمناء المكتبات الذين حاولوا أكثر من مرة منعه من الاستفادة من المكتبات التي يعملون فيها. ومن هنا فقد كان لايبنيس يدعو إلى أن تكون المكتبات مفتوحة أمام كل الناس المتعلمين.

وقد طبق بالفعل لايبنيس فكرته خلال عمله في فولفن بتيل وذلك بأن تكون المكتبة عامة للجميع. وقد حرص حينئذ على وضع فهرس جيد وذلك لتسهيل الاستفادة من الكتب. وقد كان لايبنيس من أنصار الفهرس الألفبائي، وقد حظيت مكتبة فولفن بيتيل على فهرس من هذا النوع بفضله. ولم يكتف لايبنيس بذلك بل وضع فهرسا آخرا حسب المواضيع، كما وضع تصنيفه الخاص لحاجات هذه المكتبة.

وتدل الرسائل التي كان يوجها لايبنيس إلى الدوق على ضرورة توفير مصادر مالية دائمة لشراء الكتب الجديدة، ومراسلاته مع أصحاب المكتبات والناس المتعلمين على سعة مفاهيمه حول مكانة المكتبات في المجتمع، وحول أهمية الاستفادة من الكتب في المكتبات دون تقييد، وحول أهمية الكتب كمصادر للمعلومات العلمية. وليس هناك من شك في أن لايبنيس كان من الشخصيات النادرة في عصره التي كانت تدرك أهمية وجود المكتبات الغنية والمنظمة والمفتوحة للجميع في تطور المجتمع. وقد طرح لايبنيس حينئذ أفكاره حول هذه القضية في مقالته المعنونة «تأملات حول الأسلوب الأفضل لإصلاح المكتبات».

وخلال عمله في فولفن بيتيل شيد بناء ضخما للمكتبة خلال سنة (1706- 1715م) على شكل بيضاوي مع قبة ضخمة على نمط البانتيون في روما القديمة. وقد كان هذا أول بناء يشيد خصيصا لمكتبة ما في أوربا منذ

العصر القديم. وقد شيدت لاحقا على نمطه أبنية أخرى للمكتبات في ألمانيا وقد ضمت إلى هذه المكتبات مجموعات كبيرة من الكتب، كمجموعة رجل الإصلاح والمنظر والمؤرخ الكرواتي ماتيا فلاتشيتش إيليريك. وفي الواقع لقد كانت هذه المجموعة تضم أثمن المخطوطات التي جمعها صاحبها من مختلف الأديرة الألمانية. وقد اشترى هذه المجموعة سنة 1597م الدوق هاينريخ يوليوس مقابل 1595 تاليرة ونصف لكي يضمها إلى مكتبته الملكية.

وخلال سنوات (1770- 1781م) وجد على رأس هذه المكتبة اسم آخر مشهور في الثقافة الألمانية، إلا وهو الكاتب غوتولد أفرايم لسينغ، إلا أن عمله لم يفد المكتبة بشيء مع ذلك. وقد انتقده معاصره غوته حينئذ، كما لم يقصر في انتقاده كأمين للمكتبة بقية معاصريه. وقد كان لسينغ يرد على منتقديه حول لامبالاته كأمين للمكتبة بقوله: «لست كلبا لحراسة العلف». وفي الواقع إن هذه العبارة وبقية العبارات التي كان يستخدمها تعبر عن موقف الأديب الذي وجد نفسه في عمل لا يريد أن يمارسه بجدية ونزاهة. ولا شك أن لسينغ كان كغيره من الكثيرين من قبل ومن بعد، الذين يعتبرون عملهم في المكتبة فرصة لكي يستفيدوا من المكتبة أكثر مما يفيدوها.

وقد كان أفراد آل هابسبرغ أيضا يهتمون كثيرا بمكتبتهم الملكية، التي أنشئت في العصر الوسيط. وقد اشتهر بعض الحكام من هذه الأسرة على كونهم من هواة جمع الكتب كالإمبراطور مكسيمليان الأول. وعلى الرغم من هذا فإن المؤسس الحقيقي للمكتبة الملكية لآل هابسبرغ يعتبر الإمبراطور فرديناند الأول (حكم خلال سنة (1531- 1556م).

وقد فتحت هذه المكتبة أبوابها للعامة في نهاية القرن السادس عشر، حين تولى إدارتها رجل متعلم ألا وهو هوغوبلو تيوس. وقد وضع بلوتيوس حينئذ فهارس هذه المكتبة (الفهرس الألفبائى في خمسة مجلدات سنة 1596م، وفهرس المخطوطات سنة 1597م). وقد شيد الإمبراطور كارل السادس خلال سنة (1723- 1726م) بناء فخما للمكتبة بتصميم ى. ب فيش فون أرلاخ، الذي كان أشهر مهندس معماري في فيينا حينئذ. وقد كان الجزء الرئيسي من المكتبة يتمثل في القاعة الكبيرة المزينة بأعمدة الرخام واللوحات الجدارية والتماثيل.

وفي هذه القاعة الكبيرة (التي يبلغ طولها 7, 77م وعرضها 2, 14م

وارتفاعها 9,6م وجد في البداية تسعون ألف كتاب ثم ضمت إليها مكتبة القائد العسكري المعروف أوغن سافويا (15 ألف كتاب). أما اليوم فيصل عدد الكتب في هذه المكتبة إلى 190 ألف كتاب.

وفي الواقع أن فخامة هذه المكتبة على نمط أسلوب الباروك كان يهدف أن يدلل على غنى وتألق فيينا في عهد آل هابسبرغ أكثر مما يفسح المجال الهادئ للعمل العلمي. إلا أن آل هابسبرغ لم يكونوا أول أو آخر أولئك الذين يريدون زيادة مجدهم بتشييد المكتبات الفخمة.

وقد أخذت هذه المكتبة اسمها الحالي (المكتبة الوطنية النمساوية) سنة 1920م، وهي اليوم تعد من أغنى المكتبات في العالم بعدد الكتب القديمة (7837 كتابا) والمخطوطات (35 ألف مخطوط).

وبالطبع لم تكن المطبعات الملكية هي المكتبات الوحيدة التي أسست حينئذ في ألمانيا والنمسا. فقد أسس الأمراء المحليون مكتبات مهمة أيضا في المدن الألمانية الأخرى كما في كاسل وغوت وبرلين الخ. وبعد انتهاء الحروب الدينية أسست الكثير من مكتبات المدن التي ضمت الكتب المأخوذة من الأديرة والكنائس. وهكذا فقد أسست مكتبة من هذا النوع في أوسبرغ سنة 1532م، وفي سنة 1560م في سفيكاو، وفي سنة 1616م في ليبك، وفي سنة 1602م في كلن، وفي سنة 1668م في فرانكفورت الخ. وقد كان بروز هذه المكتبات يرتبط بالحاجة المتزايدة لسكان المدن إلى الكتب، وخاصة إلى كتب العلوم الطبيعية.

وفي ذلك الوقت كانت من الأهمية بمكان أيضا المكتبات الجامعية، التي كان بعضها قد تأسس في السابق بينما تأسس معظمها خلال ذلك الوقت. وقد زادت أهمية المكتبات الجامعية كثيرا من انتشار البروتستانتية.

فقد أسست في الكثير من الجامعات التي أنشئت حينئذ مكتبات جامعية مركزية عوضا عن مكتبات الكليات، كما كان الأمر سابقا. وهكذا فقد أسست مكتبات من هذا النوع في جامعة يانة سنة (1558م) وفي جامعة ماربرغ سنة (1527م) وغيرها. ومن بين المكتبات الجامعية كانت من الأهمية بمكان مكتبة الجامعة التي أسست حينئذ في غيتنغن سنة (1737م).

فقد كان لهذه المكتبة ميزانية سنوية لشراء الكتب، وكانت تشتري بشكل خاص الكتب الجديدة اللازمة للعمل العلمي للطلاب والأساتذة والعلماء

الآخرين.

وكانت هذه المكتبة مفتوحة لكل الناس المتعلمين الذين يحتاجون للأدبيات العلمية، وكانت تدار بأحدث المفاهيم حينئذ وخاصة تلك التي وضعها لايينيس لعلم المكتبات. وقد ساهم كل هذا في تطور هذه المكتبة بسرعة (حوالي 1800 كان فيها حوالي 180 ألف كتاب) حتى إنها أصبحت مكتبة نموذجية وواحدة من أهم المكتبات في ذلك الوقت.

وفي إيطاليا أيضا زاد عدد المكتبات بعد النهضة. وقد اغتنت حينئذ مكتبات الأمراء ومكتبات الجامعات، ومكتبات المدن والمكتبات الخاصة بهواة جمع الكتب بالمخطوطات القديمة، التي كانت تكتشف في الزوايا السرية لمكتبات الأديرة أو تشترى في بلدان أوربا والشرق وبالإضافة إلى هذه المخطوطات فقد كانت تلك المكتبات تقبل أيضا على شراء الكتب الجديدة.

وإلى جانب المكتبات الموجودة فقد أسست حينئذ مكتبات كثيرة واشتهرت بشكل خاص بعض المكتبات العائدة لهواة جمع الكتب. وفي الواقع أن معظم هذه المكتبات لم تبرز بفضل إسهام سلطات المدن أو سلطة الدولة، بل بفضل إسهام الأفراد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عددا كبيرا من المكتبات الخاصة القديمة والمعروفة منذ العهود السابقة تحولت إلى مكتبات عامة أو أصبحت جزءا لا يتجزأ من مكتبات عامة.

ومن بين أشهر هواة جمع الكتب في إيطاليا حينئذ كان الأوغسطيني إنجلو روتا سنة(1545- 1620م)، العالم المعروف وأحد أفضل العارفين بتاريخ المكتبات الرومانية. وقد شغل روتا لفترة من الزمن منصب مدير مكتبة الفاتيكان، بينما أسس في روما سنة 1614م مكتبة عامة كبيرة دعيت باسمه. وقد كانت هذه أول مكتبة عامة في روما. وبفضل مروءة الأفراد أسست في روما مكتبة كبيرة أخرى ألا وهي (مكتبة كازاناتا). وقد أسس هذه المكتبة حينئذ الكاردينال جيرولامو كازاناتا سنة (1620- 1700م) الذي شغل أيضا لفترة من الزمن منصب مدير مكتبة الفاتيكان. وكان

هذا الكاردينال قد أوصى بمكتبته الخاصة (25 ألف مجلد) وثروته (160 ألف سكودا)[(*1)] إلى دير سانتا ماريا سبورا منيرفا الدومينيكا في روما لكي تؤسس بها مكتبة عامة.

(*1) Skuda عملة فضية كانت تستخدم في البندقية. (المترجم).

وفي الواقع لقد بدأ إنشاء هذه المكتبة في السنوات الأخيرة لحياة الكاردينال، بينما فتحت للعامة سنة 1701م. وقد ضمت إلى هذه المكتبة خلال القرن الثامن عشر عدة مكتبات خاصة ومهمة بحيث أن هذه المكتبة أصبحت واحدة من أكبر وأهم المكتبات العامة في روما.

وقد أسس البابا ألكسندر السابع سنة 1661م مكتبة أخرى في روما، ألا وهي «مكتبة ألساندرينا» التي أصبحت لاحقا مكتبة جامعة روما.

ومن المكتبات التي وجدت سابقا لا بد أن نذكر مكتبة الفاتيكان، التي عرفت في تلك الفترة أكبر ازدهار لها. فقد كانت تصل إليها هدايا قيمة من المخطوطات من كافة أرجاء العالم المسيحي، كما أن بابوات روما كانوا لا يقصرون في شراء الكتب وحتى في شراء مكتبات خاصة بكاملها. وهكذا فقد اشترى مثلا البابا ألكسندر السابع سنة 1657 مكتبة دوق أوربينو المعروفة مقابل عشرة آلاف سكودا. وحين وصلت هذه المكتبة إلى روما في سنة 1658م تولى فهرسة مجلداتها اللاتينية الشاعر والعلامة الراغوصي ستيبان غراديتش، الذي كان لفترة من الزمن أمينا ثم مديرا لمكتبة الفاتيكان.

وفي سنة (1623م) وصلت إلى روما هدية قيمة، ألا وهي «مكتبة البلاط» من هايدلبرغ. و كانت هذه أثمن هدية على الإطلاق تلقتها مكتبة الفاتيكان. وخلال القرن السابع عشر وصلت إلى روما عن طريق الإهداء أو عن طريق الشراء عدة مكتبات أخرى كمكتبة الأسرة الأرستقراطية القديمة «أورسبيني»، ومكتبة الملكة السويدية كريستينا، التي اشتراها البابا ألكسندر الثامن سنة 1690م مقابل ثمانية آلاف بياسترا، وغيرها من المكتبات.

وبمبادرة وتمويل هواة جمع الكتب ورعاة الأدب والعلم أسست مكتبات كبيرة أخرى في بقية المدن الإيطالية أيضا. وهكذا يعود الفضل إلى أحد هواة جمع الكتب، أنطونيو ماليابيكي، في تأسيس مكتبه هامة ألا وهي المكتبة التي تدعى اليوم «المكتبة الوطنية المركزية» في فيرنسا.

وقد كان مالياييكي أحد أغرب العاملين في المكتبات خلال التاريخ. فقد كان يعمل وسط أكوام من الكتب في «مكتبة البلاط» للدوق الكبير كوزيمو ميديشي الثالث، إلا إنه كان محاطا بالأعداء نظرا لهيئته المنفرة وطبيعته الحاقدة. ومع هذا فقد كان الجميع يحترمونه لجديته العظيمة ومعرفته الواسعة، حتى أن الكثيرين من المثقفين في عصره، كانوا يتوجهون إليه طلبا

للنصيحة. ومن هؤلاء كان لايبينيس نفسه، الذي كانت له مراسلات كثيفة مع ماليابيكي. ولا شك في أن ماليابيكي كان في ذلك الوقت أكبر خبير في شؤون الكتاب في إيطاليا، وقد استفاد من معرفته في تكوين مكتبته الخاصة التي احتوت في نهاية حياته على ثلاثين ألف مجلد. وقد أوصى بهذه المكتبة بعد وفاته إلى مدينته فيرنسا، حيث افتتحت أخيرا للعامة سنة 1747م. وقد انضمت هذه المكتبة سنة 1859م إلى (مكتبة البلاط) لتتشكل مكتبة واحدة هي (المكتبة الوطنية المركزية) التي أصبحت المكتبة الوطنية لكل إيطاليا بعد وحدة البلاد سنة 1860م. وقد بقيت هذه إلى اليوم أكبر مكتبة في إيطاليا إذ إنها تحتوي على أربعة ملايين كتاب و24 ألف مخطوط و3655 من الكتب المطبوعة القديمة.

وعلى نمط رعاة الأدب والعلم الكبار في عصر النهضة قام رئيس الأساقفة في ميلانو، الكاردينال فدريكو بوروميو بتأسيس المكتبة المشهورة «مكتبة الأمبروزيانا» سنة 1607م، التي دعيت بهذا الاسم نسبة إلى القديس أمبروز، أسقف ميلانو من القرن الرابع الميلادي وحامي المدينة. وقد وضع الكاردينال بوروميو نفسه القانون الداخلي للمكتبة، الذي يحدد عمل المكتبة وتنظيمها. وحسب رغبة مؤسسها فقد أصبحت «مكتبة الأمبروزيانا» مكتبة عامة ومركزا للنشاط العلمي المتدفق.

وقد تمكن بوروميو بجهده الكبير وماله الكثير من أن يؤمن للمكتبة عددا كبيرا من المخطوطات النادرة. فقد كان يرسل رجاله المتعلمين إلى ألمانيا وإسبانيا ومصر وتركيا لكي يجدوا للمكتبة المخطوطات القديمة والنادرة. وقد ارتفع بسرعة عدد المخطوطات في «مكتبة الأمبروزيانا» حتى وصل إلى 35 ألف مخطوط، ومن بين هذه توجد مخطوطات نادرة في اليونانية واللاتينية والفارسية والأثيوبية والعربية الخ، سواء من العصر القديم أو من العصر الوسيط. وهكذا فقد وجدت طريقها إلى المكتبة أجزاء من «الإلياذة» هوميروس مزينة بالرسوم تعود إلى القرن الرابع، ونسخة من «الكوميديا الإلهية» لدانتي تعود إلى سنة 1353م وألواح كثيرة Palimpsest من العصر القديم (مؤلفات تيرنسي وبلاط وغيرهم). وقد حظيت المكتبة لاحقا بمؤلفات نادرة. وهكذا فقد امتلكت المكتبة سنة 1637م عدة مخطوطات لـ ليوناردو دي فنشي، ومنها مؤلفه المعروف «المجموعة الأطلنطية». وفي

مطلع القرن التاسع عشر تمكن أمين المكتبة اليسوعي أنجلوا ماي، الذي كان من أشهر الباحثين عن المخطوطات القديمة، من العثور في هذه المكتبة على بقايا مكتبة دير بوبيو المعروفة في العصر الوسيط (71 مخطوطا).

ولا تزال «مكتبة الأمبروزيانا» تعتبر إلى اليوم من أغنى المكتبات في العالم، وخاصة بالمخطوطات النادرة المزينة بالرسوم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مكتبة «الأمبروزيانا» قد استقرت منذ البداية في بناء ضخم أنشأه بوروميو مقابل الكاتدرائية في ميلانو.

وبالإضافة إلى هذه المكتبات التي ذكرناها فقد كانت هناك في إيطاليا مكتبات كثيرة أخرى في ذلك الوقت. وقد توسعت حينئذ بشكل خاص المكتبات الجامعية القديمة كمكتبة جامعة بولونيا، التي تعود بدايتها إلى القرن الثاني الميلادي. وعلى الرغم من وجود مكتبات للكليات فقد أسست في جامعة بولونيا خلال القرن الثامن عشر مكتبة مركزية لكل الجامعة. وفي تورينو أسس فيكتور أميديو الثاني سنة 1720م مكتبة جامعية عامة، كما برزت حينئذ مكتبات جامعية أخرى في بقية المدن الإيطالية (مسينا، كاتيه، مورينا الخ).

وفي الحقيقة كانت إيطاليا قد فقدت أهميتها السابقة التي كانت لها في عصر النهضة في مجالات العلم والأدب والفنون. وقد حدث هذا حينئذ نتيجة لتدهور وضع إيطاليا الاقتصادي بعد اكتشاف العالم الجديد، ونتيجة للضغوط القوية للحركة المعادية للإصلاح الديني التي لم تفسح المجال كثيرا أمام تغلغل الأفكار العلمية الجديدة وأمام حرية الإبداع الفني. ومع هذا يمكن القول، في إطار حديثنا عن المكتبات، إن إيطاليا وحدها كانت متخلفة قليلا عن بقية البلدان الأوربية.

ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت فرنسا-لعدة اعتبارات- في طليعة البلدان الأوربية، وحتى أنها كانت تعتبر نموذجا للآخرين. وفيما يتعلق بالمكتبات أيضا فقد كانت فرنسا هي السباقة، ولذلك لم يكن من المصادفة أن يستلهم لايبنيس في باريس-التي كانت حينئذ دون شك مركز أوربا الثقافي-أفكاره حول تنظيم المكتبات وأهميتها في تطور العلم.

ففي باريس خلال ذلك الوقت كانت تعيش فئة من العلماء البارزين، الذين لا يمكن تصور عملهم دون وجود مكتبات كبيرة ومنظمة.

ومن هؤلاء مثلا العالمان ج. مابيون وب. مونتفلوكون اللذان قاما، بمساعدة فريق من الخبراء في إصدار طبعات نقدية للمصادر التاريخية القروسطية، وفي وضع الأساس لعلم الوثائق القديمة diplomatika ولعلم الكتابات القديمة paleographia كفرعين لعلمين مستقلين. وبالقرب منهما كان يعمل الراغوصي المثقف أنزلمو باندور Bandur، أحد مؤسسي علم الدراسات البيزنطية. وبالطبع فإن عمل ديدرو وغيره في «الموسوعة»، التي تمثل خلاصة رائعة للمعرفة والقدرة الإنسانية في ذلك الوقت، لا يمكن تصوره دون عتبات ضخمة في عاصمة فرنسا.

وفي الواقع لقد كانت هناك عدة مكتبات تحت تصرف هؤلاء العلماء في أبحاثهم التاريخية وغيرها. ومن هذه لا بد أن نذكر أولا «المكتبة الملكية»، التي كانت لا تزال تتميز عن كافة المكتبات الفرنسية الأخرى. فخلال عهد لويس الرابع عشر كان يهتم بها مثلا وزيره جان باتيست كولبر سنة (1619-1683م)، أحد أشهر هواة جمع الكتب في ذلك الوقت. وقد كانت لهذا الوزير مكتبته الخاصة، الغنية جدا بالمخطوطات القروطسية والشرقية، التي جمعها بإنفاق المبالغ الطائلة بالإضافة إلى ما كان يوفره له مركزه الرسمي من إمكانيات. وقد اشترى لاحقا الملك لويس الخامس عشر من أحد ورثة كولبر 15 ألف مخطوطة لصالح «المكتبة الملكية» بينما بيعت الكتب المطبوعة الأخرى في المزاد العلني.

ونتيجة لاهتمام كولبر وعونه غير المحدود فقد ازدهرت «المكتبة الملكية» كثيرا في ذلك الوقت حتى أن عدد المخطوطات والكتب تضاعف فيها أربع مرات. وقد انتقلت هذه المكتبة سنة 1720م إلى المجمع الذي كان يحتوي سابقا على مقر إقامة الوزير مازارين، حيث فتحت أبوابها للعامة سنة 1735م بعد أن تم تنظيمها جيدا. وخلال الثورة الفرنسية أقيمت هذه المكتبة ودعيت منذ ذلك الحين باسم «المكتبة الوطنية».

أما المكتبة الكبيرة الأخرى في فرنسا فقد أسست بفضل الوزير جول مازارين سنة (1602- 1661م) ولذلك فقد دعيت باسمه «مكتبة مازارين». وقد كان هذا الكاردينال المثقف وزيرا ذا نفوذ كبير لدى الملك لويس الرابع عشر، كما عرف عنه ولعه بجمع الكتب. وفي الحقيقة فقد أنفق حينئذ جزءا من ثروته الواسعة، التي تمكن من جمعها كوزير خلال فترة قصيرة،

على شراء مجموعات كاملة من الكتب. وهكذا فقد اشترى مثلا مكتبة جان ديكوردية من ليموج، التي كانت تحتوي على ستة آلاف مجلد. وقد تحولت مكتبته الخاصة أخيرا سنة 1643م إلى مكتبة عامة، حين كانت تحتوي 12 ألف مجلد و400 مخطوط، وأصبحت حينئذ واحدة من تلك المكتبات النادرة في أوربا التي كانت تفتح أبوابها لكل من يهتم بالكتاب. وحسب القانون الداخلي للمكتبة فقد كان بإمكان المهتمين أن يأتوا إلى المكتبة كل خميس من الساعة 8 حتى الساعة 11 صباحا، ومن الساعة 2 حتى الساعة 5 بعد الظهر.

وقد أصبح على رأس هذه المكتبة منذ سنة 1642م العالم المعروف غابرييل نوده. وكان هذا العالم قد اشتغل سابقا في مكتبة فرانسيسكو باربرين في روما، ثم في مكتبة الكاردينال ريشيلو في باريس. وقد أدار نوده مكتبة مازارين وطورها حسب المبادئ التي كان قد صاغها في مؤلفه المعروف «طريقة تنظيم المكتبة»، الذي صدر سنة 1627م. وفي الواقع لقد وضع نوده، في هذا المؤلف الأسس للمفهوم الجديد للمكتبة كمؤسسة عامة. وهكذا فالمكتبة، حسب رأي نوده، يجب أن تخدم العلم ولذلك فإن الكتب يجب أن تجمع لأجل هذه المهمة وليس لمجرد التباهي بجمعها. ولكي تنجح في مهمتها هذه لا بد أن تقوم المكتبة بشكل منظم بجمع الكتب من كافة حقول المعرفة الإنسانية، وتوفير كل الكتب الأساسية والقواميس والموسوعات، وغيرها من المؤلفات المرجعية العامة، بالإضافة إلى تصنيف منطقي ومبسط للكتب على أساس الموضوعات. ويذكر نوده في كتابه مختلف الأسماء من مجالات علمية عديدة لا بد أن تكون مؤلفاتهم في كل مكتبة غنية بالكتب. وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية مطالبته بأن تحتوي المكتبات على مؤلفات الهراطقة لأجل البحث العلمي، وحتى على مؤلفات أولئك الذين تمنعهم رقابة الكنيسة ورقابة الدولة. وفي الواقع لقد كان نوده في هذا الكتاب أول من صاغ النظرية المنظمة لعلم المكتبات الحديث. لقد كان تأثير هذا الكتاب كبيرا سواء في فرنسا أو في بقية البلدان الأوربية.

فقد صدرت الترجمة الإنكليزية لهذا الكتاب منذ سنة 1661م، وكنا قد ذكرنا أن لايبينس قد استفاد من هذا الكتاب في تنظيم مكتبته في فولفن بيتل وفي صياغته لأفكاره حول موقع المكتبة في المجتمع.

ومن هنا فقد وجد مازارين في نوده أفضل من يحقق طموحه لتأسيس مكتبة علمية نموذجية وعامة. وخلال فترة قصيرة ضمت هذه المكتبة 45 ألف مجلد، وأصبحت أهم مكتبة في فرنسا من حيث تنظيمها النموذجي وعدد كتبها.

إلا أن الانتفاضة التي اندلعت ضد مازارين «فروند» سنة(1648- 1653م)، وتراجع مازارين المؤقت عن السلطة، كان يعني كارثة بالنسبة لهذه المكتبة. فعلى الرغم من معارضة نوده العنيفة فقد صوت البرلمان لصالح بيع كتب هذه المكتبة بأرخص الأسعار. وقد حاولت حينئذ الملكة السويدية كريستينا أن تشتري هذه المكتبة بكاملها، إلا أن محاولتها هذه لم تنجح. ومع هذا وجدت المخطوطات فقط طريقها إلى استوكهولم، كما أن نوده نفسه ذهب إلى استوكهولم تلبية لدعوة الملكة ليعمل في مكتبها بعد أن ثار لهذا المصير الذي آلت إليه هذه المكتبة، التي كونها بكل مشاعره. وبعد أن عاد مازارين ثانية إلى السلطة قام بإحياء مكتبته، ودعوة نوده لكي يتولى أمورها ثانية. وقد لبى نوده هذه الدعوة، إلا أنه توفى في الطريق، في مدينة إبفيل بفرنسا الشمالية سنة 1653م.

وبعد أن قام مازارين بإحياء المكتبة فتحت مرة ثانية للعامة سنة 1691م، وقد بقيت إلى اليوم واحدة من أشهر المكتبات في فرنسا.

وفي تلك الفترة لا بد أن نذكر مكتبتين عامتين أيضا في باريس. الأولى هي المكتبة القديمة لدير سان جنيفيف، التي فتحت أبوابها للعامة سنة 1758م، ثم أممت خلال الثورة الفرنسية. أما الأخرى فهي «مكتبة أرسنال»، التي أسست سنة 1793م، والتي بقيت إلى اليوم واحدة من أكبر المكتبات في فرنسا.

وفي إنجلترا كانت من الأهمية بمكان مكتبة أوكسفورد القديمة. وقد عرفت هذه المكتبة منذ سنة 1320م واغتنت بفضل رعاية بعض المحسنين كالملك هنري الرابع وغيره من الحكام الإنكليز.

ومن بين هؤلاء لا بد أن نخص بالذكر الدوق همفري من غلوستر، الذي وهب هذه المكتبة خلال سنة (1435- 1447م)، مجموعته الكبيرة من المخطوطات. ولأجل الحفاظ على هذه المجموعة الكبيرة من المخطوطات بشكل مناسب فقد بنيت حينئذ سنة (1489م) قاعة خاصة تحتوي على

الخزائن والطاولات المائلة، التي لا تزال قائمة إلي اليوم. إلا أنه من هذه المجموعة من المخطوطات بالذات لم يبق إلى اليوم إلا القليل منها. وفي الواقع أدت الحروب الدينية والسياسية خلال العقدين الخامس والسادس للقرن السادس عشر إلى تشتيت كتب هذه المكتبة المشهورة، بل إن أثاث هذه المكتبة بيع بأرخص الأسعار سنة 1556م بحجة عدم لزومه.

ومن ناحية أخرى كان السيد توماس بودلي سنة(1545- 1613م) قد قرر أن يخصص بقية حياته وثروته لمكتبة أوكسفورد بعد انسحابه من خدمته الدبلوماسية الناجحة. وهكذا فقد تمكن بثروته أن يحيي هذه المكتبة، وكان يرغب حينئذ بأن تكون المكتبة مفتوحة لكل الطلاب والمتعلمين. وخلال سنتين تمكن بودلي بالفعل أن يحيي هذه المكتبة. وقد كون النواة الأولى من الكتب التي أهداها للمكتبة من مكتبته الخاصة ثم أخذ في جمع الكتب بشكل منظم ليزيد باستمرار من عدد الكتب فيها. وقد أرسل حينئذ رجله الكتبي جون بيل إلى إيطاليا وألمانيا لكي يشتري الكتب لهذه المكتبة. وهكذا فقد تمكن خلال فترة قصيرة أن يجمع 2500 كتاب، وهو الوضع الذي كانت عليه المكتبة حين فتحت أبوابها للعامة في 8 تشرين الثاني سنة 1602م. وقد أثرى لاحقا الكثير من المحسنين هذه المكتبة بالمخطوطات والكتب المطبوعة التي كانت لها قيمة كبيرة. وفي الواقع لقد كانت تشترى مكتبات بكاملها لأجل هذه المكتبة. وهكذا فقد ضمت إلى هذه المكتبة مجموعة كبيرة جدا من المخطوطات اليونانية والشرقية «8 آلاف مخطوط» التي كانت تعود إلى جون سلتن. وقد دعيت هذه المكتبة باسم مؤسسها «مكتبة بودلي» ولا تزال إلى اليوم تعرف بهذا الاسم.

وبفضل اهتمام بودلي فقد حصلت هذه المكتبة سنة 1615م على الحق بالنسخة الإلزامية من كل كتاب يطبع في إنكلترا. وتأتي هذه المكتبة اليوم في المرتبة الثانية في إنكلترا، وهي تعد أغنى المكتبات في العالم بكتبها الكثيرة (2,5 مليون كتاب) ومخطوطاتها النادرة.

أما المكتبة الثانية الكبيرة فقد أسست هذه المرة في العاصمة الإنكليزية لندن. وأن فكرة تأسيس مكتبة في هذه المدينة برزت منذ القرن السادس عشر، إلا أنها لم تتحقق إلا في القرن الثامن عشر.

لقد تمثلت الخطوة الأولى في تحقيق هذه الفكرة في مبادرة السير

جون كتن J. Cotton الذي أهدى للأمة سنة 1700م مكتبة جده السير روبرت كتن، التي كانت غنية جدا بالمخطوطات الإنكليزية. وقد ابتلع حريق شب في سنة 1731م قسما من هذه المجموعة من المخطوطات «114 مخطوطا» بينما دخل القسم الآخر في إطار المكتبة الجديدة التي أسست أخيرا بعد أن اشترى البرلمان الإنجليزي المكتبة الكبيرة الخاصة للسير جورج سلوانت. وكان هذا العالم بالطبيعيات قد تمكن أن يجمع خلال حياته مكتبة كبيرة من المخطوطات والكتب المطبوعة بالإضافة إلى مجموعة من التحف الأثرية ومجموعة النباتات النادرة الخ.. وقد أوصى سلوانت بهذه المكتبة للأمة بشرط أن يحصل ورثته على تعويض ما. وقد اشترى البرلمان الإنجليزي كل هذه التركة مقابل عشرين ألف جنيه، بما في ذلك المكتبة التي كانت تحتوي على 3500 مخطوط، و40 ألف كتاب مطبوع. وقد اشترى البرلمان لاحقا مجموعة المخطوطات الخاصة بروبرت وإدوارد هارلي، كما اشترى أيضا مبنى «مونتاغا» حيث وضعت هذه المجموعات. وقد انضمت كتب «المكتبة الملكية» إلى هذه المجموعات سنة 1757م، وهكذا فتحت أخيرا للعامة «مكتبة المتحف البريطاني» سنة 1759م، وفي تلك السنة لم تكن هذه المكتبة تضم أكثر من 13200 مخطوط و57 ألف كتاب، إلا أنها سرعان ما ازدهرت بعد أن ضمت إليها مكتبات خاصة من كافة أرجاء إنكلترا. ونظرا للسيولة النقدية التي كانت تحت تصرف المتحف البريطاني فقد تمكن هذا المتحف من شراء أشياء نادرة أيضا من كافة أرجاء العالم. وهكذا لا يوجد لدينا اليوم في العالم إلا بعض المكتبات النادرة التي يمكن أن تعتز بما لديها من ثروة متنوعة كمكتبة المتحف البريطاني. ففي هذه المكتبة اليوم سبعة ملايين كتاب وعدد كبير من المخطوطات ووثائق أخرى ثمينة.

وفي إسبانيا أسست واحدة من أهم المكتبات خلال القرن السادس عشر. وقد أسس هذه المكتبة حينئذ فيليب الثاني، الذي قام بشراء المخطوطات النادرة والكتب المطبوعة لها في إيطاليا وهولندا وغيرها من البلدان.

وفي البداية كان مقر المكتبة في فالادوليدا، ثم نقلها الملك بعد ذلك إلى الإسكوريال قرب مدريد حيث بنى لنفسه مقرا لإقامته الصيفية. وحسب أفكار الملك ومستشاريه فقد روعي في هذه المكتبة أن تكون مركزا نشيطا

للحياة الثقافية في البلاد. ولأجل هذا فقد جمعت المخطوطات القديمة بشكل منظم، وخاصة من الأديرة الإسبانية، والمكتبات الخاصة كمكتبة الفيلسوف المعروف فران بترتيش-المولود في تسرس Cres-التي باعها للملك فيليب الثاني حين وقع في ضائقة مادية. وقد كانت هذه المكتبة تضم بشكل خاص المخطوطات اليونانية، التي كان بترتيش قد جمعها خلال إقامته في قبرص. وقد وصلت إلى «مكتبة الإسكوريال» لاحقا الكثير من المخطوطات اليونانية واللاتينية والكتب المطبوعة من ألمانيا. وكان المهندس المعروف هريرا Herrera قد أنشأ بناء فخما لهذه المكتبة، التي أصبحت بهذا من أولى المكتبات الجميلة التي بنيت بأسلوب الباروك في أوربا. وللأسف فقد شب حريق في المكتبة سنة 1671م التهم حوالي 4 آلاف مخطوط كان من بينها بعض المخطوطات التي تخص الفيلسوف بترتيش.

أما في روسيا القيصرية فقد كانت المكتبات الكبيرة لا تزال نادرة في ذلك الوقت. وقد أسست هناك مكتبة مهمة بعد أن قام بطرس الكبير بتأسيس العاصمة الجديدة للدولة، بطرسبرغ أو لينينغراد الحالية. وهكذا فقد أسست في هذه المدينة، التي كان كل شيء فيها على النمط الغربي، سنة 1714م مكتبة علمية حسب تصميم غ. ف. لايبنيس. وقد انضمت هذه المكتبة فيما بعد إلى أكاديمية العلوم التي أسست حينئذ إلا أنها بقيت لقرن من الزمن تقوم بدور المكتبة العلمية المركزية لروسيا. وقد حصلت هذه المكتبة أخيرا سنة 1783م على الحق في الحصول على النسخة الإلزامية.

وفي نهاية القرن الثامن عشر بادرت الإمبراطورة كاترين إلى تأسيس مكتبة أخرى في المدينة ذاتها، ألا وهي «المكتبة الإمبراطورية» التي أصبحت لا تقارن مع المكتبة الأولى. وقد تأسست «المكتبة الإمبراطورية» سنة 1795م من الكتب التي نهبها الجيش الروسي في بولونيا. ففي تلك السنة وصلت إلى بطرسبرغ «المكتبة الوطنية» البولونية «مكتبة زالوسكي» بكاملها، وقد اهتمت حينئذ الإمبراطورة كاترين بتوسيع هذه المكتبة حتى أنها اشترت قسما من المكتبتين الخاصتين بالأديبين والفيلسوفين ويدرو وفولتير.

وقد أسس م. ف. لومونوسوف سنة 1755م الجامعة المعروفة وألحق بها سنة 1756م، المكتبة التي تم تنظيمها وإدارتها حسب نموذج مكتبة غتنغن.

وكانت بولونيا قد سبقت روسيا بعدد من المكتبات الكبيرة والمهمة. وكانت

هذه المكتبات القديمة التي أسست في العصر الوسيط، كمكتبة كراكوف في القرن الرابع عشر والمكتبات الجامعية الخاصة، وقد حافظت على قاعدة لا بأس بها لكي تتطور لاحقا في عصر النهضة والعصر اللاحق. ومن هذه المكتبات كانت من الأهمية بمكان مكتبة آل زالوسكي، التي كانت تحتوي على 200 ألف مخطوط وكتاب ومادة مكتبية حين فتحت للعامة سنة 1747م، وقد كانت لهذه المكتبة أهمية خاصة بالنسبة إلى بولونيا لأن كونتات آل زالوسكي كانوا يهتمون كثيرا بجمع الكتب البولونية. وسرعان ما أصبحت هذه «المكتبة الوطنية» في بولونيا وحصلت سنة 1780م من المجلس التمثيلي البولوني «السيام» على حق الحصول على النسخة الإلزامية. وللأسف فقد نقلت هذه المكتبة كغنيمة حرب إلى روسيا كما ذكرنا ولم تعد من هناك ثانية. وقد كانت هذه المكتبة تحوي حينئذ 400 ألف كتاب وتعد واحدة من أكبر المكتبات في أوربا. ولم يعد من هذه المكتبة إلى بولونيا إلا قسم صغير من الكتب فقط خلال سنة (1922, 1934م)، حيث ضمت حينئذ الـ«المكتبة الوطنية».

وفي الواقع لقد كان جمع الكتب وتكوين المكتبات الخاصة الكبيرة تقليدا شائعا في بولونيا، وخاصة خلال القرن الثامن عشر، ومما ساعد على ذلك ثروة البرجوازية الجديدة والشريحة الغنية من التجار. وهكذا فقد كانت لأسرة راكسفيل المعروفة مكتبة غنية، منذ القرن السادس عشر. إلا أن هذه المكتبة تعرضت سنة 1772م، حين كانت تحوى عشرين ألف كتاب إلى ما حدث لاحقا لمكتبة آل زالوسكي إذ إنها حملت أيضا إلى روسيا.

وفي بلاد التشيك كان هناك نوع من التقليد الطويل في تكوين المكتبات الغنية. ومن هذه المكتبات التي كانت من الأهمية بمكان مكتبة جامعة براغ، التي تأسست في القرن الرابع عشر،

وقد اغتنت هذه المكتبة بالكتب بشكل ملحوظ بعد منع اليسوعيين من النشاط سنة (1773م)، إذ ضمت إلى المكتبة اثنتا عشرة مكتبة يسوعية تتضمن مائة ألف كتاب. وقد وصل إلى المكتبة الكثير من الكتب بعد مرسوم الإمبراطور جوزف الثاني سنة(1782م) بإغلاق الكثير من الأديرة ومصادرة مكتباتها. وتمثل سنة (1777م) أهمية خاصة إذ أن هذه المكتبة تحولت حينئذ إلى مكتبة علمية عامة.

مطبعة بتقنية جديدة كما تخيلها الإيطالي فيتوريو زونسا في كتابة المطبوع في بادوفا سنة 1607:
Nuovo teatro di machine, Padova 1607

وقد اغتنت هذه المكتبة أكثر خلال ذلك القرن حين ضمت إليها عدة مكتبات خاصة كمكتبة كونتات آل كينسكي. وقد منح الإمبراطور فرديناند الأول من مكتبته الخاصة أربعة آلاف كتاب لهذه المكتبة، وأطلق عليها سنة (1782م) اسم المكتبة العامة والجامعية. وقد دخلت هذه المكتبة في مطلع القرن العشرين في إطار «مكتبة الدولة الكبرى في تشيكوسلوفاكيا»، إلا أنها بقيت تحتفظ بهويتها الخاصة.

أما في بلاد السلاف الجنوبيين-اليوغوسلاف-فقد كانت الظروف في ذلك الوقت لا تسمح بتطور المكتبات. ففي كرواتيا الساحلية نجد عددا كبيرا من المكتبات إلا أنها على الأغلب في الأديرة والكنائس والمدارس الدينية، بالإضافة إلى أنها كانت متواضعة من حيث عدد الكتب فيها، ومن أهم هذه المكتبات الأديرة القديمة التابعة للدومينيكان والفرنسيسكان في دوبرفنيك «راغوصة»، ومكتبة المدرسة الدينية في سبليت. وبالإضافة إلى هذه كانت هناك أيضا مكتبات خاصة لدى المثقفين من الأرستقراطية. ومن هذه لا بد أن نذكر هنا مكتبة أسرة غارانين-فانونغونيا الأرستقراطية في تروغير Trogir. وكانت هذه المكتبة قد أسسها في القرن الثامن عشر الشاعر إيفان لوقا غارانين، أسقف مدينة راب Rab، الذي جمع بشكل منظم في بيتة في تروغير الكتب والمخطوطات والكتابات القديمة والتحف الأثرية من سولين Solin القريبة، وقد تمكن هذا الأسقف-الشاعر من جمع مجموعة مهمة من المخطوطات وخاصة بالنسبة للماضي الكرواتي التي يمكن أن يستفيد منها المثقفون من البلاد وخارجها. وقد أغني هذه المكتبة في وقت لاحق حفيده إيفان لوقا، العالم المعروف في الزراعة والاقتصاد وأحد أشهر المثقفين في عصره في دالماسيا. ومع أن هذه المكتبة تعرضت إلى بعض المصاعب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلا أن معظم محتوياتها بقيت فيها إلى اليوم.

وفي كرواتيا الداخلية لم يكن الوضع يختلف كثيرا. فقد وجدت هناك أيضا مكتبات الأديرة وخاصة اليسوعية منها. ومن مكتبات الكنائس لا بد أن نذكر هنا مكتبة الكابيتول في زغرب. وتعد هذه من أقدم المكتبات في كرواتيا (أسست في القرن الحادي عشر)، وتتميز باستمرارها دون انقطاع حتى هذا اليوم. إلا أن هذه المكتبة كانت، في الفترة التي نقدت فيها، غير

منظمة في قاعة غير مناسبة، ولذلك لم يكن بوسع حتى رجال الكنيسة أن يستفيدوا منها. وقد اغتنت هذه المكتبة كثيرا سنة 1690م، حين ضمت إليها مكتبة العلامة السلوفيني إيفان فايكهارد فالفسور التي كانت تضم حوالي عشرة آلاف مجلد. ومن المكتبات الخاصة المهمة لدينا مكتبة آلبان[*2] نيقولا زربنسكي سنة (1620- 1664م)، التي وصل إلينا فهرسها من سنة 1662م. وحسب هذا الفهرس يتضح أن هذه المكتبة كانت تضم حينئذ أكثر من 400 كتاب. وبعد أن نقلت هذه المكتبة عدة مرات ضمت أخيرا سنة (1892م) إلى مكتبة جامعة زغرب حيث لا تزال هناك إلى اليوم. وقد كانت هناك مكتبات خاصة أيضا لدى المثقفين والأرستقراطيين والتجار، إلا أن هذه كانت مكتبات متواضعة لا تضم إلا عشرات الكتب، وفي أحسن الحالات مئات الكتب.

وفي سلوفينيا أيضا كان الوضع لا يختلف كثيرا عن كرواتيا، إذ أن مكتبات الأديرة والكنائس هناك أيضا هى الأكثر والأغنى. إلا أنه في تلك الفترة أسست عدة مكتبات أخرى مهمة كتلك المكتبة التي أسست سنة 1701م، في إطار «أكاديمية الأعمال»، التي تحولت سنة 1724م إلى مكتبة المدرسة الدينية بعد إقفال الأكاديمية المذكورة. وقد بنيت حينئذ في سلوفينيا لأجل هذه المكتبة أجمل قاعة بأسلوب الباروك، تلك التي حفظت حتى الآن. ومن أهم المكتبات الخاصة كانت مكتبة ي. ف. فالفسور.

أما بقية المناطق السلافية الجنوبية، التي كانت لا تزال تحت الحكم العثماني، فقد كانت المكتبات كلها تقريبا في الأديرة. وفي هذه المكتبات كانت تنسخ الكتب، وأحيانا تطبع، لأجل الطقوس الكنسية وغير ذلك من الحاجات الدينية. وإلى جانب هذه وجدت مكتبات أخرى متواضعة من حيث عدد الكتب، أسسها الأتراك أو المسلمون بشكل أدق[*3]. ومن أشهر هذه المكتبات التي أسسها سنة 1537م، وإلى البوسنة الغازي خسرو بك في

(*2) ألبان ban سيد، حاكم محلي في كرواتيا. (المترجم).

(*3) يبدو لنا أن المؤلف هنا لم يعط هذه المكتبات التي اسست في العصر العثماني حقها الذي تستحقة. ففي المناطق السلافية الجنوبية التي يذكرها المؤلف لم تؤسس عدة مكتبات بل عشرات المكتبات، كما انها لم تكن متواضعة بالنسبة لمثيلاتها في القرن 15-16، ولكن موقف رجال الدين في استنبول من الطباعة جعل هذه المكتبات تعتمد فقط على المخطوطات. وقد كان لهذا الموقف أثر إيجابي واحد على الأقل، إذ جعل هذه المكتبات، كمكتبة الغازي خسرو بك، من أهم مراكز المخطوطات الشرقية في يوغسلافيا الأن. (المترجم).

سراييفو في إطار المدرسة التي أنشأها هناك. وقد بقيت هذه إلى اليوم أهم مكتبة شرقية في يوغوسلافيا. وقد وجدت في البوسنة والهرسك مكتبات أخرى في ترافينك وسراييفو، حيث أسست هناك مكتبتان كبيرتان خلال القرن الثامن عشر.

وأخيرا يمكن القول إن الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر تعتبر هامة جدا بالنسبة لتطور المكتبات وذلك لعدة أسباب. ففي تلك الفترة اغتنت الكثير من المكتبات القديمة بشكل لم يسبق له مثيل، وأسست الكثير من المكتبات المهمة. وبالإضافة إلى هذا فقد تحولت الكثير من المكتبات الملكية والشخصية وغيرها إلى مكتبات وطنية. وقد وضعت في تلك الفترة أيضا الأسس النظرية للمفهوم الجديد حول المكتبة كجزء لا يتجزأ من المجتمع وكشرط مسبق للتطور العلمي والاجتماعي.

ومن ناحية أخرى فقد أصبح المبدأ الداعي إلى فتح أبواب المكتبات للعامة، الذي كان يطبق حتى ذلك الحين في حالات فردية نتيجة لبعد نظر بعض الأفراد أو بعض السلطات، مبدأ مقبولا بشكل عام حتى أنه لم تعد هناك حاجة للدعوة إليه في وسط أمناء المكتبات وأصحاب المكتبات وأولئك الذين يقررون مصير المكتبات. وبالنسبة إلى تأمين القاعات اللازمة، وحتى المباني الكبيرة التي تستوعب المكتبات، فقد كان يهتم بها كل من له شأن بذلك حتى أنه كان يحدث في بعض الأحيان نوع من التسابق على تشييد المباني الفخمة غير العملية. وعلى كل حال فقد كانت مشاركة أفضل المهندسين والفنيين في تشييد وتزيين المكتبات، بطلب من الحكام ورؤساء المدن ورعاة الأدب والعلم من الأغنياء، وتخصيص أفضل المواقع العمرانية للمكتبات الجديدة، تدل على أن المكتبة العامة كمؤسسة قد حصلت أخيرا على موقع مهم في المجتمع. وفي الواقع فقد كان التطور الكبير للمكتبات في أكثر البلدان الأوربية تقدما مرتبطا بالتقدم الكبير للعلم والثقافة والتكنولوجيا. وإذا لم يكن هناك شك في أن التقدم الاقتصادي لهذه البلدان ساهم بدوره في تقدم المكتبات، فكان جليا أن التطور الكبير للثقافة الخاصة بالكتب وبروز المكتبات الغنية والمنظمة بشكل جيد كانا من الشروط المسبقة والبالغة الأهمية لتطور العلم والتكنولوجيا، و هي بدورها من الشروط المسبقة الضرورية لتكوين هذه الثروة.

المراجع

حول تطور الطباعة وإصدار الكتب من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر لدينا دراسات شاملة:

G. Clair, A History of European Printing, London - New York - San Francisco 1976;

S.H. Steinberg, Five hundred Years of Printing, Harmondsworth 1969;

وحول ألمانيا بشكل خاص:

J.Benzing, Die ?uchdrucher des XVI. und XVIII jahrunderst im deutschen Sprachgebiet, Wiesbaden 1963;

W; Mjer, Der Buchdruchber Hans Luft zu Wittenberg, Leipzig 923.

ومن الدراسات الكثيرة حول الطابعين والناشرين الإيطاليين لابد أن نذكر:

G. Fumagalli, Lexicon typographicum Italiae, Olschki Firenze 1905;

E.Patorello, Tipograpghi, editori, librai a Venezia nel secolo XVI, Olschki Firenze 1924;

P.Trevisani, Bodoni: epoca, vita, arte, Milano 1951;

A.Quondam, Mercanzia d'onore, Mercanzia d'utile. Produzione li-braria el lavoro intelettuale a Vanezia nel Cinquecento, Libir, editori e publico nell'Europa moderna, Bari-Roma 1977;

G.Borsa, Clavis Typrgraphiorumque Italiae 1465-1600, I-II, Aureliae Aquensis 1980;

V. Castronovo-G. Ricuperati-C. Capra, La stampa Italiana dal Cinguecen to all'ottocento, Bari 1976.

وحول الطابعين والناشرين الفرنسيين في ذلك الوقت انظر:

G. Lepreux, Les trois premiers siecles de l'imprimerie en France, Paris 1926;

A.A.Renouard, Annales de l'imprimerie des Estienne, ou Histoire de la famille des Estienne et des ses editions, Paris 1843;

AJ.Bernard, Histoire de l'impriemerie royale du Louvre, Paris 1867.

وحول كبار الطابعين والناشرين الهولنديين انظر:

A.Ch.J. Willems, Les Elzevier, histoire et annales ty-pographiques, Bruxelles 1880;

C.Clair, Christopher Plantin, London 1960;

L.Voet, The Golden Compass, Vol-I-II, Amsterdam 1969-1972; Officiana Joannis Blaeu, Amsterdam 1961Æ

وفيما يتعلق بإنكليزا:

J.H. Benton, John Baskerville, New York 1944;

C.Clair, A History of Yrinting in Britain, London 1965.

وإسبانيا انظر:

P.Bohigas, El libro Espanol, Barcelona 1962.

وحول البلدان الإسكندنافية انظر:

B.Moller, Svensk bokhistoria, Stockholm 1931;

V.Pedersen, Dansk bogtypografi, Copenhagen 1959Æ

وحول أوربا الشرقية والوسطى انظر:

F.Horak, Five Hundred Years of Czech pringing, Prague 1968;

S.Lam, Le livre poloais an XV eet XVI siecle, Warszawa 1923, I.Bas, Ivan Fedorov, Moskva 1940.

وفيما يتعلق بالطابعين والناشرين في المناطق السلافية الجنوبية، والمؤلفين الذين ينحدرون من هذه المناطق، انظر:

J.Badalic, Jugoslavica usque ad annum MDC, Bibliographie der sudslawischen Fruhdruche, 2, Aufl. Aureliae Aquensis 1966;

L.Plavsic, Srpske Stamarje od Kraja 15. do sredine 19. veka, Beograd 1959;

D.S.Radojic, Karakter i glavni momenti iz proslosti starih srpskih stamparija (XV-XVIII veka), Istorijski zapisi,3 (1950), knji 6,Vol.7-8, p255-270;

W.Schmiz, Sudslawischer Buchdruch in Venedig (16-18, Jahrhundert), Untersuchungen und Bibliographie, Giessen 1977;

B. Bercic, Tiskarstvo na Slovenskem, Ljubljana 1968.

وحول نتائج حركة الإصلاح في تطور الكتاب والمكتبات انظر الفصل الخاص بها في:

K.Schottenloher, Bucher bewegten die Wilt, Bd. I. Stuttgart 1968.

وانظر أيضا:

O.Clemen, Die Lutherische Reformation und die Buchdruch, Leipzig 1939;

وحول موقف لوثر من الطباعة ومن الكتاب بشكل عام انظر:

O.Clemen, Luthers Lob der Buchdruckerkunst, Zwickau 1939;

R.Crofts, Books, Reform and Reformation,

Archiv fur Reformationsgeschichte, 71 (1980) p. 21-36.

وفيما يتعلق بدور الملصقات والكراسات النقدية بشكل خاص انظر:

R.G.Cole, The Reformation in Print, German Pamphlets and Propaganda, Archiv fur Reformationsgeschichte, 66 (1975), p.93-102.

وحول المطبعة البروتستانتية في أوراخ انظر:

F.Bucar, Povijest hrvatske protestantske knjizevnosti za reformacije, Zagreb 1910;

R.Vorndran, Sucslawische Reformationsdruche in de Universitatsbibiothek, Tubingen 1977.

وفيما يتعلق بالكتب الموجهة للشعب انظر:

C.Nisdar, Histoire des livres popullaires ou de la litterature du colportage, Paris 1864;

G.Bolleme, Livre et societe dans la France du 18 siecle, Vol.I,Paris 1865;

C.Angeleri, Bibliografia delle stampe popolari a carattere profano nei secoli XVI e XVII consservate nella Biblioteca Nazionale di Firenze, Firenze 1953.

وفي هذا الأخير لدينا قائمة طويلة من المصادر والمراجع القديمة.

A.Di Mauro, Stampe popolari a carattere profano, Accademie e biblioteche D'Italia, 48(1980), No.4-5, p.310-323;

R.Schenda, Volk ohne Buch, Studien zur Sozialgeschichte der popularen Lesestoffe 1770-1910. Frankfurt a M.1970, p.279-287;

V.Dukat, Iz povijesti hrvatskog kalendara, Narodna Starina, 2 (1923), p.15-38;

Ch.W.Dohm, Uber Volkskalender und Volkschriften uberhaupt, Leipzig 1796.

وفيما يتعلق بأقدم الدوريات انظر:

G.L.Piccardi, Saggio di una storia sommaria della stampa periodica, Roma 1886;

G. Weille, Le Journal, Origine, evolution de la presse period-ique, Paris 1934;

A.Smith, The Newspaper: An International History, Lodon 1983.

وحول أقدم المجلات الألمانية انظر:

J.Kirchner, Das deutsche Zeischriftensesen. T.I. Von den Anfangen des Zeitschriftensesen bis zum Ausbruch der Franzosischen Rovolution, Leipzig 1942.

وحول الدوريات الفرنسية لدينا دراسة مفصلة لدى:

R.de Livrois, Histoire de la presse francaise, Vol.I.-II, Lausanne, 1965.

وفيما يتعلق بمعارض الكتب انظر:

H.Bresard, Les foires de Lyon au XV et au XVI siecle, Lyon 1914;

A.Dietz, Zur Geschichte der Franfurter Buchermese 1462-1782, Frankfurt a M. 1921;

U.Dorini, Breve storia del commercio librario, Milano 1938;

M.Plant, The English Book-trade, London 1939;

S.Taubert, Bibliopola, Bd. I-II, Hamburg 1966;

H.Widmann, Geschichte des Buchhandels T.I.Wisbaden,

O.Harrassozwitz 1975Æ

وحول ملاحظة الكتب بشكل عام انظر:

G.Peignot, Essai historique sur la liberte de la presse depuis le XV siecle, Paris 1832;

G.Putman, Censorship of the Church of Rome and its Influences upon the Production and Distribution of Literature (1758-1900). Vol. I-II, New York 1908;

Ch. R. Gillet, Burned Books, Neglected Chapter in British History and Literature, Vol.I-II, New York 1932;

A.L.Haigt, Banned Books 387 B.C. to 1978 A.D., 4 ed., New York-London 1978;

H.H.Houben, Verbotene Literatur von der klassischen Zeit bis Gegenwart, Bd.I-II, Bremen 1928.

وفيما يتعلق برقابة الكنيسة وقوائم الكتب الممنوعة لدينا قائمة طويلة من الدراسات:

H.Reusch, Der index der verbotenen Bucher, Bd.I-II, Bonn 1883-1885.

J.Hilgers, Der Index der verbotenen Bucher, Feiburg 1904;

H.Lackmann, Die kirchliche bucheerzensur nach geltendem kanonischem Recht, Koln 1962.

وحول دوبروفنيك (راغوصة) بشكل خاص انظر:

F.Kestercanek, Cenzura knjiga i rukopisa i nadzor mad knjigama u Dubrovmiku za vrijeme Republike, Vjesnik bibliotekara Hrvatske, 3, (1954), p.17-26.

وحول النسخة المراقبة لـ»المكتبة الجامعية« لـ غستر انظر:

L.Balsamo, Bibliografia e cenzura ecclesiastica, A proposito dell' esemplare Lincei della ''Bibliotheca Universalis'' di Konard Gesner, Guttenberg-Jahrbuch (1976), p.298-305.

وفيما يتعلق بأماكن الطبع المزعومة انظر:

M.Parenti, Dizionario dei luohi di stama falsi, inventati e supposti, firenze 1951;

S.Juric, Nekoliko slucajeva starijih fingiranih impresuma s imenima kjesta uzetim s podrucjie Jugoslavije, Vjesnik bibliiotekara Hrvatske, 10 (1964), No.1-2, p.22-36.

وحول تزيين الكتب انظر:

H.Bouchot, Les livres a vignettes du XV au XIX siecle, Paris 1891;

L.Servolini, Incisione italiana di cinque secoli, Milano 1951;

M.Pranz, Studies in seventeenth-century imagery, 2 ed., Roma 1964;

D.Bland, A history of book illustration, London 1969;

Le livre illustre en Occident du Haut Moyen age a nos jours, catalogue, Brxelles 1977.

وفيما يتعلق بتطور المكتبات في ذلك الوقت لدينا دراسة مفصلة:

Handbuch der Bibliothekswissenschaft, II Aufl. Wiesbaden, Bd.I-II, 2 (Geschichte der Bibliotheken).

وانظر أيضا:

M.Burton, Famous Libraries of the World, London 1937.

وحول المكتبات الوطنية الكبرى، التي اتخذت في ذلك الوقت أهمية المؤسسات الوطنية، في بعض البلدان الأوربية وغيرها من بلدان العالم انظر:

A.Esdaile, National Libraries of the World, 2 ed. London 1957.

وحول ألمانيا بشكل خاص انظر الكتاب المذكور:

Handbuch der Bibliothekswissenschaft, Von der Renaissance bis zum Beginn der Aufklarung, Bd.III, 1, p.559-664.

وانظر أيضا:

G.Leyh, Die deutschen Bibliotheken von der Aufklarung is zur Gegenwart, Bd. III, 2, p.1-131.

وحول أهم المكتبات في ذلك الوقت انظر:

W.Herse, Die Herzog-Sugust - Bibliothem in Wolfenbuttel, Halberstadt 1928;

O.Hertig, Die Grundung der Munchener Hofbibliothek druch Albrecht V. und Johann Jakob Fugger, Munchen 1917;

K.J. Hartmann-H.Fuchsel, Geschichte der Gottinger Universitaatsbibliothek, Gottingen 1937;

L.Beltrami, La Biblioteca Ambrosiana, Milano 1896; Festschrift der Kaiserl, Konigl, Hofbibliothek zu Wien, Wien 1935;

P.Bankowski, Bibliioteka Publiczna Zaluskkich i jej Tworcy, Warsawa 1959;

A Franklin, Les anciennes bibliotheques de Paris, Vol. I-III, Paris†1867-1973;

A.Esdaile, The British Museum Library, a Short History and Survey, London 1946;

WÆD. Macray, Annals of the Bodleian Library, 2 ed.Oxford 1890;

FG.Antolin Y Pajares, La real biblioteca del Escorial, Madrid 1921;

J.V.Rice, Gabriel Naude 1660-1653, London 1939;

A.L.Clarke, Leibniz as a librarian, The Library, 5(1914), p.140-154.

المؤلف في سطور:

د. الكسندر ستيبتشفيتش

* باحث كرواتي معروف في تاريخ الكتابة والكتاب والمكتبات.

* عمل فترة طويلة بعد الحرب العالمية الثانية مديرا لمكتبة الأكاديمية اليوغسلافية للعلوم والفنون.

* بروفسور في جامعة زغرب منذ 1972 لمادة «تاريخ الكتاب والمكتبات».

* ترجمت معظم أعماله إلى اللغات الغربية (الإيطالية، الإنكليزية، الألمانية).

* من مؤلفاته:

- فن الإليريين، الطبعة الإيطالية 1963، الطبعة الإنجليزية 1966.
- الإليريون، الطبعة الإيطالية 1966، الطبعة اليوغسلافية 1967.
- الببليوغرافيا الإليرية، أربع طبعات 1967، 1974، 1978، 1984.
- رموز العبادة عند الإليريين 1982.

المترجم في سطور:

د.محمد م. الأرناؤوط

* مواليد دمشق 1950.

* ماجستير ودكتوراه في التاريخ الحديث من يوغسلافيا.

* أستاذ مساعد للتاريخ الحديث في قسم التاريخ بجامعة اليرموك.

* يشتغل في التاريخ الحضاري لبلاد البلقان وبلاد الشام في العصر العثماني.

* له عدة أبحاث في المجلات العلمية المتخصصة وشارك في عدة مؤتمرات دولية.

الكتاب القادم

الأدب الأفريقي

تأليف:

د. علي شلش

* من كتبه المنشورة:

- تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت 1987.
- ملامح عربية إسلامية في الأدب الألباني، دمشق 1990.
- الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة وتقديم، إربد 1990.
- دراسات ووثائق حول الدفشرمة، ترجمة وتقديم، إربد 1991.
- معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، إربد-دمشق 1992.
- الإسلام في يوغسلافيا-بيروت 1992.

هذا الكتاب

تحت هذا العنوان، أو بعناوين مشابهة، صدرت في أوربا خلال القرن العشرين حوالي
عشرة كتب، ولكن أهمها دون شك هو هذا الكتاب الذي صدر باللغة الصربو-
كرواتية للبروفسور اليوغسلافي د .الكسندر ستيبتشفيتش، الذي يعتبر من الخبراء
المعروفين في مجال تاريخ الكتاب والمكتبات.
ففي هذا الكتاب الضخم (القسم الثاني) يعيد المؤلف الاعتبار للشرق نظرا
للدور الكبير الذي كان له على مر العصور. وهكذا لم يعد الشرق يحتل عدة
صفحات، بل أصبح هنا يحتل عدة فصول وأصبح للعرب فصل خاص بهم تقديرا للمكانة
الكبيرة التي شغلها الكتاب لديهم. ومن ناحية أخرى فإن ميزة هذا الكتاب
تكمن في أنه يتخذ تاريخ الكتاب كمفتاح ليعرفنا على جوانب هامة في تاريخ
الحضارة الإنسانية.